

اخترنالك ١١٣



التشراكية الإسلام

المبسوط

الطبعة الثالثة

مقدم
الدكتور زورع طغى السباعي

أَشْرَافُ كِتَابِ الْأَسْئَالِ وَالْأَجْوَِبِ

بِقَلَمِ

الدُّكْتُورِ مُحَمَّدِ طَهْقِي السَّيَّاحِي

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .
وبعد فقد كنت أرقب ألا يعاد طبع هذا الكتاب للمرة الثانية إلا بعد ، أن أكون قد انتهيت من كل الأبحاث التي وعدت بتحقيقها في الطبعة الأولى ، ولكن الكتاب ماكاد يخرج إلى الأيدي حتى نفدت نسخه بعد أشهر قليلة ، ثم ازداد الطلب على ناشره ازديادا كبيرا مما اضطرني إلى تقديمه للطبعة الثانية دون أن أتمكن من تحقيق كل ما وعدت به قراء الطبعة الأولى .

ومع هذا فقد امتازت هذه الطبعة بتحقيقات مهمة وزيادات كثيرة وأمثلة عديدة من الواقع التاريخي ، أرجو أن يجد القارئ الكريم فيها الفائدتين المتصلة الروحية والعلمية .

وإني لأسأل الله جل شأنه أن يوفقني والعلماء الباحثين المخلصين لإبراز ما في تراثنا العفائدي والحضاري من مبادئ تكفل لنا بنساء نهضتنا الحاضرة على هدى من شريعة الله ، وتراث سلفنا الصالح وتجارب الأمم في القديم والحديث ، وهو ولي الهداية والتوفيق .

دمشق

٦ من رجب الفسرد ١٣٧٩
٤ من كانون الثاني « يناير » ١٩٦٠

مصطفى حسني الساعى
أستاذ الأحوال الشخصية في كليتي الشريعة والحقوق
ورئيس قسم الفقه الإسلامي ومناهجه بجامعة دمشق

مقدمة الطبعة الاولى

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وأخوانه من الرسل والأنبياء دعاة الخير والحق والبر ومن تبع هداهم وعمل بهديهم وارشادهم .

«وبعد» فإن مشكلة الفقر والجوع والحزمان ما تزال من أهم مشكلات الحياة منذ أقدم العصور ، وكانت مهمة الأنبياء والمصلحين على اختلاف أزمانهم هي الدعوة الى انصاف البائسين ورحمة الفقراء ورفع الظلم الاجتماعي عنهم «١» .

ومن المعلوم ان أوروبا عاشت خلال القرون الوسطى في جو من التخلف الفكري والاجتماعي يختلف تماما عما كان عليه العالم الاسلامي من حضارة زاهرة وتجارة مزدهرة ، ومستوى كريم من العيش تتجلى فيه الرحمة والتعاون والتكافل الاجتماعي بأروع صورته ومعالجه .

واستمرت أوروبا في غفلتها وتخلفها حتى فتحت أعينها على روائع الحضارة العربية الاسلامية وبدأت تحطم القيود والإغلال الى أن كانت نهضتها الحديثة ، من حيث بدأنا نحن في التخلف والتفكك والتخلي عن حمل لواء الحضارة ، حتى أدى ذلك الى استيلاء الغرب على معظم الأقطار الاسلامية ، وبسط نفوذه الاستعماري على جميع مقدراتها وشؤونها فزاد ضعفها ضعفا وتخلفها تخلفا وفقرها فقرا .

وشهدت أوروبا في القرن التاسع عشر والقرن الحاضر حركات فكرية وسياسية متعددة تتوخى كلها معالجة التفاوت الاجتماعي في بلادها ومسح جراح الجماهير التي كانت تكتوى بجحيم الظلم الاجتماعي ونار الحرمان والمهانة والضياع ، وكتب لبعض هذه الحركات النجاح في اقامة دولة تحكم الشعب بمنهجها الذي آمنت به ، كما كتب لبعض الحركات الاخرى أن تنجح في حمل كثير من حكومات العالم على سن القوانين لانصاف البائسين والعمال والغالين وغيرهم من ذوي الدخل المحدود وكبح جماح ذوي الثروات الواسعة والاراضي الشاسعة ، واشراف الدولة على رأس المال ووسائل الانتاج .

(١) رأينا أن نتوسع في هذا الموضوع في هذه الطبعة فانردنا له بحساستيفاضا يراه القاري. فبما بعد ووضعت مكانه هذه الفقرة التاريخية .

واقفنا من غفلتنا الطويلة على ضجيج الحضارة الغربية الحديثة ومخترعاتها وتقدمها ووجدنا انفسنا نعيش نحن سكان الشرق العربي والاسلامي في مستوى من العيش ادنى مما تتطلبه الحياة الانسانية الكريمة ، وأدنى مما هو عليه مستوى المعيشة في أمم الحضارة الغربية . وسرى إلينا تيار الأفكار الإصلاحية التي قامت في الغرب منذ قرنين . واشتدت في منتصف القرن التاسع عشر وأصبحت حقائق تشريعية منذ مطلع هذا القرن حتى منتصفه الذي نعيش فيه .

وكما هي سنة الحياة من افتتان الضعفاء بالاقوياء في كل ما ياتي عنهم من خير أو شر ، فقد ساد الفكر الخفافي في عالمنا العربي والاسلامي جو من الإعجاب بالحركات الفكرية السائدة في عالم الحضارة ، يصحبه جو من الشك فيما بين أيدينا من تراث عقائدي وحضاري من حيث صلاحه للحياة الحديثة ، وأمكانه مجازاة التطور العالمي في كل شئون الحياة وخاصة في الميادين الاقتصادية والعاشية ، بل تسرب الى بعض العقول التي تدمى الثقافة والتحرر والتفكير العلمي فكرة خبيثة ما يزال يبنها المستعمر الغربي في أوساطنا الثقافية منذ قرن أو أكثر وهي أن سر تأخر الشرق - وخاصة العربي والاسلامي - هو أديانته التي كانت - على ما يزعمون - من أكبر عوامل تأخره وانحطاطه ، بل أخذ بعضهم يجهر بأن هذه الأديان مخدرة للشعوب خادمة للرأسمالية والاقطاع المثبته للاستعمار .

ونحمد الله على أن هذا الصوت المنكر الذي يدل على جهل علمي وتاريخي قاصح ، قد أخذ يخفت شيئاً فشيئاً منذ ابتدأت الثقافة في بلادنا تتحرر من نفوذ الاستعمار وتوجيهه وسيطرته على مناهج التعليم في بلادنا المحررة ، وبدأنا نبحت في عقائدنا وتراثنا بحث العقل النير الذي يثق بقدرته على البحث والتمحيص .

ولكن سر الأحداث في العالم جعل لذلك الرأي قوته - لافي الداخل - بل في الخارج بحيث أصبح دعائه يجدون مجالا لتحويل الأنظار عن الحقيقة التي جهلوا الى الجهل الذي البسوه ثوب الحقيقة في بعض البلدان وعند بعض الناس حيث تدعمه القوة ويؤيده النفوذ والسلطان .

وقد أسهم كثيرون من أفاضل العلماء والمصلحين منذ عصر المصلح الاسلامي الكبير السيد جمال الدين الافغاني وتلميذه وزميله الامام محمد عبده رحمهما الله ، حتى وقتنا هذا ، في جلاء تلك الحقيقة التي جهلها دعاة المذاهب المستوردة الدخيلة على شرقنا العربي والاسلامي الى أن استوى تحررها العلمي على قديمه واستطاع أن يرد الباطل ويكشف الزيف ويجلو جمال الحق البصائر والابصار .

واليوم اذ اتقدم بهذا البحث « اشتراكية الاسلام » ارجو يكون
لى عند الله جل شأنه ثواب العاملين على خدمة الحق ودحض الباطل
وكشف الشبهات والدعوة الى سبيل الله بالحكمة والوعظة الحسنة .
وقبل ان ابدا فى خوض غمار المشكلة التى اتحدث عنها فى هذا
الكتاب . اود ان اذكر الملاحظة التالية :

- 1 -

لقد سميت القوانين والاحكام التى جاءت فى الاسلام لتنظيم التملك
وتحقيق التكافل الاجتماعى « باشتراكية الاسلام » ، وأنا اعلم ان بعض
الفيوريين على الاسلام يكرهون هذه التسمية ، لان الاشتراكية فى رأيهم
هى « موضة » هذا العصر فلا يصح ان نبادر الى القول بالاشتراكية
الاسلامية ، تمثيا مع هذه « الموضة » ولانه قد يأتى زمن تبطل فيه
هذه الموضة ويسود القول بمذهب اقتصادى آخر ، فنضطر حينئذ الى
العدول عن القول باشتراكية الاسلام ، وهناك من يحاذر القول
بالاشتراكية الاسلامية خوفا من ان تستغل المذاهب الاشتراكية - وخاصة
الشيوعية منها - هذه التسمية لتستخدمها فى الدعوة الى مذاهبها
وايضا فالاسلام نظام مستقل قائم بذاته وقد سماه الله « اسلاما » فلا
يجوز لنا ان نسميه باسم جديد ! ..

ومن الناس من ينكر ان تكون فى الاسلام انة نزعة اشتراكية يقول
بعضهم هذا تشويها لسمعة الاسلام وصدا عنه ، كالشيوعيين فان مصالحتهم
الحزبية تحتم عليهم ان يؤكدوا فى الاذهان ان الشيوعية وحدها هى
الاشتراكية « العلمية » الصحيحة ، وما عداها فزيف وباطل ويقول بعضهم
فلنا منهم ان الاسلام دين « رأسمالى » ! وهؤلاء هم الجاهلون بالاسلام
مع حبهم له ! ويقول آخرون خدمة للفريبيين ومن يدور فى فلكهم
من الاغنياء وذوى الثروات والملكيات الكبيرة وهؤلاء هم المناجرون بالدين
الذين يضعون انفسهم فى خدمة من يستأجرهم .

لقد اخترت القول باشتراكية الاسلام مع العلم بكل ما يقول
هؤلاء لانى لا اعتقد ان الاشتراكية « موضة » ستزول ، بل هى نزعة
انسانية تتجلى فى تعاليم الانبياء ومجاولات المصلحين منذ اقدم
العصور ، وتسعى شعوب العالم الحاضر - وخاصة الشعوب المتخلفة
الى تحقيقها لتخلص من فواجع الظلم الاجتماعى والتفاوت الطبقي
الفاحش، المررى بكرامة الانسان، وليست حقيقة الاشتراكية هى « التاميم »
ولا « انتزاع رأس المال » ولا « تجريد الملكية » ولا « الضرائب
التضامنية » بل هذه كلها وسائل يراها دعايتها الطريق الصحيح لتحقيق
هدف الاشتراكية .

ان هدف الاشتراكية على اختلاف مذاهبها هو منع الفرد من استغلال رأس المال للثراء على حساب الجماهير ويؤسهم وشقائهم ، وإشراف الدولة على فعالية الفرد الاقتصادية ومراقبتها له ، وتحقيق التكافل الاجتماعى بين المواطنين بحيث تمحى مظاهر الفاقة والحرمان وتفاوت الثروات تفاوتاً فاحشاً يقترب فيه الجوع والفقر والمرض والمهانة بجانب الترف والرفاهية والقسوة والانحلال الخلقى .

وهذا الهدف لا اعتقد أن واحدا ممن يعرف الاسلام ويفهم روحه على وجهها الصحيح ينكر أن الاسلام قد وضع نصب عينيه فى كل تشريعه ، ووضع له من التشريع ما يكفل تحقيقه على أحسن حال ، فإذا كان الأمر كذلك وكان هذا الهدف هو ما لاسبيل الى رجوع الانسانية عنه وستظل تكافح فى سبيله حتى تصل اليه ، كان من الصد عن دين الله والظلم لشريعة الاسلام وللحق أن ننكر القول باشتراكية الاسلام أو نتجانب هذه التسمية .

وما دام الناس فى مختلف الشعوب يتوقون الى تحقيق ذللك الهدف ويتهافون على المذاهب الاشتراكية المعروفة ، اعتقادا منهم بأنها هى الطريقة الوحيدة لتحقيقه ، أفلا يجب علينا أن ندلهم على « طريق آخر » لا يعرفونه لتحقيق ذلك الهدف العظيم ، وهو طريق أكمل منهاجا وأكثر استقامة وأبعد عن مساوئ تلك المذاهب الاشتراكية ومعيوبها وماذا يفعل الدين يعتقدون بالحق حين يجدون الناس يبحثون عنه ؟ الا يسلكون كل سبيل مشروع للدعاية له ولفت الأنظار اليه ؟ فلماذا نجهل عن لفت أنظار الناس الى طريق الاسلام فى تحقيق هدفهم الذى هو هدف الانسانية الكريمة فى كل عصورها ؟

ان ما نعرضه فى هذا البحث هو « التشريع الاسلامى » الذى جاء لتحقيق ذلك الهدف ، لاتزويق فيه ولا تحريف ، وهو تطبيق ذللك التشريع نظريا فى أحكام الفقه ، وعمليا فى تاريخ الدولة الاسلامية فى مختلف عصورها ، فليسمه غيرنا بما يشاء ، ليسمه باسم « العدالة الاجتماعية » أو « التكافل الاجتماعى » أو « محاربة الفقر » أو ما شابه ذللك ، أما نحن فنسميه بالاسم الذى يحبه الناس ويرونه أملاهم الوحيد فى الخلاص من شقائهم واضطراب اوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية وبذلك تكون قد أمثلنا أمر الله تعالى « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » (١) « وما هى الحكمة ان لم تكن دعوة الناس الى الحق والخير بأسلوب يصفون اليه ويأتون به ؟

قال نى مرة نائب في المجلس النيابي السوري الاسبق ١٩٥٠ :
« انى لاعجب كيف تقولون الاشتراكية الاسلامية ، ان الاشتراكية هي
التاميم ، والاسلام لا يقول بالتاميم ولا يعرف شيئا اسمه « التاميم »
لان المقصود بهذا اللفظ هو استيلاء الدولة على المصانع ، ولم تكن
الصناعة ولا المصانع موجودة في عصر الاسلام ! »

فاجبت : انى لاعجب من جهلك بالاسلام وبالاشتراكية على السواء !
فلا انت تعرف حقيقة الاشتراكية ، ولا انت تعرف شيئا عن الاسلام ،
فالدخول معك في نقاش حول هذا الموضوع لا يفيد ! على انه يلزمك بناء
على رايك هذا ان تنكر القول بالاشتراكية المسيحية من باب اولي ، مع
ان الاحزاب الاشتراكية موجودة في اكثر بلاد الغرب ، ولا اظن انك
تدعى جهلها بالمسيحية او الاشتراكية ! فسيكت ولم يجر جوابا .

وكننا مرة في مجلس يضم نفرا من كرام اساتذة الجامعة وغيرهم ،
وجرى الحديث حول الاشتراكية وعما اذا كان الاخذ بها خيرا لبلادنا ،
وبينت لهم رايي وطرقت الى اشتراكية الاسلام ، فقال بعض الحاضرين
متهمكا : قبل ان ينتشر القول بالاشتراكية في اوربوا لم تكن نسمع احدا
ينادى بالاشتراكية في بلادنا ، اما الآن فقد اصبح كل انسان يدعيها . حتى
الاسلام اصبح اشتراكيا ! فكان مما قلت : بعد ان تم اتصالنا بالحضارة
الغربية ، وبداننا نتجه الى اصلاح اوضاعنا السياسية والاجتماعية ،

كان لابد من ان نتأثر بالاتجاهات الفكرية السائدة في الغرب وليس
العجيب ان نستفيد من الغرب طرائق صالحة نقتفي اثرها في نهضتنا
الحاضرة ، وان نأخذ بالحق وندعو اليه اذا اقتنعنا به ، ولكن العجيب
ان يكون هذا الحق وذلك النهج الصالح لرفع مستوى الحياة موجودا
عندنا في تشريعنا وتراثنا الحضاري باكمل واتم مما عند الغربيين ثم
نتنكر نحن لذلك ونتكر على من يدلنا عليه !

وقال انسان يوما ما : ان اشتراكية الاسلام تقوم على « الصدقة »
على الفقير ، ولما نحن فتريد ان « نمنحو الفقر من المجتمع » .

اما ان تكون اشتراكية الاسلام هي « الصدقة » فهذا ما نجد الرد
عليه في هذا الكتاب واما ان يكون الهدف الذي ينفرد بالدعوة اليه ذلك
الانسان هو « محو » الفقر . فهذا جهل بالاسلام وبسنة الحياة وتزوير
بمعقول الناس !

ان « الفقر » ان كان هو المهانة والجوع والعري والمرض والتشرد
فهذا مما محاه الاسلام من مجتمعه قبل اربعة عشر قرنا لا بالصدقة ،
بل بالتشريع وسلطان الدولة كما سنطلع عليه في هذا الكتاب . وان كان
« الفقر » هو عدم الفنى والاثراء . او بالاحرى عدم تساوى المواطنين
في الرفاهية ومستوى المعيشة . فهذا مما لاسبيل لقوة في الارض الى
محوه الا بان تجعل الناس جميعا متساوين في الفقر والحرمان .

لقد راينا باعيننا في الاتحاد السوفيتي وهو الدولة التي تمثل
اقصى اليسار في المذاهب الاشتراكية كيف يتفاوت فيها الناس في مستوى

المعيشة ، وفي الدخل الشخصي ، وفي الادخار ، وفي التمتع بمتطلبات الحياة ، فمن عامل دخله الشهري ٥٠٠ روبل في الشهر ، الى رئيس جامعة راتبه الشهري ١٥٠٠ روبل في الشهر ، ومن مواطن يسكن غرفة صغيرة في بناء متواضع ، الى وزير أو موظف كبير أو حزين بارز يسكن قصرا فخما وله سيارة فخمة ! بل رأينا بأعيننا في قلبه موسكو « الشحاذين » يقفون على باب مسجد موسكو يمدون أيديهم بالسؤال ويعطيهم الناس ما يجدون به عليهم ! وقد التقطت بنفسى صورا لهذا المنظر لا تزال محفوظة لدى ، وأذن فلا الشيوعية ولا دولتها الكبرى التي قامت منذ اثنتين وأربعين سنة ، ادعت أنها محت الفقر بمعنى عدم تفاوت الناس في المعيشة ، بحيث أصبحوا جميعا يعيشون في مستوى واحد ، لانه لا سبيل الى ذلك مادام الناس يتفاوتون في المواهب والانتاج والقدرة على الاكتساب ، فمن ادعى بعد ذلك أنه يريد أن يمحى الفقر بهذا المعنى ، ففسد غرور بالعقول ، واتخذ أسلوب «الدعاية» لمذهبه لا أسلوب المنطق واحترام الحقائق !

ان المهم - وهذا ما تسعى اليه الإنسانية جاهدة - هو محو المهانة والحرمان في المجتمع ، وأن يحصل كل انسان على مستوى من العيش يليق بكرامة الانسان ، وفي هذا تتنافس المذاهب الاشتراكية ، وفي هذا يقدم الاسلام «برنامج» للوصول الى هذه الغاية ، فمن كان عنده افضل من هذا البرنامج ، فليفضل بعرضه على الامة بأسلوب العلم والعلماء ، لا بأسلوب التجار والمهرجين .

- ٣ -

لما كنت في زيارة الاتحاد السوفيتي مع وفد جامعة دمشق بدعوة من جامعة موسكو في حزيران «يونيه» عام ١٩٥٧ اتيج لي أن ابحث مع عدد من المستشرقين السوفيت ورجال الخارجية السوفيتية ، آراءنا في الاسلام والشيوعية ، فشرحت للمستشرقين السوفيت في مقرهم بموسكو خلال جلسة استغرقت ما يزيد على ساعتين ، اشتراكية الاسلام ، وكيف استطاعت أن تقيم في العصور الوسطى مجتمعا اشتراكيا كان هو أول مجتمع اشتراكي في العالم ، فأبدوا دهشتهم لذلك ، وذكرت لهم من الأدلة والشواهد ما حملهم على الاعتراف أخيرا بهذه الحقيقة ، ثم حاول بعضهم ان يلحظ الافتراءات التي تنشر عن النظام الاجتماعي في الاتحاد السوفيتي ، فكان مما قال : انهم يزعمون أن الشيوعية تحرم الملكية الشخصية ، وما أنا أريك دفتری الخاص بتوفيرى المدخر فى البنك ، فاذا رصيده المسجل باسمه يزيد على سبعة آلاف روبل ، فسألته : هل هذا الادخار مما يسمح به النظام الشيوعى كما وضعه كارل ماركس ؟ وبعبارة أخرى : هل هذا الادخار مما يسمح به النظام الشيوعى ؟ ام انتم تطبقون نظاما اشتراكيا ؟ فتبسم وقال : نحن لانطبق الشيوعية كما هي ! ثم تابع حديثه فقال : ويفترون علينا باننا نحلّوب الاديان مع ان عندنا جمهوريات تعداد سكانها المسلمين ٣٣ مليوناً ، ولعلك شاهدت المساجد والكنائس كيف هي مفتحة الابواب للمتعبدين في أى وقت يشاءون ! قلت : هذا صحيح ، ولكن هل الشيوعية تعترف بالله

والديانات ؟ وهل تسمحون للأبائ أن يعلموا أولادهم الدين في مدارس خاصة ، وهل تسمحون لخطباء المساجد مثلا أن يشرحوا نظام الاسلام الاشتراكي للمسلمين في المساجد ؟ وهل سمحتم بافتتاح المساجد والكنائس بمجرد قيام الحكم الشيوعي ؟ ام انكم فعلتم ذلك بعد ان ربيتم - خلال اربعين عاما من الحكم الشيوعي - اجيالا من الشباب على الفلسفة الشيوعية فلم يعودوا يرتادون اماكن العبادة من تلقاء انفسهم سخيرة من العبادة وشعائرها ، ولم يبق الا الشيوخ الذين ينقرضون شيئا فشيئا : والمسألة كما قال لنا شيوعي كبير في بلغاريا : ان الدين عندنا ليس ذا مشكلة لانه يصفى نفسه !! فسكت محدثي المستشرق ولم يقبل شيئا .

وفي خلال الحفلات التكريمية التي كانت تقام لنا في موسكو اتيح لي ان اجتمع بعدد من كبار رجال وزارة الخارجية السوفيتية منهم السيد « سيمينوف » وكيل وزير الخارجية ، والسيد « زابيتسف » رئيس قسم الشرق الاوسط في الوزارة « سفير الاتحاد السوفيتي في العراق الآن » وكنا نتحدث عن العلاقات بين البلاد العربية والاتحاد السوفيتي : واذكر انني قلت في الحفلة الختامية التي اقامتها لنا جامعة موسكو قبيل مغادرتنا الاتحاد السوفيتي بايام .

اننا نرحب بهذا التعاون القائم بين الاتحاد السوفيتي وبين البلاد العربية في الميدان السياسي ونرجو ان يظل هذا التعاون « خالصا » مستمرا لا يتأثر « بالتقلبات السياسية » واذكر ان السيد سيمينوف قال لي : احب ان تتأكدوا بان مساعدتنا لكم ضد الاستعمار العربي مستمرة لان مصلحتنا ومصلحتكم تقتضي ذلك ! وقبيل مغادرتنا موسكو يوم واحد اجتمعت بالسيد « زابيتسف » في دار وزارة الخارجية السوفيتية لمدة ساعتين تقريبا وتناول البحث فيما تناول من موضوعات موقف البلاد العربية من الشيوعية والشيوعيين ، وكان الحديث بيننا صريحا جدا فكان مما قلت له ، اننا في البلاد العربية لا يمكننا ان نلتقي مع الشيوعيين لعوامل كثيرة منها ان سياستهم الوطنية ليست مستقرة اى ليست مستوحاة من مصلحة الشعب بل من مصلحة حزبهم قبل كل شيء ، ثم هي تتوجه بتأثير خارجي ! ومنها موقف الشيوعيين في بلادنا من الدين ، انكم اذا كنتم قد اضطررتم للثورة على الدين في بلادكم حين قيام الحكم الشيوعي ، فلان الدين كان حينئذ يمثل عندكم رجال سخروا انفسهم لخدمة القيصر والاقطاع ضد مصلحة الشعب ، اما في بلادنا فان الاسلام الذي يعتنقه ٩٨ ٪ من الشعب العربي له مبادئ واضحة صريحة لا يعيش معها اقطاع ولا ظلم اجتماعي ، حتى الدين المسيحي في بلادنا لم يقف موقف التأييد للظلم الاجتماعي كما كان الامر عندكم في العهد القيصري ، وازيد على ذلك اننا لا نزال في معاركتنا المتصلة مع الاستعمار والدين يمدنا باقوى سلاح معنوي يدفع الجماهير للاستشهاد والكفاح ضد الاستعمار ، وضربت له المثل بالجزائر ، وقلت له : ان الجزائريين ما برحوا منذ بدء الاستعمار الفرنسي حتى الآن يد اي منكر اكبر من ١٣٠ عاما - في ثورات متواصلة ضد الفرنسيين بما لم يحدث مثله في تاريخ امة على وجه الارض ، هذا مع ان الفرنسيين اكثر منهم

عددا وأقوى سلاحا وأوفر مالا وأكثر علما ، فهل يمكن أن نرى مسيحا
لعدم استطاعة الكثرة والقوة والمال والعلم الانتصار على القلة والضعف
والفقر والجهل في الجزائر خلال مائة وثلاثين سنة إلا الدين الذي يعتنقه
الجزائريون ؟

فأطرق مليا ثم قال : أنا معك في هذا .

قلت له : فتصور الجريمة التي يريد أن يفعلها الشيوعيون في
بلادنا حين يتم لهم ما يريدون من القضاء على الدين في نفوس أبناء
الشعب ؟ .. أن النتيجة الأولى لذلك بالنسبة إلينا هي لقاء سلاحنا
الفعال في وجه الاستعمار ، ولقاء الجزائريين السلاح ليكونوا غنيمة
باردة للفرنسيين ، ولهذا فنحن لا نرى في موقف الشيوعيين في بلادنا من
الدين جريمة عقائدية فحسب ، بل هي جريمة وطنية كبرى لها أبلغ
الأثر في سير نضالنا الوطني ! (١)

هذا عدا أن نظام الاسلام الاشتراكي يحقق لنا كل ما نحتاج إليه
من اصلاح لأوضاعنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، ولا يضيق
ذراعا بكل تجديد للحياة الحرة الكريمة ، مع الاحتفاظ بأهم مقومات
الحياة في كل أمة وهو الدين الاخلاق . ولذلك فأؤكد لك إن بلادنا لن
تختار الشيوعية مفيدة وعندها أديانها ولها شخصيتها وماضيها
وطموحها ، وإذا كان الشيوعيون العرب يقولون لكم غير هذا فانهم
يضلونكم !

كان هذا في صيف عام ١٩٥٧ . يوم أن كان الاتحاد السوفيتي
يناصر قضايانا في المجال الدولي ، وكنت ممن ينادون - منذ عام ١٩٤٨ -
على الأقل بالتعاون معه في الميادين السياسية والاقتصادية - كوسيلة
من وسائل الانتصار في معركتنا ضد الاستعمار الغربي - على أن نحفظ
بعقائدنا وحيادنا .

وقد جهزت بمثل هذا الرأي من قبل في عام ١٩٥٤ أثناء انعقاد
المؤتمر الاسلامي المسيحي العالمي في بحدون ، وسرى القاري في آخر
الكتاب نص هذا الخطاب الذي ألقيته في المؤتمر بعنوان « جواب الاسلام
على الشيوعية » .

- ٤ -

زرت أوروبا أكثر من مرة ، وزرت الاتحاد السوفيتي وبعض بلدان
أوروبا الشرقية ، وفي هذه الرحلات كلها أتيح لي أن اتعرف على حقيقة
الحياة الاجتماعية في العالم الغربي والعالم الشيوعي ، وقد خالطت

(١) وأريد على ذلك الآن أن أجد الشيوعيين (الرسميين في بلغاريا قال لنا -
عام ١٩٥٦ - ونحن نتحدث عن موقف الشيوعيين من الدين حين قيام الحكم الشيوعي
في روسيا عام ١٩١٧ : أننا هنا في بلغاريا لم نعرض للكنيسة الارثوذكسية السابقة
في بلغاريا ، لأنها كانت تشارك في الحركات الوطنية طيلة الاحتلال التركي ، في كالت
الاديرة والكنائس مقرا لكل الحركات الثورية التي قامت ضد ذلك الاحتلال .

فيهما مختلف الطبقات ، وكنت حريصا على أن أستفيد من كل ما أرى وأسمع ، وأن أنظر الى الأمور نظرة باحث منصف ، ومع اتى أعجبت بكثير من مظاهر الحياة في أوروبا الغربية وفي العالم الشيوعي ، فإن الذي اقتنعت به أن الحضارة الغربية بقسميها الرأسمالي والشيوعي حين أهملت الروح في بناء أسسها الحضارية ، أفقدت الانسان مناعة كبرى ضد القلق والاضطراب ، وأن الشيوعية زادت على ذلك أنها أفقدت الانسان مثله العليا التي تتخطى حدود الحياة المادية من مأكلا وملبس ومسكن ، لقد اقتنعت بأن الانسانية تنشده حضارة من طراز آخر تجد فيها استقرارها النفسي ولا تفقد مثلها العليا (1)

- ٥ -

ان اشتراكية الاسلام لو طبقت في مجتمعنا لاستفاد منها جميع المواطنين من مسلمين ومسيحيين ، لانها كما سرى القارىء وضعت ليستفيد منها كل مواطن ، فليس الاخذ بها انتصارا للدين على دين ، ولا افتثانا من المسلمين على المسيحيين ، انها ثروة تشريعية رائعة لو أشرفت على تطبيقها عقول مرنة نيرة لكان لنا منها أزوع نظام يستهوى القلوب والانتظار فمن الخطأ الكبير تجاهلها في نهضتنا الحاضرة .

ان القومية العربية لا يمكن أن تنقطع عن الماضي ، بل انها تستمد منه عناصر قوتها ومناعتها ، وفي الماضي تراث وحضارة ، فعماذا يمنع من الاستفادة منهما ؟ ليزعم في شأنهما وقيمتها من شاء ، فمن يستطيع أحد أن يزعم أنهما غشاء لا خير فيهما أو أنهما مآثا مع الزمن الذي مضى فلماذا لا نستفيد مما فيهما من خير وحياة ؟

ان الذي يبنى بيتا للسكن - لا للإيجار - يتخير أجود مواد البناء قوة وجبالا ، ولو كلفه ذلك مالا وعناء ، والقومية العربية بيت للسكنى . لنسكن فيه نحن وأبنائنا والأجيال اللاحقة بنا ، وأبنائنا وأحفادنا لا يحاسبون اذا كانت في مواد البناء عناصر غريبة غير صالحة ولا جميلة لما نحن فسوف نحاسب حسابا عسيرا ، وأول من يحاسبنا في هذه الحياة هم أبنائنا وأحفادنا !

اذا كان المانع من الاستفادة من الاسلام وحضارته ، خوفا من أن يعود التعصب الطائفي الى الوجود ، فذلك خوف «باطل» ، لان التعصب لم تصنعه نحن ، ولم يكن له وجود يوم استلمت قيادة حضارتنا الأبدى الطاهرة ، والعقول النيرة ، والنفوس المخلصة في أيمانها ، ونحن لا نريد أن نقودنا اليوم غير أمثال تلك الأبدى والعقول والنفوس .

واذا كان المانع هو الخوف من أن يرمينا الغرب بالتعصب ، فهو خوف «قاتل» . أنه يمنعا من أن نحكم البناء كما ينبغي وكما يدوم طويلا ، لقد كان الغرب يحاول أن يمنع حركاتنا التحررية من المضي في

(١) ظهر للؤلف جهد الطبعة الأولى لهذا الكتاب كتاب « من دوائج حضارتنا » وفيه توضيح وتأكيد لهذه الحقيقة .

طريقها بتهمة « التعصب الوطنى » وكان يخاف من ذلك ضعف الإيمان .
يوطنهم وبأمتهم ، ولقد مضى هؤلاء الى سبيلهم ، واستقامت حركاتنا
التحررية وآتت ثمارها ، منذ نشأ فينا جيل من القادة لا يخاف من تهمة
« التعصب الوطنى » بل يباهى بها ، وتهمة « التعصب
الدينى » هى من تلك المحاولات التى يحاول بها الغرب أن ينعنا من
البناء القوى المتكامل ، ان الغرب متعصب «لنفسه» فى كل ما يعود عليه
بالخير ، متعصب «علينا» فى كل ما يعود علينا بالخير ، فلنمض فى طريقنا
غير مصفين الى ذلك المتعصب «للباطل» ليمنعنا من الأخذ «بالحق» !

وان كان المانع هو الخوف من متاعب الماضى القريب ، فنحن
نساءل : أليس من سبيل للاستفادة من هذا التراث العظيم مع تجنب
تلك المتاعب ؟ ان بعد النظر والسياسة الحكيمة والثقة المتبادلة كفيلة
بأن تجنبنا كل الصعاب . فهل جربنا ذلك ؟

واذا لم يكن المانع شيئاً مما ذكرناه ، لم يبق هنالك الا سبب
واحد وهو أن بعض الناس لا «يحبون» هذا التراث لعوامل فكرية
وعقائدية ، ولا « يتجاوبون » مع تلك الحضارة لاسباب وراثية
وتاريخية ، فلنترك علاج هؤلاء الى الزمن . ولكن ما عذر الآخرين اذن ؟

- ٦ -

ان هذه القوانين والمبادئ التى تنتظمها اشتراكية الاسلام أساس
صالح متين لاقامة مجتمع اشتراكى فى بلادنا تتجاوب الامة فى مشاعرها
وعقائدها مع قوانينه ونظمه وفى ذلك تمجيد بتطوير مجتمعنا الى
المستوى الذى تنشده نهضتنا العتيدة واختصار من الجهود التى تبذل
لاقناع الشعب بتقبل نظم الحياة الاشتراكية الجديدة عن غير هذا السبيل
ان الشعب أكثر استعدادا لتقبل المبادئ التى تنتظمها اشتراكية
الاسلام . ولتطبيقها بحماس وإيمان لا ينكر أثرهما فى نهضات الشعوب .
وللوقت قيمته فى تاريخ النهضات وخاصة فى عصرنا الحاضر ، ونحن فى
هذا العرض الواضح للاشتراكية الاسلامية نرجو أن تكون قد اسهمنا فى
اقامة مجتمعنا على أساس اشتراكى سليم . وفى تخطيطه من الرواسب
السيئة التى خلفها الجهل والقوضى وفساد الاخلاق فى العصور المتأخرة .
من تاريخنا .

وفى الاستفادة من اشتراكية الاسلام اثبات لشخصيتنا المستقلة
وتحرير لامتنا من التبعية الفكرية والسياسية لاية دولة من دول العالم ،
وتحصين قوى من «الفز» الفكرى الذى يجب ان تبذل الجهود الصادقة
لوقاية جماهيرنا من أخطاره . وفيها أيضا أقوى رد على تلك «المحاولات»
التي تبذل لربطنا بعجلة جديدة بعد ان بدلتنا نجمع قوائنا المبعثرة ونسلك
الطريق الصحيح للوحدة الكاملة والسيادة التامة على أرضنا ومقدراتنا

- ٧ -

كنت أود أن أتوسع فى بحث « الواقع التاريخى » فى الدولة
والمجتمع والفرق المسلم ، لولا ضيق المجال ، كما اننى لم أتحدث عن

حركة أبي ذر التي قام بها في عهد عثمان رضي الله عنهما ، لاني لم استكمل
بعد دراسة أسبابها وحقيقتها وتمحيص النصوص التاريخية البواردة
بشأنها بالشكل الذي أطمئن اليه وأقتنع به ، وأيضا فلم أتعرض لبعض
الحركات السياسية التي قامت في العصر العباسي واتخذت شكلا فوضويا
شيوعيا كحركة القرامطة وأرجو أن أضيف هذه الأبحاث كلها مع التوسع
في كثير مما أجملته في هذه الطبعة الى الطبعة القادمة بإذن الله .

- ٨ -

وأخيرا فإن هذا البحث الذي أقدمه في هذا الكتاب هو نص المحاضرة
التي ألقيتها على مدرج جامعة دمشق بتاريخ ٢١ من رمضان ١٣٧٨ و ٣٠
آذار ١٩٥٩ . في سلسلة المحاضرات الجامعية العامة لعام ١٩٥٩ .
والله الموفق للصواب ، ومنه نستمد العون والهداية .

دمشق

ذو القعدة ١٣٧٨
(مايو) ١٩٥٩

مصطفى حسني السبلي

مقدمة المحاضرة

مما يتميز به عصرنا الذى نعيش فيه ، انه عصر الاشتراكية ، فكثير من الدول تدعيها ، والاحزاب المنتمة اليها منتشرة فى اكثر بلاد العالم وجماهير الشعوب تحلم بها وتحلمس لها ، واكثر مفكرى العالم يرونها الطريق الوحيد للخلاص مما يعانيه الجنس البشرى من اضطراب اقتصادى وشقاء اجتماعى ، ولكن ماهى الاشتراكية ؟

انها - كما تعلمون - متعددة المذاهب من متطرفة الى اقصى اليسار كالشيوعية ، ومن معتدلة ومن قريبة الى اليمين . واجمل ما قيل فى تصوير هذا التعدد : انها تشبه مخلوقا له عشرون رأسا ، ولست الآن فى صدد التحدث عن مذاهبها والفروق بينها ، فذلك مالا يتسع له وقت كوقت حديثنا هذا ، ويكفيانا أن نقول : انها جميعا تشترك فى الايمان بوجود اشراف الدولة على استثمار المال فى المجتمع ، وتحقيق التكافل الاجتماعى لجميع ابنائه ، حتى يتسنى لهم الاشتراك فى حياة تضمن فيها كرامة الانسان ، واطمئنانه الى حاضره ومستقبله .

ونحن كأمة لها تشريع عالمى انسانى ، وحضارة اضاءت للعالم طريقه عشرة قرون أو تزيد وهى الآن تنأهب للقيام بدورها الحضارى من جديد ، من حقنا أن نتساءل : ماهو موقف الاسلام من الاشتراكية الحديثة ؟ ان بعض الناس يزعمون أن الاسلام بعيد عن « التفكير » الاشتراكى ، لانه اقر « الملكية الشخصية » وسمح « بالارث والمكيات » الزراعية الكبيرة بل قد زعم بعض الناس أن الاسلام « راسمالى » يسمح للفنى أن يتصرف بماله كما يشاء ، وقد التقى على هذا الزعم أعداء الاسلام من دعاة الشيوعية ، مع بعض اتباع الاسلام تعلقا للاقطاعية والراسمالية :

فما هو الحق فى هذه المسألة ؟ ان الجواب عنه هو موضوع هذا البحث ، وسترى أن ذنبك الفريقين من أعداء الاسلام وإبنائه قد ظلماه ظلما كبيرا ، وأن له « اشتراكية » واضحة المعالم ثابتة للعالم ، تتميز عن كل المذاهب الاشتراكية الحديثة فى جملة مبادئها ، واكثر قوانينها وتشريعاتها .

موقف الاديان من الفقر

تتفق الديانات السماوية الثلاث : الاسلام والمسيحية واليهودية في
إباحة الملكيات الشخصية والاعتراف بها ووجوب حمايتها .

وتتفق أيضا في الاعتراف بواقع الحياة العلمية في كل العصور
من تفاوت الناس في الثروة ، ووجود الفنى والفقر في المجتمع .

وهى حين تعترف بذلك لاتقر بذلك الظلم الاجتماعى بين أبناء
المجتمع ، ولا تترك الفقراء عرضة للحرمان والاهمال والمهانة ، بل توصي
ببرهم ودفع غائلة الجوع والعرى عنهم ، وتنهى عن اذاهم وظلمهم .

بيد ان هذه الديانات تختلف في الطرق التى سلكتها لتلك القساية
المحمودة ، ولحمل المجتمع على العناية بتلك الفئات الضعيفة .

وسنذكر فيما يلى نصوصا من القرآن الكريم ومن الكتب الدينية
المعترف بها عند أصحاب الديانتين المسيحية واليهودية . تؤيد ما زعمناه
من اتفاق الاديان الالهية في موقفها من مشكلة الفقر .

حديث القرآن عن عناية الانبياء بمشكلة الفقر

يتحدث القرآن في كل مناسبة عن وحدة الاديان الالهية في اصولها
التي بعث الله بها الانبياء والمرسلين في دعوتهم الى عبادة الله وحده لاشريك
له ، والى فعل الخير واتباع الحق ، ونشر المحبة والسلام بين الناس .
والأخذ بالعدل ومجانبة الظلم .

وبوضح هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم « انما بعثت لاتيتم
مكارم الاخلاق » (١) وتعبيره صلى الله عليه وسلم بـ « اتمم » يشير الى
الالتقاء مع الانبياء السابقين في الدعوة الى القيم الأخلاقية التى يقوم
عليها بناء المجتمع .

ولا شك في أن اكرم القيم الأخلاقية . بر الانسان بأخيه الانسان ،
واحترامه له ، ورحمته به ، ومسارعته الى تجديده وأسعافه عند
الحاجة والفاقة ، والترفع عن ظلمه وأهانتة وهذا ما تواردت عليه
تعاليم الانبياء قاطبة كما يحدثنا القرآن بذلك .

فهو يقول عن ابراهيم واسحق ويعقوب عليهم الصلاة
والسلام :

« وجعلناهم ائمة يهدون بأمرنا ولوحينا اليهم فعل الخيرات واقام
الصلاة وآتوا الزكاة وكانوا لنا عابدين » (٢) .

(١) رواه الحاكم في مستدرجه .

(٢) سورة الانبياء : ٧٣ .

ويقول عن اسماعيل عليه السلام : « وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة » (١) .

ويقول الله تعالى جوابا عن دعاء موسى عليه السلام بأن يرحمه الله وقومه : « ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » (٢) .

ويقول على لسان عيسى عليه السلام : « وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا » (٣) .

ومن وصايا الله تعالى للأمم السابقة وصيته لبنى اسرائيل : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » (٤) .

وقال تعالى يخاطب بني اسرائيل أيضا : « وقال الله أتى معكم ثمن أقمتم الصلاة وأتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتوهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لآفرن عنكم سيئاتكم ولادخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل » (٥) .

ويقول عن أهل الكتاب جميعا : « وما أمروا ألى ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » (٦) .

فهذه الآيات قد جعلت « الزكاة » من وصايا الله لأتباعه وعباده ، ومن وصايا الأنبياء لأقوامهم ، ومن المعلوم أن فرض الزكاة بالنظام الذي جاء به الإسلام ، أمر مبتكر ، لم يرد من قبل في شريعة قط ، فيكون المراد بالزكاة في تلك الآيات معنى البر والانفاق على الفقراء والمحتاجين .

ومما يحدثنا به القرآن عن دعوة نوح عليه السلام أن «كبراء» قومه من ذوى الجاه والنفوذ والغنى وهم المعبر عنهم « بالملأ » كان مما اتخذوه ذريعة للأعراض عن دعوته أنه لم يتبعه في تلك الدعوة إلا الفقراء والطبقات المهينة في عرفهم :

« فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بآدى الراى ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين » (٧) وكان مما أجابهم به نوح على هذا الإزدراء ممن معه من الفقراء « ولا أقول للذين تردى أعينكم أن يؤثيم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم أتى إذا لمن الظالمين » (٨) حقيقة كريمة يعلنها نبي كريم : أن الفقير لا يمنع أصحابه من أن يكونوا من حملة الخير وأهل الفضل ! أن من يزعم ذلك يكون ظلما لنفسه باعتقاده غير الحق ، وظلما للفقراء بامتهانهم وتجريدتهم من المكرمات ، وظلما للمجتمع بإعلانه التفاضل الانسانى بين فئات المجتمع الواحد .

(٥) المائدة : ١٢ .

(٦) البينة : ٤ .

(٧) هود : ٢٧ .

(٨) هود : ٢١ .

(١) سورة مريم : ١٥٥ .

(٢) الإسراء : ٥٦ .

(٣) سورة مريم : ٢١ .

(٤) سورة البقرة : ٨٣ .

ويحدثنا القرآن عن شعيب عليه الصلاة والسلام أنه كان مما قاله لقومه الذين فشا فيهم أكل الأموال بالباطل ، والتلاعب بالوازن في البيع والشراء ، والتأمر على حقوق العمال بالانتقاص من أجورهم : « فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها » (١) .

من كل ما تقدم يبدو واضحاً أن الأنبياء جميعاً قبل محمد صلى الله عليه وسلم قد عتوا بحقوق الفقراء والضعفاء ، وألبر بهم والحفاظ على حقوقهم ، والرفع من شأنهم في المجتمع . فلنتظر في الكتب الدينية المعترف بها لدى المسيحيين واليهود . .

في اليهودية

في العهد القديم :

نحب ان نعرض لامرين قبل استعراضنا للنصوص الواردة بحق الفقراء في أسفار العهد القديم المعتمدة الآن عند اليهود .

اولا : ان اليهود حرقوا النصوص الواردة عن انبيائهم بشأن الفقراء ، فبعد ان كانت تعاليم الانبياء عليهم السلام انسانية النزعة عامة لجميع الناس ، قصرها اليهود على عنصرهم وابناء دينهم فحسب مما يتنزه عنه انبياء الله وحمله رسالاته ، وليس ادل على ذلك من انهم قد نقلوا في التوراة ان تعاليم الله حرمت الربا بين اليهودي واخيه اليهودي ، ولكنها اباحت اكل الربا من الغسبرياء عنهم . !

جاء في سفر التثنية « ٢٢ - ١٩ » (١) من وصايا الله لموسى التي امره بتبليغها الى بنى اسرائيل لا تقرض اخاك بربا : ربا فضة او ربا طصم او ربا شيء ما مما يقرض بربا ، للأجنبى تقرض بربا ، ولكن لاخيك لا تقرض بربا لكى يباركك الرب الهك في كل ما تمتد اليه يدك فى الأرض التى انت داخل اليها لتمتلكها !

وعلى ضوء هذا النص نستطيع ان نفهم المراد من كل ما ذكره من الوصايا الواردة بشأن الفقراء والمساكين من انها خاصة باليهود دون غيرهم ، وهذا يفسر لنا تعاون اليهود في جميع بلاد العالم على استنزاف دماء الشعوب التى يعيشون بينها عن طريق المصارف والمعاملات الربوية ، كما يفسر لنا قسوتهم واجرامهم في سلب فلسطين العربية من سكانها العرب وابتعادهم عن كل المبادئ الاخلاقية التى نادى بها الديانات والشرائع .

ثانيا : ان اليهود لم يتقيدوا بتعاليم توراتهم فيما يتعلق بالعطف على فقرائهم واراملهم ولزناهم ، بل كانوا فيما بينهم قساة غلاظ الاكباد او كما جاء وصفهم في بعض اسفار التوراة (صلب الرقاب) وكما وصفهم الشعراء النبى - اعمال الرسل : ٢٨ - ٢٦ - وكما جاء وصفهم في اول سفر اشعيا (١ - ٣١) ، وتفيض هذه الاسفار بجرائمهم ومخالفاتهم لانبيائهم وغضب الله عليهم مرة بعد مرة ، وقد افاض القرآن الكريم في بيان ذلك ، ونحن انما نذكر النصوص التالية عن توراتهم التى بين ايديهم فيما يتعلق بالفقراء ورعايتهم . لاننا نعتقد انها هى التعاليم الحقيقية التى جاء بها انبياء بنى اسرائيل عامة غير خاصة . فقصروها على انفسهم . ومسح ذلك قلم يعملوا به .

(١) الرقم الاول يشير الى رقم الاصحاح ، والرقم الثانى يشير الى رقم الآية وهكذا في كل ما يأتى من النصوص .

نستطيع ان نقول : ان جميع النصوص الواردة في التوراة المتعلقة بالفقر والفقراء ، تصرح بالامور التالية :

١ - ان الله مالك السموات والارض : «مبارك» ابرام (ابراهيم) من الله العلى مالك السموات والارض - سفر التكوين ١٤ - ١٩ .

٢ - ان الفقر والفنى بيد الله وحده : « الرب يبعث ويحيى ، يهبط الى الهاوية ويصعد ، الرب يرفع ويغنى ، يضع ويرفع ، يقيم المسكين من التراب ، ويرفع الفقير من المذلة للجلوس مع الشرفاء » صموئيل الاول : ٢ - ٦ - ٨ .

٣ - ان الفقير لا يرفع من الارض : « لانه لا تفقد الفقراء من الارض ، ولذلك انا اوصيك قائلا : افتح يدك لاختك المسكين والفقير في ارضك » سفر التثنية ١٥ - ١٠ - ١١ .

٤ - ان العمل يؤدى الى الشبع ، والكسل يؤدى الى الجوع « لا تحب النوم ثلثا تفتقر ، افتح عينيك تشبع خبزا » سفر الامثال : ٢٠ - ١٣ .

« المشتغل بارضه يشبع خبزا ، وقابع البطالين يشبع فقرا » امثال ٢٨ ١٩ .

« العامل يبد رخوة يفتقر ، اما يد المجتهد فتغنى » امثال ١٠ - ٤ .

وقد كان اليهود في القديم يتفقدون هذا تماما ، فما من يهودى حتى الاحبار الا وهو صاحب مهنة يأكل منه .

٥ - ان الشبع والفنى يؤديان الى الكفر والطفيان ، والفقر والجوع يؤديان الى السرقة والجرائم : « لا تمنى فقرا ولا غنى ، اطعمنى خبز فريضتى ، ثلثا اشبع واكفر واقول من هو الرب ، او ثلثا افتقر واسرق واتخذ اسم الهى باطلا » سفر الامثال ٣٠ - ٩ .

« تحت ثلاثة تضطرب الارض ، واربعة لا يستطيع احتمالها : تحت عبد اذا ملك ، واحمق اذا شبع خبزا . » سفر الامثال : ٣٠ - ٢١ .

٦ - ان الفقير المستقيم خير من الفنى الظالم او الملك الجاهل : « ولد فقير وحكيم خير من ملك شيخ جاهل » سفر الجامعة : ٤ - ١٣ .
الامثال : ١٩ - ٢٢ .

« زينة الانسان معروفة ، والفقير خير من الكذوب » سفر الامثال : ١٩ - ٢٢ .

« الفقير السالك باستقامته خير من معوج الطريق وهو غنى » سفر الامثال : ٢٨ - ٦ .

٧ - الامر بطعام الفقراء والمساكين وعدم اهانتهم ولزوم الدفاع عنهم .

« اقضوا للذليل واليتيم ، انصفوا المسكين والبائس ، نجوا المسكين والفقير » مزامير : ٧٢ - ٤ .

« أما الفقير فلا يسمع انتهارا ، لا تسلب الفقير لكونه فقيرا ، ولا تسحق المسكين في السباب » مزامير : ١٣ - ٨ - ٢٢ .

« من يرخم الفقير يقرض الرب ، وعن معروفه يجازيه » أمثال : ١٩ - ١٧ .

« ظالم الفقير يعير خالقه ، ويمجده راحم المسكين » أمثال : ١٤ - ٣١ .

« اقض بالعدل وراحم عن الفقير والمسكين » أمثال : ٣١ - ٩ .

من دعاء سليمان : « اللهم اعط أحكامك للملك ، وبارك لابن الملك يدين شعبك بالعدل ، ومساكنك بالحق . يقضي لمساكين الشعب ، يخلص بني البائسين ، ويسحق الظالم . ويسجد له كل الملوك ، وتعبد له الامم لانه ينجي الفقير المستغيث ، والمسكين اذ لا معين له ، يشفق على المسكين والبائس . ويخلص انفس الفقراء . من الظلم والخطف يفدى انفسهم » مزامير : ٧٢ - ١ - ١٤ .

ومن قول ايوب يذكر ما فعل : « لاني انقذت المسكين المستغيث واليتيم ولا معين له . بركة الهالك حلت علي . وجعلت قلب الأرملة يسر . كنت عيونا للعمي وأرجلا للعمرج . اب أنا للفقراء . ودعوى لم اعرفها فحصدت منها . هشمت اضراس الظالم . ومن بين أسنانه خطفت الفريسة » ايوب : ٢٩ - ١٢ - ١٧ .

٨ - النهي عن الاساءة الى الفقير وظلمه : « ان رأيت ظم الفقير ونزع الحق والعدل من البلاد فلا ترتع من الامر . لان فوق اثمالي عاليا بلا حظ . والاعلى فوقهما . ومنفعة الارض للكل . الملك مخدوم من الحقيل » الجامعة ٥ - ٨ - ١٠ .

« اذا كان فيك فقير احد من اخوتك في احد ابوابك في ارضك التي يعطيك الرب الهك . فلا تقس قلبك عليه ولا تقبض يدك عن أخيك الفقير . بل افتح يدك له واقرضه مقدار ما يحتاج اليه » التثنية : ١٥ - ٧ - ٨ .

« ان اقرضت فضة لشعبي الفقير الذي عندك فلا تكن له كالمرابي لاتضموا عليه ربا » من وصايا الله لموسى التي امره بتبليغها الى بني اسرائيل ، سفر الخروج : ٢٢ - ٢٥ .

« لانسلب الفقير لكونه فقيرا . ولا تسحق المسكين في الباب لان الرب يقيم دعواهم وينسلب سالبى انفسهم » أمثال : ٢١ - ٢٢ - ٢٣ .

٩ - ترغيب المنفقين على الفقراء بالسعادة والثواب ، وترهيب المعرضين عنهم باللعنة والعقاب « من يعطي الفقير لاحتاج . ولن يحجب عنه عينيه لمنات كثيرة » أمثال : ٢٨ - ٢٧ .

« اليس ان تكسر للجائع خبزك ، وان تدخل المساكين التائهين

الى بيتك ، اذا رايت عريانا أن تكسوه . حينئذ ينفجر مثل الصبح
نورك « أشعياء : ٥٨ - ٧ - ٨ .

« وانفتحت نفسك للجائع . واشبعتم النفس الدليلة . يشرق في
الظلمة نورك « أشعياء : ٥٨ - ١٠ .

« الملك الحاكم بالحق للفقراء يثبت كرسيه الى الأبد « امثال :
٢٩ - ١٤ .

« الرجل الظالم مكرهه الصديقين . والمستقيم الطريق مكرهه
الأشرار « امثال : ٢٩ - ٢٧ .

١ - التنديد بالاغنياء الظالمين وبالذين يعتمدون على ثرواتهم
ويتفخرون بها .

« ان كنت قد جعلت الذهب معدتي ، اوقلت للابريز انت متكلي ان كنت
قد فرحت اذ كثرت ثروتي ولان يدي وجدت كثيرا . فهذا ايضا اثم
يعرض للقضاء . لاني اكون قد جحدت الله من فوق « ايوب : ٣١ -
٢٤ - ٢٥ - ٢٨ .

« ظالم الفقير تكثرا لماله . ومعطى الفنى انما هو للعوز « امثال :
٢٢ - ١٦ .

ولماذا اخاف في أيام الشر عندما يحيط بى اثم متعقبى الذين يتكلمون
على ثروتهم وبكثرة غناهم يفتخرون « - مزامير ٤٩٠ - ٥ - ٦ .

وفي التنديد بالاغنياء الأشرار : « ينقلون التخوم يفتصبون قطعيا
ويرعونه يشتاقون حمار اليتامى ويرتهنون ثور الارملة يصدون الفقراء
عن الطريق مساكين الارض يختبئون جميعا . هاهم كالقثران في القفر
يخرجون الى عملهم يبكرون للطعام . البادية لهم خير ولاولادهم في الحقل
يحصدون علفهم ، ويقالون كرم الشرير ، ويببتون عراة بلا لبس وليس
لهم كسوة في البرد يتلون من مطر الجبال ولعدم الملأ يمتنقون الصخر
يخطفون اليتيم عن الثدي ومن المساكين يرتهنون عراة يذهبون بلا لبس
وجائعين يحملون حرما ، ويعصرون الزيت داخل أسوارهم يدوسون
المعاصر ويعطشون ، من الوجع اناس يئنون ونفس الجرحى تستغيث
الخ « - ايوب ٢٤ - ٢ - ١٢ .

١١ - خص اليتيم والارملة والغريب - من بنى اسرائيل - بنوع
من العناية في المواعظ والتوصية بهم :

ففى بيان أعمال الرب « بعضد اليتيم والارملة « - مزامير : ١٤٦ -
٩ -

وفي أعمال الخطاة المتكبرين « يقتلون الارملة والغريب ويميتون
اليتيم « - مزامير : ٩٤ - ٧ -

وفي وصف القضاة والكتاب الظالمين « لتكون الأرامل غنيمتهم رينهبوا
اليتيم « - أشعياء : ١٠ - ٢ .

« ولا تظلموا الارملة ولا اليتيم ولا الغريب ولا الفقير » - زكريا ،
٧ - ١٠ .

« ولا تدخل حقول الايتام لان وليهم قوى هو يقيم دعواهم عليك » -
امثال : ٢٣ - ١٠ - ١ .

١٢ - الخطابيا تؤدي الى الفقر : اسمع انت يا ابني وكن حكيما وارشد
قلبك في الطريق لانك بين يدي شريرى الخمر بين المتلفين اجسادهم لان
السكير والمسرف يفتقران » - امثال : ٢٣ - ١٩ - ٢١ .

« لانه بسبب امرأة زانية يفتقر المرء الى رقيق خبز » :
امثال ٦ - ٢٦ .

« خطاياكم منعت الخير عنكم » - ارميا : ٥ - ٢٥ -

١٣ - لا يدوم الفنى لاحد : « المولود ملكا قد يفتقر » جامعة :
٤ - ١٤ .

« ذو العين الشريرة يعجل الى الفنى ولا يعلم ان الفقر ياتيه » -
امثال : ٢٨ - ٢٢ .

في المسيحية

في العهد الجديد :

ارسل المسيح عليه السلام في بيئة مادية جسعة هي بيئة اليهود الذين تركوا شرائع الله التي اوصاهم بها انبياءهم . فقد بلغوا في عهد المسيح منتهى الحرص على جمع المال والافتنان في اكتنازه وكان اغنياؤهم على اكبر جانب من اقسوة وموت الضمير ، ورجال دينهم لا يبالون جهدا في تحريف احكام الشريعة ، والولاة الرومان جعلوا من المجتمع طبقتين متميزتين : طبقة الاغنياء والاشراف الذين استاثروا بالطيبات والاموال ورغد العيش ، وطبقة الفقراء الذين حرموا من الكرامة ولبسوا حقوق الانسانية ، واصبحوا يثنون من وطأة المرائين المستغلين . وكان جمهورهم معرضين عن الحق ، يرتكبون كل المنكرات الخلقية والجنسية كما جاء ذلك على لسان المسيح في متى ١٢ - ١٥ ، وفي رسالة بولس الى اهل رومية ١ - ٢٦ .

لذلك كان طبيعيا ان تتجه رسالة المسيح قبل كل شيء الى تطهير المجتمع اليهودي من تلك الرذائل ، ومحاربة المادية البشعة ، وما ادت اليه من تفاوت طبقي مهين . وعلى ضوء هذا نفهم ما اثر عن المسيح من مواظب ووصايا تتعلق بالمال ، ومن نمط حياته وحياة تلاميذه « الحواريين » .

اما الوصايا والمواظب فتتلخص فيما يلي :

١ - ليست حياة الانسان بالطعام والشراب فحسب ، بل بالايمان والتعلق بالفضائل ! « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » - انجيل متى : الاصحاح الرابع ، الآية الرابعة .

٢ - للجائع ان ياكل ما تحرمه الشريعة « فجاء تلاميذه وابتدأوا يقطعون سنابل وياكلون فالفريسيون لما نظروا قالوا له : هوذا تلاميذك يفعلون ما لا يحل فعله يوم السبت ، فقال لهم لما قرأتم ما فعله داود حين جاع هو والذين معه كيف دخل بيت الله واكل خبز التقدمة الذي لم يحل اكله له ولا للذين معه بل للكهنة فقط » - متى - ١٢ - ٤١ .

٣ - الدعوة للرحمة باليوساء والضعفاء والمساكين : « طوبى للرحماء لانهم يرحمون » - متى : ٥ - ٦ .

٤ - من اطعم او امان فقيرا فالله يجزيه « تعالوا يا مباركي ابي ، رثوا الملكوت المقدم لكم منذ تأسيس العالم ، لاني جعت فاطعمتموني ، وعطشت فمسقتموني ، كنت غريبا فاديتموني ، عريانا فكسوتوني ، مريضا فزرتوني . . . محبوبا فاتيتم الي ، فتجيبه الابراز حينئذ قائلين : يا رب متى رأيناك جائعا فاطعمناك ؟ او عطشانا فمسقيناك ، ومتى رأيناك غريبا

فأوريناك أو عريانا فكسوناك ، ومتى رأيناك مريضاً أو محبوساً فأتينا اليك ؟ فيجيب الملك ويقول لهم : الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد أخوتي هؤلاء الأصغر فبى فعلتم » - متى : ٢٥ - ٢٤ - ٤٠ .

٥ - عدم الاهتمام بالاكل والشرب واللباس والانتكال على الله : « لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون ، ليست الحياة لأفضل من الطعام ، والجسد أفضل من اللباس ، انظروا الى السماء انها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع الى مخازن وأبوكم السماوى يقوتها ولماذا تهتمون باللباس ، فلا تهتموا للغد لأن الغد يهتم بما لنفسه » - متى : ٦ - ٢٤ - ٣٤ .

٦ - الاقتصاد على عيش الكفاف « فصلوا انتم هكذا : أبانا الذى فى السموات ، ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتك كما فى السموات كذلك على الأرض .. خبزنا كفافنا أعطنا اليوم ، واغفر لنا ذنوبنا كما تغفر نحن أيضاً للمذنبين اليينا » - متى : ٦ - ٩ - ١٢ .

٧ - الترشيب فى الصدقات : « يبعو أموالكم واعطوا صدقة » - لوقا : ١٢ - ٣٣ -

قال يسوع : « ان أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملكك واعط الفقراء ، فيكون لك كنز فى السماء وتعال أبعنى ، فلما سمع الشاب الكلمة مضى حزينا لأنه كان ذا أموال كثيرة » - متى : ١٩ - ٢١ - ٢٢ -

٨ - تفضيل صدقة الفقير على صدقة الفنى « وتطلع فرأى الأغنياء يلقيون قرايئهم فى الخزانة ، ورأى أيضاً أرملة مسكينة ألقت هناك فلسين ، فقال بالحق أقول لكم : ان هذه الأرملة الفقيرة ألقت أكثر من الجميع لأن هؤلاء من فضلهم ألقوا فى قوانين الله ، وأما هذه فمن أعوازاها ألقت كل المعيشة التى لها » لوقا : ٢١ - ٢ - ٤ -

٩ - التحذير من اظهار الصدقة أمام الناس رياء « احتزروا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكى ينظروكم والا فليس لكم اجر عند أبىكم الذى فى السموات فمتى صنعت صدقة فلا تصوت قدامك بالبوق كما يفعل المراءون فى المجمع وفى الأزقة لكى يمجدوا من الناس » متى : ٥ - ١ - ٢ -

١٠ - التحذير من اكتناز الأموال واقتناء الذهب والفضة « ولا تكتنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون » - متى : ٦ - ١٦ -

« لا تكتنزوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً فى مناطقكم ولا مزوداً للطريق ولا توبين ولا أحذية ولا عصاً لأن الفاعل مستحق طعامه » - من وصايا المسيح الى جواربه الاثنى عشر - متى : ١٠ - ٩ -

١ - النهى عن عبادة المال « لا يقدر أحد أن يخدم سيدين لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر ، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر لا تقدر أن تخدموا الله والمال » - متى : ٦ - ٢٤ -

١٢ - التنديد بالأغنياء « الحق أقول لكم انه يعسر أن يدخل غنى الى

ملكوت السموات . واقول لكم ايضا ان مرور جمل من ثقب ابرة ليس من أن يدخل غنى الى ملكوت الله . فلما سمع تلاميذه بهتوا جدا قائلين . اذا من يستطيع أن يخلص ، فنظر اليهم يسوع وقال لهم : هذا عند الناس غير مستطاع ولكن عند الله كل شيء مستطاع » متى : ١٩ - ٢٣ - ٢٦ -

١٣ - التنديد باكل اموال الارامل وبالتظاهرين بالصلاح : « ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون لانكم تأكلون بيوت الارامل ولعلهم تطيلون صلاواتكم » متى ٢٣ - ١٤ .

١٤ - التنديد بالذين يتظاهرون بالعطف على الفقراء وهم سارقون ففي حادثة المرأة التي احضرت منا من طيب ناردين خالص كثير الثمن ودهنت قدمي يسوع ومسحت قدميه بشعرها فامتلا البيت من رائحة الطيب فقال واحد من تلاميذه وهو يهوذا سمعان الاسخريوطي الزمير ان يسلمه « أي المسيح من اليهود » لماذا لم يبع هذا الطيب بثلاثمائة دينار ويعطي الفقراء ، قال هذا ليس لانه كان يبالي بالفقراء بل لانه كان سارقا وكان الصندوق عنده وكان يحمل مايلقى فيه » يوحنا ١٢ - ٨ - ١٣ -

١٥ - الجماهير الجائعة تتبع من اشبعها « قال لهم يسوع : انتم تطلبونني ليس لانكم رايتم آيات ، بل لانكم اكلتم من الخبز فشبعتم » - يوحنا : ٦ - ٢٦ .

١٦ - الدعوة الى الرحمة والتسامح والمسالمة وعدم مقاومة العدوان والخضوع للحاكمين : « طوبى للرحماء لانهم يرحمون » - متى : ٥ - ٧ -

« قد سمعتم انه قيل لاقتل ، ومن قتل يكون مستوجب الحكم ، واما انا فاقول لكم ان كل من يفضب على اخيه باطلا يكون مستوجب الحكم .. ومن قال - لآخيه - ياأحمق يكون مستوجب نار جهنم » متى : ٥ - ٢١ - ٢٢ .

« لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الايمن فحول له الآخر ايضا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء ايضا ، ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين ، ومن سالك فاعطه ، ومن أراد أن يقترض منك فلا ترد ، أحبوا اعداءكم ، باركوا لاعنيكم . احسنوا الى مبغضكم » - متى : ٥ - ٢٩ - ٤٤ .

« قلل لنا .. أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا ؟ فعلم يسوع خبثهم وقال : لماذا تجربونني يا مراؤون ارونى معاملة الجزية ، فقدموا له دينارا ، فقال لهم : لن هذه الصورة والكتابة ؟ قالوا له : لقيصر ، فقال لهم : اعطوا اذا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » - متى : ٢٣ - ١٧ -

٢١ - « فليكن قلبك كالقبر » - متى : ٢٣ - ٢٧ -
٢٢ - « فليكن قلبك كالقبر » - متى : ٢٣ - ٢٧ -
٢٣ - « فليكن قلبك كالقبر » - متى : ٢٣ - ٢٧ -
٢٤ - « فليكن قلبك كالقبر » - متى : ٢٣ - ٢٧ -
٢٥ - « فليكن قلبك كالقبر » - متى : ٢٣ - ٢٧ -
٢٦ - « فليكن قلبك كالقبر » - متى : ٢٣ - ٢٧ -
٢٧ - « فليكن قلبك كالقبر » - متى : ٢٣ - ٢٧ -
٢٨ - « فليكن قلبك كالقبر » - متى : ٢٣ - ٢٧ -
٢٩ - « فليكن قلبك كالقبر » - متى : ٢٣ - ٢٧ -
٣٠ - « فليكن قلبك كالقبر » - متى : ٢٣ - ٢٧ -

سرقه . شهادة زور ، تجديف . هذه التى تنجس الانسان واما الاكل
بأيد غير مفسولة فلا ينجس الانسان » - متى : ١٥ - ١١ - ١٩ - ٢٠ .

معيشة المسيح :

لم يكن غريبا وتلك دعوة المسيح عليه السلام وهدفها ، من مقاومة
مادية المجتمع اليهودى ورد اليهود الى الاخلاق الكريمة من التسامح
والبذل والبر بالفقراء واطراح الشهوات ، ان يكون هو نفسه مثالا
للتكشف وترك الدنيا والتخلى عن الأموال ، وعدم الافراط فى المآكل
واللبس والسكن .

فقد جاء فى انجيل لوقا ٩ - ٥٨ من قول المسيح عليه السلام
« للثعالب أو جرة ولطيور (١) السماء أوكر ، وأما ابن الانسان (يعنى
نفسه) فليس له أين يسند رأسه » .

وكان له وتلاميذه صندوق توضع فيه القرابين (الصدقات)
ياكلون منه كما مر فى قصة يهوذا الاسخريوطى ، وكانوا من الجوع
بحيث ياكلون السنابل فى حقول الزرع كما مر فى الفقرة (٢) .

وكان فى اغلب الأحيان يمشى حافيا عارى الرأس ، وأحيانا يركب
حمارا . كما جاء فى انجيل متى : ٢١ - ٣٢ من قوله لتلاميذه من تلامذته
اذهبوا الى القرية التى امامكما فقلوا لتجان ائمانا مربوطة وجحشا
معها فحلاهما واتيانى بهما وان قال لكما أحد شيئا فقولوا الرب محتاج
اليهما ، فقلوا يرسلهما » .

معيشة أصحابه الأوائل ..

وكذلك عاش أصحابه وتلامذته الذين كانوا معه ، وانا لنجد فى أعمال
الرسل من أسفار العهد الجديد صورة واضحة عن معيشة هؤلاء
وتكشفهم والمبادئ الرئيسية التى ملأت نفوسهم حين اندفعوا لنشر
المسيحية فى فلسطين وغيرها من الاقطار ، ونوجز الحديث عن ذلك
فيما يلى :

١ - كانوا يعيشون من القرابين التى يقدمها المؤمنون الجدد
لهم باعتبار أن هؤلاء الرسل (التلاميذ) كانوا سببا فى انقاذ المؤمنين
من الضلال والهلاك ، فمن حقهم على المؤمنين أن يقوموا بنفقات حياتهم
الجسدية « لأن أهل (مكذوبة وأخائية) استحسنا أن يصنعوا توزيعا
لفقراء القديسين الذين فى اورشليم ، استحسنا لذلك وأنهم لهم
مدنون لانه أن كان الامم قد اشتركوا فى روحياتهم يجب عليهم أن يخدموهم
فى الجسديات ايضا » رسالة بولس الاول الى أهل رومية : ١٥ - ٢٦ ،
٢٧ .

٢ - أما فيما بينهم فقد كانوا لا يملكون شيئا « فقال بطرس ليس لى
فضة ولا ذهب » - أعمال الرسل : ٣ - ٦ .

(١) الأجرة والأوكار هما سكنا الثعالب والطيور التى تأوى اليها

وكانوا يطلبون من كل من اراد اتباعهم في التبشير بالدين الجديد (المسيحية) أن يبيع املاكه ليوزع ثمنها على جميعهم وكانوا يعيشون عيشا مشتركا والاملاك والمقتنيات كانوا يبيعونها ويقسمونها بين الجميع كما يكون لكل واحد احتياج» - اعمال الرسل: ٢ - ٤٤ - ٤٥ .

« اذ لم يكن فيهم احد محتاجا لان كل الذين كانوا اصحاب حقول او بيوت كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات ويضعونها عند ارجل الرسل فكان يوزع على كل واحد كما يكون له احتياج» - اعمال الرسل: ٤ - ٣٣ .

وهنا يسجل تازيخ هؤلاء التلاميذ ان احدا من اتباعهم لم يدفع لهم كل ثمن املاكه فعاقبه الله هو وزوجته بالموت .

« ورجل اسمه حنانيا وامراته «سفيرة» باع ملكا واختلس من الثمن وامراته لها خبر بذلك . واتي بجزء ووضعه عند ارجل الرسل ، فقال بطرس : يا حنانيا لماذا ملا الشيطان قلبك لتكذب على الروح القدس وتختلس من ثمن الحقل ؟ . . أنت لم تكذب على الناس بل على الله . فلما سمع حنانيا هذا الكلام وقع ومات ، وصار خوف عظيم على جميع الذين سمعوا بذلك . . ثم حدث بعد مدة ثلاث ساعات ان امراته دخلت وليس لها خبر بما جرى . فاجابها بطرس قولي : ابهذا المقدار بعثما الحقل ؟ فقالت : نعم بهذا المقدار . فقال لها بطرس : ما بالكما اتفقتما على تجربة روح الرب ؟ هو ذا ارجل الذين دفنوا رجلك على الباب وسيحملونك خارجا . فوقعت في الحال عند رجله وماتت » - اعمال الرسل: ١٥ - ١ - ١٠ .

المبادئ العامة لدعوتهم

لقد تحمل هؤلاء الحواريون المؤمنون جميع صنوف العذاب . والجوع والعطش والاهانة حتى القتل في سبيل دعوتهم بين اليهود وغيرهم من حدود بيت المقدس الى رومية :

« الى هذه الساعة نجوع ونعطش ونعري ونلكم وليس لنا اقامة » رسالة بولس الاولى الى اهل كورنثوس : ٤ - ١١ -

وكانت دعوتهم منصبة الى المبادئ الرئيسية التي جاء بها المسيح عليه السلام :

١ - الإيمان بالمسيح واتباعه وترك ، ماكان عليه اليهود ، مما يخالف دعوة المسيح من عقائد وشعائر وأخلاق ، وهذا نجده مبثوثا في «اعمال الرسل» ورسائل بولس (١) المتعددة الى كثير من النواحي . مما لا نجد حاجة الى الاستشهاد بالنصوص لذلك .

(١) هو من اشهر دعاة المسيحية في القرن الاول للميلاد . وهو واضع التنظيمات الكنسية للديانة المسيحية . ولد في طرسوس (كانت تقع شمال «الطلبية» - وسمى «باني» بحر الروم » البحر الابيض المتوسط » عند مدخل آسيا الصغرى) من أسرة يهودية

٢ - تقليل شأن الطعام والشراب وتمجيد حياة الروح والعبادة :
« ليس ملكوت الله اكلا وشربا . بل هو بر وسلام وفرح في الروح القدس »
- رسالة بولس الى اهل رومية : ١٤ - ١٧ -

« ولكن الطعام لا يقدمنا الى الله لاننا لا نزيد وان لم ناكل لانقص »
رسالة بولس الاولى الى اهل كورنثوس : ٨ - ٨ .

٣ - انتهى عن تعدى الانسان على اخيه وظلمه : ان الظالمين لا يرثون ملكوت الله « المصلر السابق : ٦ - ٩ .

٤ - تفضيل العزوبة على الزواج للتفرغ لعبادة الله والابتعاد عن ملذات الجسم .

« من زوج فحسنا يفعل ، ومن لا يزوج يفعل احسن » - المصلر السابق : ٧ - ٣٨ .

« غير المتزوج يهتم فيما للرب كيف يرضى الرب ، واما المتزوج فيهتم فيما للعالم كيف يرضى امراته » - المصلر السابق : ٧ - ٣٢ .

وعلى هذا المبدا تكون المرأة العذراء « غير المتزوجة » اطهر جسدا وروحا من المرأة المتزوجة .

« ان بين الزوجة والعذراء فرقا ، غير المتزوجة تهتم فيما للرب لتكون مقدسة جسدا وروحا ، واما المتزوجة فتهتم فيما للعالم كي ترضى رجلها » المصلر السابق : ٧ - ٣٤ .

٥ - انتهى عن الفواحش واتباع الشهوات :

« لا تضلوا ، لا زناة ولا عبدة اوثان ولا فاسقون . . ولا سارقون ولا طماعون ولا سكيرون ولا شتامون ولا خاطفون يرثون ملكوت الله » - المصلر السابق : ٦ - ٩ .

٦ - كل مطيع لله يأخذ أجرته بحسب تعبته :

« اذن ليس الفارس شيئا ولا الساقى بل الله الذى ينمى ، والفارس والساقى واحد ، ولكن كل واحد سيأخذ أجرته بحسب تعبته » المصلر السابق : ٣ - ٨ ، ٧ .

٧ - تفضيل قوة الروح على قوة الجسد .

متدنية تمتنع بالرعية الرومانية . تعلم فيها علومه المدرسية الاولى ، ولا شب ذهب الى اورشليم (بيت المقدس) فطلقى الديانة اليهودية من اشهر احبارها في ذلك العهد ونشأ شديد التمسك بتعاليم الديانة اليهودية وطقوسها ، ولما ظهرت دعوة المسيح كان من اشد مضطهدي حواربيه وتلاميذه ، ثم اجتنق الديانة المسيحية سنة ٣١ م وهو على ابواب دمشق هل اثر رؤيا غريبة ذكرت في « اعيان الرسل » - وابتدع بعدها من متعلمين : فليد . ضد النصرانية . الى طاحيس كتابه لها « اننا نقل من القيسطين الى أنطاكية وبيها . الزيجين الأبرار القوية » الزوماقية . ينسحبوا الى المسيحية . يولفخ . الاذق . القيسطين . فيا . سبيل . ذلك . نحتي . حكم . عليه . بالاعدام . في رومية (روما) سنة ٦٧ م . خذ . عهد . الطافية . يولفخ .

« فانظروا دعوتكم ايها الاخوة اذ ليس كثيرون حكماء حسب الجسد ، ليس كثيرون اوفياء ، ليس كثيرون شرفاء ، بل اختار الله جهال العالم ليحزى البهائم ، واختار الله ضعفاء العالم ليحزى الاقوياء واختار الله ادياء العالم والمزدرى وغير الموجود ليبطل الموجود ، لكي لا يتبخسر كل ذى جسد امامه » المصدر السابق : ١ - ٢٦ ، ٢٩

٨ - التسامح مع الظالمين والمضطهدين ، والخضوع لسلطة الحاكمين :

« باركوا على الذين يضطهدونكم » رسالة بولس الى اهل رومية : ١٣ - ١٤ .

« لتخضع كل نفس للسلطين الفاتحة ، لانه ليس سلطان الا من الله . والسلطين الدائن هو مرتبة من الله ، حتى ان من يعاوم السلطان يقاوم ترتيب الله ، والمقاومون سيأخذون لانفسهم دينونة ، فان الحكم ليسوا خوفا للاموال الصالحة ، بل للشريرة . افتريد ان لاتخاف السلطان افعل الصلاح فيكون لك مدح منه . لانه خادم الله للصلاح . ولكن ان فعلت الشر فخف . لانه لا يحمل السيف عيشا اذ هو خادم الله منتقم للغضب من الذى يفعل الشر . لذلك يلزم ان يخضع له ليس بسبب الغضب فقط بل ايضا بسبب الضمير . فانكم لاجل هذا توفون الجزية ايضا اذ هم خدام الله مواظبون على ذلك بعينه فاعطوا اجمع حقوقهم . الجزية لمن له الجزية الجبائية لمن له الجبائية . والخوف لمن له الخوف . والاكرام لمن له الاكرام » - المصدر السابق : ١٣ - ١ - ٧

٩ - ولعل اجمع المبادئ التى كان يبشر بها تلامذة المسيح وحواريوه هي هذه الوصايا الجميلة :

« كونوا كارهين للشر . ملتصقين بالخير . وادين بعضكم بعضا بالمحبة الاخوية مقدمين بعضكم بعضا في الكرامة . غير متكاسلين في الاجتهاد . حازرين في الروح . عابدين الرب . فرحين في الرجاء . صابرين في الضيق . مواظبين على الصلاة . مشتركين في احتياجات القديسين . عاكفين على اضافة الغرباء . باركوا على الذين يضطهدونكم . باركوا ولا تلعنوا . فرحوا مع الفرحين وبكاء مع اباكين . مهتمين بعضكم بعضا اهتماما واحدا غير مهتمين بالامور العالية ، بل منقادين الى المتضامين . لاتكونوا حكماء عند انفسكم ، لاتجازوا احدا عن شر بشر . معتنين بامور حسنة قدم جميع الناس ، ان كان ممكن فحسب طاقتكم سالوا جميع الناس ، لاتنتقموا لانفسكم ايها الاحباء بل اعطوا مكانا للغضب . لانه مكتوب لى النعمة انا اجازى : يقول الرب . فان جاع عدوك فاطعمه . وان عطش فاسقه . لانك ان فعلت هذا تجمع جميع نار على رأسه يقلبك الشر بل اغلب الشر بالخير » المصدر السابق : ١٢ - ٦ - ٢١

١٠ - واخيرا فان دعوتهم تتلخص بالكلمات الثلاث : البر . والتعفف . والدينونة - اعمال الرسل : ٢٤ - ٢٥ .

وكان من وصاياهم الى اتباعهم : « لتكن سيرتكم خالية من محبة المال . كونوا مكتفين بما عندكم » - الرسالة الى العبرانيين (ا) : ١٣ - ٥

ومن هذا يتضح ان معالجة المسيح عليه السلام وتلاميذه - كما وردت في الكتب المقدسة عند المسيحيين - لمشكلة الفقر والظلم الاجتماعي أتخذت شكلا اخلاقيا تربويا . مناسبا للبيئة التي عاش فيها المسيح ونادى برمائله . ولا شك في أنها كان لها اثر كبير في انحسار الوثنية عن جزء كبير من العالم وتخليصه من قسوة المادية اليهودية .

(١) هي من أسعار العهد الجديد ، ويختلف المؤرخون الدينيون المسيحيون في كاتب هذه الرسالة وتاريخها : وفي كتابها أقوال لا يرجع بعضها على بعض ، أما تاريخها فللرجح عنهم أنها كتبت في عهد لا يتجاوز سنة ٨٥ م « انظر التفسير البيضاوية المسيحية في شرح الرسالة الى العبرانيين : ٣ ، ٤ ، ٥ » .

في الاسلام

كان شأن الاسلام كشأن الديانتين السابقتين في العناية بالفقراء ومحاربة ظلمهم وإهمالهم ، لأن شرائع الله لا يمكن أن تهمل هذه الفئة دون عناية ورعاية ورحمة . والخلق كلهم عيال الله ، ، وقد وسعت رحمته كل شيء « ورحمتي وسعت كل شيء » (١) ، ومن أسماء الله تعالى « الرحمن الرحيم » .

غير أن الاسلام سلك للوصول الى هذه الغاية النبيلة مسلكا يختلف في تفاصيله وفي وسائله عما سبقه من الديانات وأن اتجه معها الى وجهة واحدة .

ذلك لأن الاسلام آخر الديانات التي أرسل الله بها رسوله الى العالم لهدايتهم وسعادتهم . فكان لزأما أن يحتوى من المبادئ والنصوص ما يمكن معها إقامة مجتمع متكافل في مختلف العصور ومتعدد الشعوب . وما يكفل بها سد الحاجات التشريعية لكل دولة ولكل أمة لتحقيق هذا الهدف المنشود . وأهم ما امتازت به طريقة الاسلام في معالجة مشكلة الفقر والغنى ميزتان :

أولا - أنه لم ينظر الى هذه المشكلة على أنها مشكلة قائمة بذاتها . بل متصلة بغيرها من شؤون الحياة ، فلا بد لمعالجتها من معالجة صحيحة لكل شؤون الحياة .

ثانيا - أنه لم يقتصر على المواعظ والوصايا الأخلاقية ، فذلك مما لا يؤثر في سواد الشعب غالبا إلا أن يكون معه قوانين واضحة تحدد الواجبات ، وتحميها دولة ترهب المسيئين وتأخذ على يد الظالمين . وتحمل الدين لاتجدي فيهم الوصايا والمواعظ على تنفيذ تلك القوانين فتلك سنة الله في استقامة الحياة وانتظام المجتمعات .

ومن هنا نجد التشريع الاسلامي متماسكا يتصل ببعضه ببعض . ويتوقف نجاح كل قانون من قوانينه على تنفيذ القوانين الاخرى ، كما يتوقف نجاح قوانينه كلها على وجود الدولة التي تتبناها وتأخذ على عاتقها تنفيذها والسهر على تطبيقها .

ومن أمعن النظر في قوانين الاسلام وجد أن هذه القوانين كلها تتوخى تحقيق مصالح الناس وحاجاتهم الضرورية والرفاهية وسعادتهم الاجتماعية في الحياة الدنيا . وسعادتهم الخالدة في الحياة الاخرى .

والعلماء مجمعون على هذه الحقيقة . والفقه الاسلامي في

جميع مذاهبه قائم عليها . وانما يختلف مذهب عن مذهب في شرح هذه الحقيقة وكثرة التفريع عليها .

ومن هنا نشأت نظرية « المصالح المرسلة » (١) في الفقه الاسلامي واتفق العلماء على أن الضروريات التي جاء الشرع لتحقيقها هي خمسة:

- ١ - حفظ الدين .
- ٢ - حفظ النفس .
- ٣ - حفظ النسل .
- ٤ - حفظ المال .
- ٥ - حفظ العقل .

قال الغزالي رحمه الله :

« ان مقصود الشرع في الخلق خمسة : وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم . فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة . وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة (٢) . »

وقال الشاطبي رحمه الله :

« تكاليف الشريعة ترجع الى حفظ مقاصدها في الخلق . وهذه المقاصد لا تعدو أن تكون «ضرورة» أو «حاجة» أو «تحسينية» أما الضرورية فمعناها أنها لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا . بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة . بل على فساد وتهارج وفوت حياة . وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين ومجموع الضروريات خمسة . وهي : حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل (٣) . »

وعلى ضوء هذه الحقيقة التي أجمع عليها فقهاء الاسلام . وعلى ضوء النصوص التشريعية الخاصة بحقوق الفقراء والفئات التي تحتاج الى عون المجتمع والدولة . استطعنا أن نصوغ نظرية « الاشتراكية الاسلامية » وفق المخطط التالي :

- ١ - الحقوق الطبيعية لكل مواطن .
- ٢ - القوانين التي تضمن هذه الحقوق وتنظم طرقها .
- ٣ - القوانين التي تضمن التكافل الاجتماعي .
- ٤ - المؤيدات التي تدعم تلك الحدود والقوانين .

وسنبحث فيما يلي في كل عنصر من هذه العناصر الاربعة بقدر ما يعطى فكرة واضحة عنها تاركين شرح هذه النظرية شرحا وافيا الى كتابنا الكبير الذي نضعه لذلك ونرجو أن يتم أنجازه قريباً بإذن الله .

(١) مباحث مزيد شرح لها في بحث المؤيدات .

(٢) المستصفى : ١ - ٢٧٨ .

(٣) الموافقات باختصار : ٢ - ١٠٨ .

الحقوق الطبيعية

حق الحياة

الحياة منحة الله تبارك وتعالى للإنسان ، لا يملك أحد انتزاعها بغير إرادة الله « وانا لنحن نحى ونميت ونحن اوارثون(١) » « وانه هوامات واحيا(٢) » « انا نحن نحى ونميت والينا المصير(٣) » .

وقد اعطى حق تنزاع الحياة من الافراد للدولة فحسب وفق قانون الجنابات ، لمصلحة المجتمع وحماية حياة الافراد ، وفي ذلك يقول القرآن الكريم : « ولكم في القصاص حياة(٤) » .

والعدوان على حياة فرد بدون حق عدوان على المجتمع كله . والانتقام بالقصاص من هذا الجاني احياء للمجتمع كله : « من قتل نفسا بغير نفس او فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن احياها فكأنما احيا الناس جميعا (٥) » .

واذا وقع العدوان على حياة الافراد من قبل الحاكمين الطفاسة ، فشجعوا على قتل الابرياء « وسحلهم » واشاعة الرعب في قلوب الجماهير كان ذلك في نظر القرآن ظلما بناى بأصحابه عن الخير ، ويعرضهم لعقوبة الله المنتقم الجبار : « أم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه أن آتاه الله الملك اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت ، قال انا احيى وأميت ! قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين(٦) » .

وفي قصة فرعون الذى قتل الرجال والاطفال ، واستحيا النساء والبنات ، فكانت نهايته أن اغرقه الله وأعوانه بالبحر ، ان في هذه القصة التي تكررت في القرآن في ٢٧ سورة ، نذيرا للطفاة الذين يستبيحون دماء الجماهير البريئة بعاقبة كماقبة فرعون الذى نازع الله في دعوى الالهوية وقال : « ما علمت لكم من اله غيرى(٧) » .

ولم يكتف التشريع الاسلامي باعلان هذا المبدأ « مبدأ حق الحياة بل أعلن مع ذلك وجوب صيانة الحياة من كل مايقضى عليها أو يتلفها أو يضعفها ، فأعلن وجوب العناية بالصحة العامة ودفع الامراض والابوثة عن المجتمع .

ففى قصة الوباء (طامعون عمواس) الذى حصل في عهد عمر مرضى الله عنه . منع عمر دخول الجيش الى الارض الموبوءة ، عملا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا كان الوباء بأرض ولست بها فلا

(٢) . النجم : ٤٤

(٤) البقرة : ١٧٩

(٦) البقرة : ٢٥٨

(١) الحجر : ٢٣

(٢) ق : ٤٣

(٧) القصص : ٣٨

تدخلها ، وان كان بأرض بها فلا تخرج منها(١) » فكان ذلك أول اعلان لبدا الحجر الصحى فى العالم .

أما أمر الافراد برعاية صحتهم ونهيهم عن كل ما يضعفها ، فنجد ذلك فى مثل قوله تعالى « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا(٢) » فالاكل والشرب سبب استمرار الحياة ، والاسراف فيها منشأ الامراض والعلل(٣) .

ويقول صلى الله عليه وسلم : ان الله ما أنزل داء الا جعل له شفاء الا يا عبد الله فتداوا(٤) » ونهى الشارع عن ارهاق الجسم ولو بالعبادة فقد قال لبعض صحابته : « ألم اخبر انك تقوم الليل وتصوم النهار ولا تأتى أهلك ؟ قال بلى يا رسول الله ، قال فلا تفعل ، ولكن صم وافطر ، وقم ونم ، وات أهلك ، فان أجسمك عليك حقا وان لنفسك عليك حقا ، وان زوجك عليك حقا(٥) » .

ومن هذا نعلم ان ما يسلكه بعض جهلة المتصوفة من تجويع انفسهم حتى تعجز عن القيام بالواجبات . أمر لا تقره نصوص الشريعة ولا روح مبادئها العظامه .

وقد فاض التشريع الاسلامى - فى الكتاب والسنة واجتهادات الائمة - بالاحكام المتفرعة عن حق « الحياة » وما تعلق به من حفظ الصحة . وسندكر فيما بلى امثلة لهذه الاحكام :

١ - ما يتعلق بحفظ الحياة :

١ - تحريم قتل النفس بغير حق : « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله لا بالحق(٦) » .

٢ - عقوبة الاعدام للقاتل بغير حق « كتب عليكم القصاص فى القتلى(٧) » .

٣ - القتل بحق . وهو اعدام القاتل ، وقتل الخارج على الجماعة وانظمتها العامة فى بعض الحالات .

٤ - تحريم الانتحار مهما كان الباعث على ذلك « ولا تقتلوا انفسكم (٨) » .

٥ - النهى عن المخاطرة بالنفس : « ولا تفلخوا بأيديكم الى التهلكة(٩) » .

٦ - حق الدفاع عن النفس . فمن صال على انسان ليقتله . جاز

(١) رواه البخارى ومسلم وابو داود . (٢) الامراء : ٣١ .

(٣) من خير ما ألف فى موقف الاسلام من الصحة والطب : كتاب « الوجيز فى الاسلام والطب : للزميل الدكتور شوكت الشطى : فقد صدر ونحن نعد هذا البحث للطبعة الثانية .

(٤) رواه البخارى ومسلم . (٥) رواه البخارى وغيره .

(٦) الانعام : ١٥١ . (٧) البقرة : ١٧٨ .

(٨) النساء : ٢٩ . (٩) البقرة : ١٩٥ .

للمهاجم ان يدرا عن نفسه الخطر ولو يقتل الصائل ، لان المهاجم معتد .
والعدوان على حياة انسان بغير حق ولا عذر . مبيح لاهدار دم المعتدى .

٧ - ومن اكره على قتل انسان ظلما . لا يجوز له أن يرتكب جريمة القتل ولو كان في امتناعه قضاء على حياته . اذ لا يجوز له أن يقتدى حياته بحياة غيره .

٨ - من الاهداف التي شرع الجهاد من أجلها . حماية « حق الحياة » لبناء الشعب ، فان الحرب العدوانية من جانب الاعداء تعرض حياة الامة وأرواح ابنائها للخطر .

٩ - واذا خرجت فئة على جمهور الشعب وحملت السلاح في وجهه وجب قتالها حتى تفيء الى الحق « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احدهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله (١) »

١٠ - واذا تجمع بعض الاشقياء فكفونا عصابات تقطع الطرق ، وتقتل الانفس ، وتسلب الاموال . وتخيف الامنين . وجبت عقوبتهم بأنواع من العقوبة . منها الاعدام بكيفية خاصة : انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض (٢) « وفي تفسير هذه الآية وبيان أحكامها خلاف في المذاهب الاجتهادية . ولكن المتفق عليه أن جرائم هؤلاء الاشقياء ان بلغت حد قتل الابرياء وجبت عقوبتهم بالكيفية التي نص عليها القرآن في هذه الآية .

ب - ما يتعلق بحفظ الصحة :

١١ - تحريم المسكرات والمخدرات ، فمن مقاصد تحريمها حفظ صحة الناس .

١٢ - تحريم الزنى واغواش الجنسية . لما في ذلك من اضرار صحية وخلقية .

١٣ - تحريم اكل ما يضر الاكل ولو كان الطعام المأكول في حد ذاته مفيدا لغیر الاكل . فمن اخبره طبيب حاذق أن اكل اللحم أو الخبز مثلا يضره . حرم عليه شرعا اكل اللحم أو الخبز .

١٤ - تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير . وهذه مما تكفل الطب الحديث ببيان أضرارها الصحية .

١٥ - انتهى عن ادخال اليد في الإثاء قبل غسلها .

- ١٦ - ايجاب الاكل عند اضرار الجائع على الخطر أو اضرار الجوع بصحته .
- ١٧ - ايجاب الوضوء عند كل حدث يخرج من الانسان . ولا يخفى مافى الوضوء من الفوائد الصحية (١) .
- ١٨ - ايجاب الغسل عند حدوث الجنابة . ولا يخفى مافيه من فوائد صحية للجسم .
- ١٩ - ايجاب الصلاة خمس مرات في اليوم . ولا يخفى مافيه من رياضة لمختلف أعضاء الجسم .
- ٢٠ - ايجاب الصوم شهرا في كل عام . من طلوع الفجر حتى غروب الشمس . وقد عنى الطب الحديث ببيان فوائده .
- ٢١ - ايجاب الحج على من استطاع الى ذلك سبيلا ، ولا يخفى مافيه من رياضة النفس على مشقات السفر . وتعريض الجسم للشمس والمبيت في العراء تحت الخيام . مما يجعل الحج وخاصة الطواف حول البيت . والسعي بين الصفا والمروة . والموقف في عرفات . والمبيت في مزدلفة . والاقامة في منى . اشبه بمعسكر تدريبي أو مخيم كشفي .
- ٢٢ - ايجاب تغطية الاناء المكشوف اذا كان فيه ماء أو طعام . بعض الحشرات .
- ٢٣ - النهى عن الشرب من فم السقاء . خوفا من أن تكون فيه
- ٢٤ - النهى عن الاكل أو الشرب أو قضاء الحاجة قائما .
- ٢٥ - استحباب شرب الماء على أنفاس متعددة لا مرة واحدة .
- ٢٦ - استحباب غسل الأيدي قبل الطعام وبعده .
- ٢٧ - استحباب السواك وخاصة عند الوضوء والصلاة .
- ٢٨ - استحباب الفسل يوم الجمعة (٢) وأيام العيدين وفي أوقات غيرها .
- ٢٩ - الترغيب في الرياضة من ركوب الخيل والسباحة وتعلم الرماية والمصارعة ، وفي الأثر من قول عمر . « علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسابق عائشة (٣) قبل نزول آية الحجاب بالنسبة لنساء النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يصارع ركانة (٤) فيغلبه عليه الصلاة والسلام وركانة أحد المشهورين بالقوة والصراع ومع ذلك يغلبه الرسول صلى الله عليه وسلم وما كان يفعل ذلك عليه السلام أمام الصحابة على جلالة قدره
-
- (٢) ما نذكر هنا من الفوائد الصحية لكل من الوضوء والغسل والصلاة والصوم والحج لا ينشأ أن هذه الأمور شرعت لحفظ الصحة فقط . بل نحن نعتقد أن فوائدها الروحية والحلقية أجل وأعظم .
- (٣) قال بعض العلماء يوجب ذلك عملا بظواهر بعض الأحاديث .
- (٤) رواه أحمد وأبو داود .
- (٥) رواه أبو داود والترمذي وانظر زاد
- المعاد لابن قيم الجوزية : ٤١/٨
- (هـ) المائدة : ٢٣

وعظيم مهابة في نفوس اصحابه ، الا تشريعا لامنه في الاقتداء به . وتبياناً
لنواصي الشريعة من حفظ الصحة ورياضة الجسم ، ون ذلك لا يتناقض مع
العبادة لله ، ولا مع الكمال والهيبة في نفوس الناس ، وكان ذلك تبديداً
للاوهام التي كانت شائعة لدى العباد والمتزهدين من اتساع الديانات
السابقة ، من أن اهمال العناية بالجسم رمز للزهد والتقوى وسبيل
الى التقرب من الله عز وجل .

٣ - جعل الشارع من مهمة الدولة تطبيق الفقراء وتيسير العلاج
للناس كما سيأتى في قوانين التكافل الاجتماعى .

٣١ - نهى الشارع عن التعرض لمزاولة الطب دون اتقانها ، وأوجب
على العلماء منع من يتعرض لذلك من الجاهلين حفظاً لصحة الناس ،
وعاقب من يتصدى لذلك وهو غير كفء .

٣٢ - نهى الشارع عن قربان الزوج زوجته في الحيض حتى تطهر
« فاعتزلوا النساء في الحيض ولا يقربوهن حتى يطهرن (١) » .

٣٣ - وبالجملة فقد جاء في القرآن الكريم ما يفيد الترفيب في
لنظافة والطهارة : « ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين (٢) » « فيه
رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين (٣) » .

وفي بعض الآثار . « النظافة من الايمان »

وفي الحديث : « نفسك مطيتك فارفق بها (٤) » .

ج - سقوط الواجبات عند الخطر :

ومن أروع ما جاء به الاسلام تأكيداً لحق « الحياة » وما يحفظها ،
اسقاطه للواجبات والتكاليف عند تعرض حياة تكلف للخطر أو تعرض
صحته للسوء ، واليك بعض الامثلة :

٣٤ - سقوط فرض الوضوء بالماء ، وانتقال الفرض الى التيمم
بالتراب حين يكون على الماء عدو مخيف أو حيوان مفترس .

٣٥ - سقوط فرض الوضوء أيضاً عندما يكون استعمال الماء
مضراً بصحة المتوضىء أو عندما يؤدي استعمال الماء الى تأخر شفاء
المريض ، أو زيادة مرضه ، فيجب التيمم حينئذ .

٣٦ - وكذلك يسقط فرض الاغتسال بالماء وينتقل الى التيمم في
الحالتين السابقتين .

٣٧ - ولا يجوز التوضؤ بالماء أو الاغتسال به إذا كان الانسان في
حاجة الى هذا الماء لشربه أو لطبخ طعامه أو شرب دابته .

٣٨ - ويسقط فرض الاتجاه الى القبلة في الصلاة عندما يكون في

(١) البقرة : ٢٢٢

(٢) المصدر السابق

(٣) التوبة : ١٠٨

(٤) ذكره الرخسى في شرح كتاب الكسب للإمام محمد بلفظ « نفس المؤمن

بطنته » وهو خطأ مطبعي وصوابه « مطيته » انظر الميسوط ٢٤٥/٣٠

اتجاهه الى القبلة خطر على حياته ، او كان من المرض بحيث لا يستطيع التوجه الى القبلة .

٣٩ - ويسقط فرض القيام في الصلاة اذا كان مريضاً لا يستطيع القيام أو يضره القيام .

٤٠ - ويسقط فرض الركوع والسجود والقعود في الصلاة اذا كان كذلك بحيث يمنعه المرض أو يؤدي الى ضرره .

٤١ - وعندما يكون الجيش الاسلامي في ميدان المعركة وجها لوجه مع العدو . وكان العدو في غير اتجاه القبلة ، فان الجيش حينئذ يصلي صلاة الخوف ، وهي ان يتجه الامام وفريق من الجيش معه الى الصلاة تجاه القبلة ، من حيث يبقى تجاه العدو وفريق كاف لصد هجومه على الجيش عند الصلاة ، فاذا صلى الامام ومن معه الركعة الاولى ، نهض الذين صلوا معه واتجهوا الى مقابلة العدو ، وبقي الامام في صلاته فيجئ الذين لم يصلوا مع الامام الى الركعة الثانية - وهي لهم اولى - فاذا أتوا الركعة مع الامام ، سلم الامام ثم ذهب هؤلاء ايضا الى جهة العدو ليأتي اخوانهم الاولون فيتموا منفردين صلاتهم ، فاذا أتوها عادوا الى جهة العدو ليتم اخوانهم صلاتهم ايضا مع العلم بان حركاتهم ومشيمهم وانصرافهم عن القبلة لا يفسد صلاتهم وهي في الاحوال العادية من مفسدت الصلاة - بل يعتبرون في هذه التحركات خلال الصلاة كأنهم لا يزالون في الصلاة ، والاصل في ذلك قوله تعالى في صدد صلاة الجيش في ميدان المعركة .

« واذا كنت فيم فاقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا اسلحتهم فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة اخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم واسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن اسلحتكم وامتنعتكم فيميلون عليكم ميلا واحدة ولا جناح عليكم ان كان بكم اذى من مطراوكنتم مرضى ان تضعوا اسلحتكم وخذوا حذرکم (١) »

ويستفاد من هذه الآية ايضا وجوب حمل السلاح عند الصلاة في تلك الحالة ، ويسقط هذا الواجب على من كان مريضاً أو كانت حالة الجو تجعل حمل الاسلحة فيه اذى بالمصلين .

٤٢ - ويجب قطع الصلاة - مع شدة حرمة ذلك في الاحوال العادية - على من دهمه وهو في الصلاة خطر ليدرك ذلك الخطر عن نفسه .

٤٣ - ومن رأى وهو في الصلاة حيواناً مؤذياً يمر بالقرب منه جازاً له قتل الحيوان ، وعودته الى متابعة الصلاة دون أن يكون ذلك مفسداً لصلاته .

٤٤ - ومن سمع وهو في الصلاة استغاثة غريق أو مشرف على خطر الموت بسبب ما وجب عليه ان يقطع الصلاة ويسارع الى اغاثته و انتقاذ حياته .

٤٥ - ومن رأى - وهو في صلاة - اعمى كاد يتردى في حفرة امامه وجب عليه ان يقطع صلاته وينقذ العمى من السقوط .

٤٦ - وهكذا الحكم في كل خطر يحق بالمصلى أو بغيره كان عليه ان يسارع للردء الخطر .

٤٧ - ويسقط وجوب الصوم على المريض الذى يؤذيه الصوم اذا خبره بذلك طبيب عدل حاذق وعليه أن يقضى ذلك بعد زوال مرضه .

٤٨ - ويسقط وجوب الصوم عن الحائض والنفساء وعليهما قضاء ذلك بعد طهرهما .

٤٩ - ويسقط وجوب الصوم عن الحامل والمرضع اذا كان الصوم يضرهما أو يضر ولديهما ، وعليها قضاء ذلك فيما بعد .

٥٠ - ويسقط الصوم عن الشيخ الكبير الذى يعجز عنه ، وعليه الكفارة كما هو مبين في كتب الفقه .

٥١ - ويسقط فرض الحج عن المريض الذى لا يستطيع القيام بشعائره

٥٢ - ويسقط أيضا عندما يكون الطريق محفوفًا بالاشقياء والصوص أو في حالة الحرب .

٥٣ - ويسقط الاحرام في الحج أو العمرة ممن يضره تعريض رأسه أو شيء من جسمه للشمس أو عندما يحتاج طبيبًا الى لباس خاص غير الاحرام ، وتعرف احكام ذلك من الفقه أيضا .

د - جواز فعل المحرمات عند الضرورة :

وكما أسقطت الشريعة الواجبات للمحافظة على الحياة أو الصحة ، أباحت الشريعة أيضا تناول المحرمات لضرورة المحافظة على الحياة أو الصحة أيضا . واليك بعض الأمثلة :

٥٤ - حرمت الشريعة اكل الميتة والدم ولحم الخنزير ، ولكنها أباحت الشريعة أيضا تناول المحرمات لضرورة المحافظة على الحياة والاصل في ذلك قوله تعالى : « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله (أى ماذبح للآوثان) فمن اضطر غير باع ولا عاد فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم (١) » . ومن هنا جاءت القاعدة الأصولية : « الضرورات تبيح المحظورات » والقاعدة الثانية : « الضرورة تقدر بقدرها » .

٥٥ - وحرمت الشريعة تناول كل ما يضر بالصحة للاصحاء ، الا انه اذا تعين ذلك لشفاء المرض ، أو دفع الخطر عن حياة الاصحاء جاز تناوله .

٥٦ - وحرمت الشريعة شرب الخمر ، ولكن من غص بالطعام حتى خشي الاختناق ، فلم يجد ما يزيل به غصته الا جرعة من الخمر جاز له ذلك ، بل وجب عليه اذا كان انقاذ حياته يتوقف على تناول تلك الجرعة (٢)

٥٧ - ومثل ذلك المريض الذى يتوقف شفاؤه على الخمر اما

خالصا واما ممزوجا بالدواء : وأخبره بذلك طبيب حاذق ذو دين وورع ،
جا زله تناوله وفيما دون الضرورة خلاف يعرف من كتب الفقه .

٥٨ - ويحرم على الانسان قطع عضو من أعضائه ، الا انه اذا تعين
ذلك للإبقاء على حياة الجسم كله فانه يجوز بل يتحتم في أكثر الحالات

٥٩ - ويحرم على المرأة كشف شيء من جسمها لغير الحاجة ، الا
انه يباح للطبيب أن يرى من جسمها ما تحرم رؤيته لضرورة العلاج
والدواوة .

٦٠ - ويحرم على الانسان أن يأخذ مال غيره الا برضى منه ، غير انه
يباح له ذلك عند الجوع الشديد الذي يخشى فيه من الموت ، اذا كان
الطعام زائدا عن حاجة صاحبه ، وامتنع عن اعطائه للجائع ، وسيأتي
تفصيل ذلك .

٦١ - وكذلك الحكم بالنسبة الى العطشان الذي خشى التلف اذا
وجد الماء الزائد عن حاجة غيره .

٦٢ - ومثل ذلك بالنسبة الى العريان الذي وجد الكساء الزائد
عن حاجة صاحبه .

٦٣ - ويحرم دوس المصحف وكتب الحديث والفقه وكل ما فيه اسم
الله تعالى أو اسم رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن فعل ذلك أمتهانا
لكتاب الله أو لرسوله فقد كفر ، ولكن اذا كان الطعام أو الشراب في مكان
عال ، ووصل به الجوع أو العطش الى حد الخطر جاز له أن يصعد على
ما ذكرناه للوصول الى الطعام أو الماء (١) .

هـ - حماية حياة الاطفال :

ووجه اشعار مثل هذه العناية أو أشد منها الى حياة الاطفال فقرّر
وجوب حمايتهم من الموت أو الضعف ، ومن الامثلة على ذلك :

٦٤ - حرم الشارع أن تجهض المرأة ما حملته من الجنين في أحشائها ،
واعتبر ذلك قتل النفس .

٦٥ - واعتبر من اعتدى على امرأة حامل فأجهضت ، جانيا على
نفس بريئة وأوجب الشريعة دفع « قرّة » الجنين (أى ديتة) .

٦٦ - واذا ماتت الام وفي بطنها حمل لمعلوم الحياة وجب شق
بطنها وانقاذ حياة وليدها .

٦٧ - وأوجب على الام رضاعة طفلها فاذا امتنعت عن ذلك لعذر
مشروع وجب على الاب استئجار ظئر (مريض) لوليدته الطفل ابقاء
على حياته .

٦٨ - واذا أرادت الام أن ترضع ولد غيرها - بأجر أو بغيره - فلا
يجوز لها أن تفعل ذلك اذا كان يؤذى ولدها الرضيع .

والأرضاء أحكام في كتب الفقه يتجلى فيها حرص الشارع على حياة الطفل وصحته .

٦٩ - وجعل الشارع حق حضانة الطفل لأمه رعاية لصحة الطفل وحسن القوامة عليه .

والحضانة أيضا أحكام في كتب الفقه تتجلى فيها حماية الشارع للطفولة وحنوه عليهما .

٧٠ - وجعل الشارع نفقة الطفل على أبيه حتى يستغنى بالكسب . ونفقة أحكام سندرهما في قانون النفقات من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى

٧١ - وكل ما ألجبه الشارع للطفل الشرعى من حق الحياة وحمايتها ألجبه للطفل اللقيط سواء بسواء . فعلى من وجده في الطريق أن يلتقطه وينفق عليه حتى يسلمه للدولة .

وللقبط أحكام تبدو منها بوضوح حماية الشارع لهذا الصنف الضعيف من الأطفال .

و - حق الحياة للأرقاء :

٧٢ - وقد شمل الشارع في تقريره حق الحياة وحمايتها الأرقاء جميعا ، فلم يبيح قتل الرقيق إلا إذا جنى قتل غيره . ولم يبيح جعله معرضا للجوع أو العطش أو المرض . وكل ما ذكرناه سابقا من أحكام الحياة والصحة يشمل الأرقاء بالاجماع .

ومن عرف ما كان يعامل به الرقيق في العالم القديم وخاصة في الغرب حتى نهاية القرن التاسع عشر . عرف فضل الإسلام وسمو اشتراكته الإنسانية (١) .

ز - حق الحياة للحيوان :

وكذلك لم تقتصر رعاية الشارع بحق الحياة على اعتبار ذلك حقا للإنسان وحده ، بل اعتبر ذلك حقا للحيوان غير الضار وغير المأكول واليك بعض الأمثلة :

٧٣ - لا يجوز قتل الحيوان غير المؤذى ولو بلغ من الهرم حدا لا يستطيع معه صاحبه أن ينتفع به ، كالخيول العاجزة : أو المريضة .

٧٤ - من امتنع عن إطعام الحيوان الذي يملكه ، وجب عليه أن يبيعه ، أو يسيبه إلى مكان يجد فيه مأكله ، أو يلجئه إذا كان مما يؤكل فإذا امتنع عن ذلك أجبره القاضي على الانفاق عليه أو ذبحه أو تسيبه . وبذلك قال جمهور الفقهاء .

٧٥ - حتى الحيوان المؤذى لا يجوز حبسه حتى يموت جوعا ، بل يقتله رأسا لأن الموت من الجوع تعذيب له وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم « عن تعذيب خلق الله » .

وسياتى معنا مزيد بيان لأحكام الحيوان في قانون النفقات : وقد بدأنا بوضع كتاب باسم « حقوق الحيوان في الإسلام » ! .. ونسأل الله العون من أنجازه .

(١) ذكرنا شيئا من هذه المقارنات في كتابنا « شرح قانون الأحوال الشخصية » الجزء الأول ، ولنا في ذلك كتاب شاف لم يطبع بعد .

حق الحرية

من تعاليم القرآن والسنة يبدو بكل جلاء أن الإسلام لا يرى قيمة للحياة الإنسانية بدون الحرية . ومن هنا جاء حق « الحرية » وهو الحق الثانى من الحقوق الطبيعية الخمسة فى اشتراكية الإسلام . فبها هى الحرية ؟

تطلق الحرية فى اللغة عن الخلوص من العبودية . فيقال : هو حر ، أى غير مسترق ولا مملوك وتطلق على الخلوص من القيد ، فيقال : هو حر ، أى غير أسير .

وتطلق على الخلوص من كل شيء دخيل . فيقال : فرس حر ، أى عتيق الاصل ، ليس فى نسبه هجنة ويقال : أرض حرة أى لا رمل فيها ورملة حرة أى لا طين فيها ، وطين حر أى لا رمل فيه .

وتطلق بمعنى الشرف والطيب والجودة فيقال : هو حر أى كريم شريف طيب الاصل . ويقال : هو من حرية القوم أى اشرافهم . والحر من كل شيء احسنه وأطيبه وأعتقه .

يخلص لنا من هذا أن الانسان الحر هو غير المملوك وغير المقيد بأى قيد مادى ، وهو الخالص فى انسانيته لاثوبها شائبه . وهو الكريم فى خلقه ، الشريف فى سلوكه .

والحرية بهذا المعنى الواسع قد قررها الإسلام اتم تقريراً ووضحه ونستطيع ان نصنفها الى الاصناف الآتية :

١ - الحرية « الإنسانية » :

ونعنى بها أن يكون الانسان غير مملوك لاحد لا فى نفسه ولا فى بلده ولا فى قومه وأمته .

١ - فالانسان منذ ولادته يولد حراً لا يملكه احد . وفى هذا يقول عمر قوائمه المشهورة لعمر بن العاص : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم أحراراً ؟ » .

ومنه ماجاء فى أول ميثاق حقوق الانسان الذى وضعته هيئة الامم وتحتل به كل عام ! « الناس يولدون أحراراً متساوين . » الخ

٢ - والانسان لا يوصف بالعبودية لاحد من الناس . ولكنه يوصف بالعبودية لله وحده خالق الحياة وما فيها ومن فيها . والعبودية لله أمر واقعى . والاعتراف بها لا بد منه ، اذ هى خضوع لمن لاسبيل للخروج على أمره ، وذلك واجب مادام الانسان فى وجوده وفى مواهبه وخصائصه مدبنا بها الله رب العالمين « قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون (١) » « وما يكمن من نعمة فمن الله (٢) » « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلم كفار (٣) »

ومن هنا كان شعار المسلم دائما : لا اله الا الله . أى لا معبود بحق الا الله ، وكان مما امر به المسلم ان يردد فى اليوم والليلة فى صلواته :

« اياك نعبد و اياك نستعين (١) »

ومن هنا كان اشرف وصف لرسول الله والنبياؤه وصفهم بالعبودية : « واذكر عبدنا ايوب اذ نادى ربه » (٢) .

وفى وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وأن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله » (٣) .

٣ - والانسان الحر لا يملكه قومه ولا مجتمعه ولا دولته ، لانه متساو مع قومه ومجتمعه فى انسانيته الحرة ، والدولة كيان معنوى يقوم به افراد من الشعب لخدمة الشعب لا لاستعباده حتى ان رئيس الدولة فى الاسلام ليس الا خادما لمصلحة الشعب ، ومن هنا جاء قول ابى بكر رضى الله عنه اول ماولى الخلافة : « انما انا واحد منكم لست بخيركم » وقد كان ابو حازم يدخل على معاوية فيقول له : « السلام عليك اياها الاجير ! فاذا حاولوا ان يقولوا لابي حازم : قل « السلام عليك ايها الامير » ابى عليهم ذلك ، ثم التفت الى معاوية فقال له : انما انت اجير هذه الامة استأجرك ربك لرعايتها !

٤ - والامة حرة فى وطنها الذى تعيش فيه ، لاستعباد لامة اخرى ولو كانت اقوى منها او اظم او اغنى ، فاذا اعتدت امة على اخرى فسلبتها حريتها ، كان ذلك عدوانا لا بدانيه عدون ، وظلما يوجب على الامة المعتدى على حريتها ان تهب لدفع هذا الظلم بكل ما تملك من ارواح واموال ، بكل فئاتها القادرة على القتال ، « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير (٤) » أى اذن للامة التى قوتلت واعتدى عليها بان تقا تل دفاعا عن حقها « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وانفسكم (٥) » .

فاذا تقاضت الامة من هذا الواجب ، عوقبت فى الدنيا بالذلة والهوان ، وفى الآخرة بعذاب من الله اليم . « ألا تنفروا يعذبكم عذابا ليما ويستبدل قوما غيركم » (٦) .

واذا رضى بعض الناس ان يقيموا على اللل دون ان ينحسروا الى اخوانهم الاحرار فى وطنهم الحر ، كان ذلك ظلما من هؤلاء المتقاعسين لانفسهم بما يقبون عليه بالعذاب وسوء المصير .

« أن الذين توفاهم الملائكة ظالمى انفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الارض ، قالوا ألم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها فاولئك ماواهم جهنم وساءت مصيرا (٧) » .

وفى قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله دون أن يكون لهم عذر فى هذا التخلف ، وما عوقبوا به من المقاطعة الادبية فى المجتمع الاسلامى يومئذ ، مثل وادع لكل الذين يتخلفون عن الاشتراك فى الجهاد المشروع (٨) .

(١) الفاتحة : ٥	(٢) سورة (ص) : ٢١	(٣) البقرة : ٢٣
(٤) الحج : ٢٩	(٥) التوبة : ٤١	(٦) التوبة : ٣٩
(٧) النساء : ٦٧	سورة التوبة : ١١٨	وقد نزل فيها

القرآن الكريم كما تراه فى (٨) انظر الى هذه الحادثة فى كتب السيرة

٥ - والامة المعتدى على حريتها اذا نهضت للدفاع وعرفت كيف تقاوم العدوان ، يكافئها الله على ذلك بالحرية الكريمة والنصر المبين : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين (١) » .

٦ - وعلى الامة الحرة أن تهب لنجدة المستضعفين المعتدى على حريتهم ، لتعيد اليهم حريتهم وتدفع الظلم أواقع بهم : « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان (٢) » .

تلك هي مبادئ الحرية « الانسانية » في الاسلام . حقاً للفرد والامة ، وحمايتها حق واجب على الفرد والدولة .

وقد يعترض على هذا بما يفتربه المفرضون المتعصبون على الاسلام ، من أن الاسلام شرع القتال لفرض سيطرته على الشعوب ، وفرض الرق على الاسرى تبعاً لذلك . ونحن في غنى عن الإفاضة - في هذا المقام - في شرح مبادئ الاسلام في الحرب . وحسبنا أن نلمس فيما بلوناه من الآيات السابقة ، مع اضافة قوله تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين (٣) » وقوله تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » (٤) ، وقوله تعالى : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » (٥) .

حسبنا أن نندبر هذه الآيات بعضها مع بعض لنعلم أن القتال في الاسلام مشروع للدفاع عن حرية الامة في وطنها وحريتها وفي عقيدته فحسب . لا « العدوان » على حرية الامم الأخرى وعقائدها .

أما الرق فالاسلام « يلحبه » ولم « يفرسه » وهو ضرورة زمنية كانت تقتضيها معاملة المثل بالمثل . مع تضيق حدود هذه المعاملة الضرورية الى أقصى حد ممكن . والرق في هذه الحالة امر طارئ مؤقت . ومن هنا جاء تعريف الفقهاء له بأنه : عجز حكى . أى هو عجز الرقيق عن ممارسة حريته الانسانية « حكماً » لا حقيقة . كما يجرى بعض المواطنين المجرمين في نظر الدولة من حقوقهم المدنية والسياسية ! . وقد ذكرنا ما هو أوسع من هذا عن الحرب والرق في الاسلام في كتابنا « نظام السلم والحرب في الاسلام » !

٢ - الحرية « الدينية » :

لا ريب في أن أبرز مظهر من مظاهر حرية الانسان . حريته فيما يدين به من دين . ذلك أن الدين عقيدة تستقر في القلب . ويرضى عنها العقل أو يجب أن يطعن اليها العقل . فكل جو لا تكمل فيه حبيرية العقيدة . يعتبر عدواناً على الحرية الانسانية للانسان . ومن ثم فهو

عدوان على الانسان نفسه . اشد خطرا وأبلغ اذى من العدوان على جسمه أو ماله .

واشتراكية الاسلام تقرر حق الحرية الدينية على اساس تكفل قيام هذه الحرية ووجودها فعلا لا دعوى . فهي :

١ - تحرر العقل من الخرافات والالوهام ليتيسر للعقل أن يختار العقيدة الصالحة . وسنشرح ذلك في الحق الثالث « حق العلم » .

٢ - تحرر الانسان من سلطان التقليد بغير تدبر . وتنهائه عن اتباع آباءه وقومه في دينهم دون أن يفكر في شأن هذا الدين الذي اتبعوه ، تفكير الأحرار المستقلين : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون (١) » .

ومن هنا اختلف العلماء في ايمان المقلد لآبويه في عقيدتهما هل ينجيه ذلك الايمان أم لا ؟

٣ - تطلب الى الانسان أن يستعمل عقله ويتأمل في خلق السموات والارض وفي نفسه وفي كل ما يحيط به من الكون . وفي دلائل نبوة الرسول الذي يتبعه . ومن هنا نجد القرآن لا يكتفى بأن يقول للناس آمنوا بالله وآمنوا برسوله . بل يطلب منهم أن يستدلوا بقولهم على وجود الله ووحدانيته ، وأن يستدلوا بالتفكير والتدبر في نبوة الرسول ومعجزة القرآن الناطقة بصدقته : « وقالوا لولا أنزل عليه الآيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أو لم يفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم (٢) » .

٤ - وأخيرا تعلن حرية الانسان في عقيدته من حيث يمنع الاكراه عليها : « لا اكراه في الدين (٣) » « لفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين (٤) » . ولم يعط أحد حق اكراه انسان على عقيدته . وفي ذلك يقول القرآن للرسول عليه السلام « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر (٥) » .

٥ - ونتيجة للمبدأ السابق يجمع الفقهاء على أن غير المسلمين من اهل الكتب السماوية يتركون وما يدينون . ولا يجبرون على تنفيذ احكام شريعتنا فيما لهم فيه تشريع خاص . سيما فيما يتعلق بأحكام الاحوال الشخصية .

وقد كان تاريخ الاسلام السياسي منفذا لهذا المبدأ في جميع عصوره بلا استثناء .

(١) البقرة : ١٧٠

(٢) العنكبوت : ٥١

(٣) البقرة : ٢٥٦

(٤) يونس : ٩٩

(٥) الغاشية : ٢١

٣ - الحرية (العلمية)

ستعلم مما نذكره في البحث التالي وهو « حق العلم » لأن الإسلام فتح آفاق الكون كله . أرضه وسماواته . بجميع عوالمه المتعددة . أمام العقل ليفكر فيه ويتدبره وأن الإسلام جعل أساس الوصول إلى الحقائق العلمية المتصلة بهذه العوالم هي « التجربة » و « التأمل » و « الخبر الصادق » ونتيجة هذا كله أن يفتح أمام العقل طريق البحث العلمي المجرد من كل قيد يحول دون انطلاقه . وهذا هو الذي وقع في تاريخ الإسلام ، وكان أول حرية ينالها العقل في ظل الديانات .

استطاع العقل بهذا الجسور العلمية الحر أن ينطلق في ميسادين الآداب والفلسفة والعلوم . وأن يجتهد ويستنبط . من نصوص الشريعة ما تؤهله لذلك وسائل الاجتهاد والاستنباط . وأن يتدبر الكون واحداً . وأن يناقش الآراء ويفاضل بينها . ويختار منها ما يراه أقرب إلى الصواب . والوفيق للعقل . مهتدياً في ذلك كله . بقوله تعالى : « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب (١) » .

وأنا لنجد في هذه الآية شيئاً جديداً في تاريخ العقل . وخاصة في تاريخ الديانات . وهو أن الذين يستمعون الآراء ويتبعون أحسنها . هم العقلاء وحدهم دون غيرهم . وهم الذين هداهم الله واستحقوا ثنائه وتوابعه . أن هذا شيء عظيم في تطور العقل الإنساني وفي تاريخ الديانات .

وفي هذا الجو العلمي الحر . والجو الفكري المنطلق . نشأت المذاهب وتعددت الآراء . وكثرت المدارس الفكرية . وتنوعت الحقائق العلمية . وكان لكل ذي رأي أتباعه . ولكل أمام مؤيدوه .

وابتدأت حلقات العلم تنمو في حماية الإسلام . في كل نواحي العلوم وفروعها ، وأول ما بدأت في المساجد . ثم أنشئت بجانبها المدارس . مما كان له أكبر الأثر في ازدهار العلوم والآداب (٢) .

ونحن نذكر فيما يلي أهم الميادين العلمية التي استعمل فيها العقل . وتعددت فيها الآراء والمدارس الفكرية .

١ - في تفسير القرآن الكريم : فقد قامت الآراء المختلفة في تفسير كثير من آياته وكلماته .

٢ - في الحديث الشريف : فقد نشأت بعد جمعه علوم كثيرة فيها آراء متعددة .

٣ - في تشريع الأحكام : فقد تعددت المذاهب الاجتهادية تصديداً جعل من الفقه الإسلامي ثروة تشريعية لا مثيل لها في أمة من الأمم في القديم والحديث .

(١) أنظر في الحركة العلمية ومدارسها .

(٢) الزمر : ١٧ ، ١٨

وأضافها في تاريخ الحضارة الإسلامية في كتاب « من روائع حضارتنا » للعلوف .

٤ - في علم الكلام - العقائد - فقد نشأت المذاهب المتعددة في أصول العقائد . وحسبنا مدرستا الأشعرى والماتريدي في جمهور أهل السنة .

٥ - في التاريخ : فقد أتبع كل مؤرخ ماصح عنده من الإخبار وما صح لديه من تفسيرها .

٦ - في الأدب من نحو وصرف . وشعر ونثر . ولغة وقواف : فقد تعددت الآراء في كثير من أبحاثها . وحسبنا مدرسة البصرة . ومدرسة الكوفة في النحو . والآراء في نقد الشعراء والكتاب وتفضيل بعضهم على بعض .

٧ - في الفلسفة ما بين حفي بها مدافع عنها . وما بين مهاجم لها . معرض عنها . والمعنون بها ما بين منحاز إلى رأى فيلسوف يدافع عنه ، وما بين منحاز إلى فيلسوف آخر يتعصب له وما بين مستقل يبدى رأيه بحرية .

٨ - في الطب والعلوم والطبيعة . إذ كانت التجربة هي الأساس الذي قام عليه علم الكيمياء عند المسلمين .

٩ - في الفلك والأجرام السماوية . إذ قامت المراصد في عواصم الإسلام الكبرى لتتبع حركات النجوم وأحوالها .

١٠ - في الأخلاق وعلم النفس . إذ قامت الدراسات التي تدور حول طبائع النفس الإنسانية وخصائصها .

١١ - في التصوف . حيث نشأت المذاهب المتعددة في السلوك والعبادة . ولكل شيخ فيها مريدون يأخذون بطريقته .

ونحن إذ نذكر هذه النهضة العلمية في مختلف الميادين . وتعدد مدارسها الفكرية . لا نتعرض لما كان للخلاف في بعض هذه الميادين من آثار في الحياة السياسية والاجتماعية للمسلمين - فذلك له موضع آخر . وإنما نذكرها للدلالة على الحرية العلمية التي عاشت في ظل الإسلام وخاصة في عصور حضارته الزاهرة .

ومن الجدير بالذكر أن هذه الآراء والمدارس الفكرية المتعددة التي انتشرت في أنحاء الإسلام كله . كان منها ما يمس العقيدة الإسلامية . ومنها ما كان يخالف الحقائق الإسلامية . ومع ذلك فلم تكن هناك سلطة دينية أو سياسية تحظر هذه الآراء أو تحكم على أصحابها بالإعدام والاحراق . بل كان علماء الشريعة يتصدون للرد عليها ويبان زيفها وبطلانها بالحجة والبرهان . وكان ميسدان هذا النقاش هو الكتب والطلقات والمجالس العلمية فحسب . لا السيف ولا السجن . إلا مرة واحدة في تاريخنا حين فرض الأمون والمعتصم رأى المعتزلة في خلق القرآن . وعذب الثأت من العلماء المخالفين لذلك الرأي . ولكنها حادثة واحدة يذكرها التاريخ بأسف ومرارة . ولم يقع أن تدخلت الدولة - وخاصة في القرون الثلاثة الأولى للهجرة - ضد الآراء المهاجمة للإسلام

والمخالفة لتعاليمه ، لا حين ترى الدولة أن من وراء هذه الآراء مآرب سياسية تعرض كيان الدولة للخطر . كما حصل في زمن علي رضي الله عنه حين وقف من عبد الله بن سبأ اليهودي المتظاهر بالاسلام والذي نادى بالوهمية على رضي الله عنه ، فقد قاومه على وقاوم جماعته بالقوة . ونحن لانشك الآن في أن ذلك اليهودي الخبيث لم يكن له غرض من تلك الدعوة الا تهديم الكيان الاسلامي ، وافساد العقيدة الاسلامية بما يبعث على التفرقة والفساد .

وكما حصل في عهد المهدي العباسي اذ نشط أعداء الدولة في نشر الآراء الهدامة التي لابد من أن تقضي على كيان الدولة لو استمرت . ونجحت ، فنهض المهدي لمقاومة رؤوس هذه الفتنة وهم الذين يسمون بالزنادقة ، وكلهم من الفرس الذين استولى الاسلام على مملكتهم وقضى على فاسد عقائدهم .

ولم يقع اضطهاد بعض العلماء لآرائهم التي تخالف الجمهور الا في حالات نادرة . وفي العصور المتأخرة . كما وقع لابن حزم في الاندلس وابن تيمية في دمشق . ولم يكن ذلك ليقع لولا أن العقل الاسلامي كان قد بدأ يتعد عن الحرية العلمية التي أرسى أساسها الاسلام .

٤ - الحرية السياسية

الحرية السياسية في نظر الاسلام جزء اساسي من الحرية الانسانية .. وتتجلى الحرية السياسية في الامور الرئيسية التالية :

١ - حرية اختيار رئيس الدولة (الخليفة أو امير المؤمنين كما كان يسمى في الماضي) فان أهل الحل والعقد في الأمة هم الذين يتولون اختياره . فاذا اتفقوا أو أكثرهم على شخص منهم بايعوه على السمع والطاعة والنصرة ، ثم تبعهم الجمهور في المبايعة . وبذلك يكون رئيساً شرعياً للدولة . وهكذا تمت مبايعة أبي بكر رضي الله عنه بالخلافة . وكذلك تمتبيعة الثلاثة الآخرين بقرب من هذا الشكل . وتولى الخلافة بالوراثة كما حصل في عهد معاوية اذ عهد بها الى ابنه يزيد . امر ان كان قد اقتضه الظروف السياسية في ذلك العهد - فان روح الاسلام ومبادئه تلباه .

٢ - حرية ابداء الرأي الشورى لرئيس الدولة ، فانه مطلوب منه أن يستشير من هو أهل للشورى عملاً بقوله تعالى : « وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله (١) » والشورى هي مظهر الحكم في النظام الاسلامي كما قال تعالى : « وأمرهم شورى بينهم (٢) » وقد طبق ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته السياسية والحرية كما هو معلوم في معركة بدر وأسراها .

٣ - حرية نقد الحاكم - في حدود الادب الاسلامي والمصلحة العامة - فان لكل مواطن أن يبدي رأيه في تصرفات الحاكم . وأول من ضرب

المثل لهذا أبو بكر في خطبته الاولى بعد الخلافة : « ان رايتموني على حق فأعينوني . وان رايتموني على باطل فسدّدوني » ويتجلى هذا المبدأ واضحاً في تصرفات الخليفة الثاني عمر رضي الله عنه . واستماعه اني راي الشعب في تصرفاته والى ردهم عليه بعض آرائه .

٤ - حرية التنظيم الى رئيس الدولة من تصرفات الولاة والوزراء وقد كان عمر يرسل الى ولاته ان يجتمع بهم في موسم الحج وينادي في الناس : من كانت له مظلمة على أحد الولاة فليتقدم بالشكوى منه . وكان عمر يستمع الى كل شكوى . ولا نرى حاجة الى الاستشهاد بالدلة فذلك مما استفاض وعرف في التاريخ . وقد كان «ديوان المظالم» مما عرف في تاريخ الدول الاسلامية في مختلف العصور . وكثيراً ما كان الخليفة بنفسه يستمع الى المظالم ولو كانت على نفسه أو امراء الدولة واعيانها . وكثيراً ما كان الخليفة يستدعى الى مجلس القضاء ليقف أمام القاضي متهما في دعوى رفعها ضده أحد أفراد رعيته . وتاريخ القضاء في الاسلام حافل بهذه الوقائع .

٥ - حرية عدم اطاعة الحاكم اذا أمر بمعصية . وتبيننا الحديث عدم نفاذ امره اذا خالف الدستور والانظمة العامة . والاصل في هذا قوله صلى الله عليه وسلم : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق (١) » .

٦ - حرية الخليفة نفسه . فان الخليفة - أو الرئيس - في نظام الاسلام ليس لهم اسكيا . بل هو ذو صلاحيات واسعة . فهو الذي يعين الوزراء ويكونون مسؤولين امامه . وهو الذي يعلن الحرب على الأعداء اذا أعلنوا الحرب على الأمة . ويعبىء الجيوش ويقود المعارك كل ذلك ضمن مبدأ الشورى . هذا عدداً مهماته الداخلية . فلا بد ان يكون الخليفة قادراً على القيام بهذه الشؤون . ومن هنا تعرض الفقهاء لما اذا وقع الخليفة أسيراً في يد الأعداء قال القاضي أبو يعلى : « فان صار مأسوراً في يد عدو قاهر لا يقدر على الخلاص منه . منع ذلك من عقد الإمامة له . لعجزه عن النظر في أمور المسلمين (٢) » ثم قال : « فان أسر بعد ان عقدت له الإمامة فعلى الأمة استنقاذه . لا أوجبته الإمامة من نصرته (٣) » .

وقصارى القول ان الاسلام قد كفّل الحرية السياسية للأمة بطريقة تبقى على الأمة حريتها الكريمة . وتحفظ للدولة قيامها بواجباتها نحو الأمة في جو من الحزم والجد ووضع الأمور في مواضعها . واعتقد ان نظامه في هذا الشأن ينحى الأمة من مساوئ الحريات السياسية الماثمة في بلد كفرنسا . رأينا كيف أدت الحريات السياسية للأحزاب فيها الى ان تستغل هذه الأحزاب مصالح الأمة في سبيل مصالحها الخاصة . مما أدى الى انهيار الدولة وانتشار الفساد الاخلاقي في موظفيها من رشوة وانحياز واستهتار وغير ذلك .

٥ - الحرية (المدنية) :

ونعني بـحرية الفرد في اختيار العمل الذي يريده لكسب معيشته واختيار من يشاء لتكون زوجته . واختيار المرأة البالغة المتعاقلة من تشاء

(٢) الاحكام السلطانية : ٦/١

(١) رواه احمد والحاكم .

(٣) الاحكام السلطانية : ٦/١

ليكون زوجها . وهذا على رأى كثير من الفقهاء . واختيار البلدة التى يقيم فيها . والعلم الذى يريد التخصص فيه ، ولا تتدخل الدولة فى ذلك الا عند الضرورة كما فعل عمر رضى الله عنه فى منع كبار الصحابة وقفائهم من التحول عن المدينة الى الامصار والبلاد المفتوحة ليكونوا بجانبه يمينونه فى حل مشكلات الخلافة والقيام باعبائها ، وقد بحث الفقهاء فى الحالات التى يجوز للدولة أن تتدخل فيها فى حرية العمل وحرية الإقامة وغير ذلك من الشؤون .

٦ - الحرية (الاجتماعية) :

ونعنى بها حرية النقد الاجتماعى لكل من تؤهله كفاءته وعلمه للتصدي للنقد ، وهذا ما يسمى بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فالحكم الشرعى ان من رأى منكرا - وهو ما يخالف الشرع والعرف الذى بقره العقلاء ضمن حدود الشرع - فعليه أن ينكره بيده اذا استطاع ، كمن رأى انسانا يريد أن يقتل انسانا ظلما وعدوانا فعليه أن يمنع هذا القتل العدوان اذا كان يستطيع ذلك ، فان لم يستطع فعليه أن ينكر ذلك بلسانه ، فان لم يستطع بأن كان مقهورا مغلوبا على امره فعليه أن ينكر ذلك بقلبه . ويشترط فى ذلك كله الا يؤدي انكار المنكر الى ما هو أشد خطرا على المجتمع ، كما يشترط أيضا شروط تعرف فى مواضعها والاصل فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

« من رأى منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان (١) » .

٧ - الحرية (الادبية) :

ونعنى بذلك حرية الانسان فيما يفعله أو يقوله أو يميل اليه اذا كان ذلك ضمن المبادئ الاخلاقية والاجتماعية ، فان لكل انسان ميوله الفطرية ، ولذاته المشروعة ، فلا يحتم الشرع سلوك طريق معين لذلك ، وينبغى أن لا يختلط الامر بين الحرية بهذا المعنى ، وبين الحرية الاخلاقية المنطلقة من كل قيد ، فتلك هى حرية العقلاء ، وهذه حرية السفهاء لسنا نجد فى الدنيا حرية لا تقيد بقيد ، ولسنا نجد مجتمعا لا يقيد التصرفات المدنية بعبود تضمن كرامة الجماعة وعدم انتقاص حريتها ، واذا تعارضت حرية الفرد مع حرية المجتمع كانت حرية المجتمع أولى بالتقدير . هذا هو حكم الشريعة ، وهذا هو موقف القوانين فى الدول المتقدمة .

وأزيد هذا الموضوع ايضا بما كتبه فى يوم من الأيام :
ليست الحرية كما يتوهمها أكثر الناس مقصورة على نوال الشعوب حقها فى السيادة والاستقلال فتلك هى الحرية السياسية ، ووراءها حرية الامة فى تفكيرها وثقافتها واتجاهاتها الانسانية الكريمة .
وليست الحرية كما يظنها كثير من الشباب أن ينطلق الانسان وراء أهوائه وشهواته ، يأكل كما يشاء ، ويفعل ما يشاء ، ويحقق كل

(١) رواه مسلم واحمد وأصحاب السنن الادبية .

ما يهوى ويريد ، فذلك هي القوضى أولا ، والعبودية الدليلة آخرا .

أما أنها فوضى فلأنه ليس في الدنيا حرية مطلقة غير مقيدة بقانون أو نظام ، بل كل شيء في الدنيا له قانون يسره وينظمه ، وحرية الفرد لا تصان إلا حين تقيد ببعض القيود لتسلم حريات الآخرين . ومن هنا كانت الحكمة من الشرائع والدساتير والأنظمة والقوانين . . . خذ لذلك مثلا قانون السير في المدن الكبرى . هل تستطيع أن تسير بسيارتك إلا وفق السهام التي تحدد اتجاهك في السير . وخذ كذلك مثلاً قانون الراحة العامة : هل تستطيع أن تغنى بعد منتصف الليل كما تشاء في الشوارع الأهلة بالسكان . وخذ لذلك قانون حماية الاستقلال هل تستطيع أن تبث من الآراء ما يؤدى الى الانقراض على أمن الدولة وتهديد سلامتها ؟ هل تستطيع أن تتاجر مع العدو أو تهرب اليه منتجات بلادك دون أن تتعرض للعقوبة التي تصل أحيانا الى حد الإعدام .

ان « تمام » الحرية لا « كمالها » قد يكون بالمنع إحيانا ، فالمرضى حين يمنع من الطعام الذي يضره ، إنما تحل حريته في الطعام مؤقتا ، لتسلم له بعد ذلك حريته في تناول ما يشاء من الأغذية ، والمجرم حين يسجن إنما تحل حريته مؤقتا ليعرف كيف يستعمل حريته بعد ذلك في إطار كريم لا يؤذى نفسه ولا يؤذى الناس .

ثم ان الإنسان لا يعيش وحده ، وإنما يعيش جزءا من مجتمع متماسك يؤذى كله ما يؤذى بعضه ، وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك مثلا من أروع الأمثلة يقوم كانوا في سفينة وكان بعضهم في أعلاها وبعضهم في أسفلها ، وكان الذين في أسفلها يأخذون الماء ممن فوقهم ، فقالوا : لماذا لا نخرق في مكاننا خرقا نأخذ منه الماء من البحر رأسا . قال عليه الصلاة والسلام : « فان تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وان أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا » انه مثل كريم من معلم الإنسانية الأكبر يضع فيه الحد الفاصل بين الحرية الشخصية التي لا تؤذى أحدا ، وبين الحرية التي تؤذى المجتمع وتعرضه للانهايار اذا أطلقت يد صاحبها فيها كما يشاء .

وأما أنها العبودية ، فلان تمام الحرية هو أن لا يستعبدك أحد ممن يساويك في الإنسانية أو يكون دونك فيها ، وفي القوضى التي يعبر عنها بعض الناس « بالحرية الشخصية » عبودية ذليلة لمن هو مثلك أو دونك من قيم الحياة ومادتها .

حين تستولى على الإنسان عادة الانطلاق وراء كل لذة والانفلات من كل قيد ، يكون قد استعبدته اللذة على أوسع مدى ، وأصبح أسيرها يجري في الحياة تحت أرادتها ووحيتها ، لا يعمل إلا ما تريد ، ولا يستطيع فكأكا مما تهوى . . فما هذه الحرية التي تنقلب الى عبودية لاهون ما في الحياة من قيمة ومعنى . لأن كانت قيمة الإنسان بمقدار ما ينال من لذائذه ، فان الحيوان أكثر منه قيمة وأعلى قدرا ، ان الحيوان هو الذي يسعى وراء لذته بلا قيد ولا هدف ومهما جهد الإنسان أن ينال من لذائذه ما

يهوى فانه ملاق في سبيل ذلك - رغم انفه - عوائق تمنعه من بعض ما يريد ، فهل يزعم أحد أن الحيوان الذي لا يعوقه دون استكمال لذته عائق ، أكثر من الإنسان حرية ، فهو أكثر منه سعادة ! .

وحين ينطلق الإنسان وراء فتاة يهواها ، أو وراء الغانيات يشبع بهن لذائذه ، يستطيع أن يزعم لثمة حر من سلطانهن ! ألا تراه أسير اللحظات ، رهن الاشارات ، شارد اللب ، أقصى أمانيه في الحياة بسمة من حبيب هاجر . أو وصال من جسم ممتنع . أية عبودية أذل من هذه العبودية ، وهو لا يملك حريته في الحب والكراهة ، والوصل والانع ، والرضا والغضب ، والهدوء والاضطراب .

وحين يسترسل الإنسان في تناول المسكرات يعب منها ماتناله يده حتى تلف لعصابه وصحته . وتسلب عقله وكرامته ، أيزعم بعد ذلك أنه حر . أهناك أبشع من هذه العبودية لشراب قاتل وسوموم . فتاكة ؟ ..

وقل مثل ذلك في التهاك على المال والجاه والتعصب للبلد والعشيرة ، أن كل ذلك حين يستولى على قلب الإنسان ونفسه ينقلب الى عبودية ذليلة ، وكل هوى يتمكن من النفس حتى تكون له السيطرة على الاعمال والسلوك ينقلب بصاحبه الى عبودية بشعة لانهاية لقبحها ، ومن أعجب أساليب القرآن تعبيره عن مثل هذه الحالة بقوله : « أفرأيت . من اتخذ الله هواء » (١) .

ان الهوى عند أمثال هؤلاء خصائص الالهية في نفوس المؤمنين . ليس الاله هو الذي يعبد ويطاع ، ويخشى ويرتجى . وليس أصحاب الاهواء والشهوات قد خضعوا لاهوائهم وأطاعوها فيما تحب وتكره . فلا يستطيعون إفضائها ولا معارضة اتجاهاتها .

ليست العبودية قيداً ولا سجناً فحسب ، فهذه أهون أنواع العبودية وأسرعها زوالاً ، ولكن العبودية الحققة عادة تتحكم ، وشهوة تستعلى ، ولذة تطاع ، وليست الحرية هي القدرة على الانتقال من بلد الى بلد ، فذلك ليسر أنواع الحرية وأقلها ثمناً ، ولكن الحرية الحققة أن تستطيع السيطرة على أهوائك ونوازغ الخير والشر في نفسك ، أن الحرية الحققة إلا تستعبدك عادة ، ولا تستدلك شهوة .

بهذا المعنى كان المؤمنون المتدينون أحراراً لاتحد حريتهم بحدود ولا قيود ، أن الدين حرر نفوسهم من المطامع والاهواء والشهوات ، وربط نفوسهم بالله خالق الكون والحياة ، وقيد ارادتهم بارادته وحده ، والله هو الحق ، وهو عنوان الخير والحب والرحمة ، فمن استعبده الحق والخير والرحمة كان متحرراً من ماعداها من صفات مذمومة .

وإذا كان لابد للإنسان من أن تستعبده فكرة أو نزعة أو خلق فالذين يستعبدون الحق خير وأكرم ممن يستعبدون الباطل ، والذين

تستعبدهم نزعة انسانية كريمة تستمد سموها من الله ، اكرم ممن تستعبدهم نزعة شهوانية تمتد نسبها الى الشيطان ، والذين يخضعون لله ويمثلون امره ونهيه ، افضل واكمل واعقل ممن يخضعون لامرأة أو كاس أو مال أو لذة . افلا ترى معنى بعد هذا سخف بعض التقدميين الذين يابون أن يناديهم الناس باسمائهم كما سماهم آبائهم « عبد الله ، أو عبد الجواد » مثلاً ويانفون في - زعمهم - أن يوصفوا بالعبودية ، افلا ترى هؤلاء الذين يرفضون عبوديتهم لمن لا يملكون لانفسهم خروجاً من سلطانه ويقبلون عبوديتهم لاحقر شهوة واحط رغبة . . الا ترى هؤلاء يستحقون منك الاشفاق والرثاء اكثر مما يشيرون في نفسك السخط والاستنكار .

ان اوسع الناس حرية اشدهم الله عبودية ، هؤلاء لاتستعبدهم غانية ، ولا تتحكم فيهم شهوة ، ولا يستذلهم مال ، ولا تضع شهادتهم لذة ، ولا يذل كرامتهم طمع ولا جزع ، ولا يملكهم خوف ولا هلع ، لقد حررتهم عبادة الله من خوف ما عداه (الا ان اولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم (١) . صدق الله العظيم .

فقد قطع هؤلاء بعبوديتهم له عن كل خضوع لغير الله ، فاذا هم في انفسهم سادة ، وفي حقيقتهم احرار ، وفي اخلاقهم نبلاء ، وفي قلوبهم لفناء ، وذلك لعمرى هو التحرر العظيم ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يقول : « ليس الغنى عن كثرة العرض انما الغنى غنى النفس (٢) » وما أجمل قول ابن عطاء الله : « أنت حر لما آتت منه آيسر ، وعبد لما أنت له طامع » وبهذا المعنى الذى شرحناه تفهم تلك الحكمة البليغة التى قالها الشيخ الصوفى الكبير أحمد بن خضروية (٣) (فى الحرية تلم العبودية ، وفى تحقيق العبودية تمام الحرية) اهـ (٥) .

(٢) رواه البخارى ومسلم

(١) يونس : ٦٢ - ٦٤

(٣) طبقات الصوفية لابي عبد الرحمن السلمى .

(٤) احكام الصيانة وفلسفته ص ٥٨ للمؤلف

حق العلم

هذا هو الحق الثالث لكل مواطن في اشتراكية الاسلام ، وقبل أن نبين معنى هذا الحق وأدلته من مصادر الشريعة ، لابد من أن نذكر بعض الحقائق المتعلقة بالعلم والعلماء في نظر الاسلام .

أولاً : الإشادة بالعلم :

لم يسبق الاسلام - فيما نعلم - دين وقف من العلم كموقف الاسلام من الدعوة اليه ، والإشادة بفضله .

فاما الإشادة به فقد جاءت فيه نصوص كثيرة ، منها قول الله تبارك وتعالى ، وهو أول ما نزل من القرآن على النبي الأمي محمد صلى الله عليه وسلم : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم (١) » .

وجاء من أوائل السور المكية : « ن والقلم وما يسطرون (٢) » .

وجاء أيضاً : « والطور وكتاب مسطور في رق منشور (٣) » .

ومن المعلوم أن أداة العلم : قلم يكتب ، ومداد يوضح ، ومادة يكتب عليها ، وقد أقسم الله بهذه الأدوات الثلاث فيما ذكرناه من الآيات ، وأقسم بالنون ، وهي الدواة على ما ذهب اليه جمهور المفسرين ، وأقسم بالقلم ، وأقسم بالرق المنشور ، ومن أمعن النظر في كتاب الله الكريم وجد أن الله تعالى إنما يقسم بكثير من مخلوقاته تنويعاً بشانها ولفتناً لانظار الناس إليها .

ويقول تعالى في قصة خلق آدم : « وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا أنك أنت العليم الحكيم ، قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون (٤) » .

ذكر الله تعالى في هذه الآيات رده على الملائكة الذين تعجبوا كيف يجعل في الأرض خليفة له ممن شأنه سفك الدماء والافساد في الأرض ، فإن الإنسان - وإن كان من بعض أخلاقه ما ذكرته الملائكة - ألا أن هذه الخصائص يشترك فيها كثير من الحيوانات ، ولكن الميزة « الأولى » التي يتفرد بها الإنسان هي « استمداده للعلم » ومن أجلها استحق الخلافة في الأرض والسيطرة عليها . واستحق أن تخضع له أكرم مخلوقات الله

(٢) سورة القلم : ١-٢

(٤) سورة البقرة : ٣١-٣٢

(١) سورة العلق : ١-٥

(٣) سورة الطور : ١-٣

وهم الملائكة ، فأمرهم بالسجود لآدم بعد أن أظهر لهم ميزته عليهم .
 « بالعلم » ، وفي هذا من الإشادة بالعلم وتكريمه وجعله الميزة الكبرى
 التي تتميز بها الإنسان عن غيره ، مالا مزيد عليه وما لا نعرف له مثيلا في
 الديانات السابقة التي حكمت قصة خلق الإنسان الاول ، وبالمقارنة بين
 ما أوردته القرآن عن قصة خلق آدم كما ذكرناه آنفاً ، وبين ما قصته
 التوراة الحاضرة عن بدء خلق آدم يتبين لنا الفرق بين صنيع القرآن
 الذي جعل « المعرفة » هي ميزة آدم التي خلقه الله من أجلها ، وبين
 صنيع التوراة التي جعلت « المعرفة » التي حلت بآدم حين أكل شجرتها
 التي نهاه الله عنها سببا في عقوبة آدم وحواء وطردهما من الجنة ! .

ومما جاء في الحديث النبوي عن فضل العلم : « إذا مات ابن
 آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد
 صالح يدعو له (١) » .

ثانياً : الإشادة بالعلماء :

في القرآن والسنة من الإشادة بفضلهم ما يلفت الانتظار إلى سمو
 مكانة العلماء في نظر الاسلام .

قال تعالى : « شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم (٢) » .

وقال تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم
 درجات (٣) » .

وقال تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا
 العالمون (٥) » .

وانت ترى في هذه الآية الاخيرة ان الله تعالى حصر العقل والتدبر
 في آيات الله في الكون وما يضربه للناس من أمثال للعبرة والعظة . بالعلماء
 دون غيرهم . وهذا تشريف للعلماء ولفت الانتظار إلى اثرهم ومكانتهم
 في المجتمعات ما بعده مزيد .

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : « العلماء ورثة الانبياء (٦) »
 ومن المعلوم ان الانبياء هم الذروة العليا في الكمال الانساني ، فهل هنالك
 أكثر تشريفاً للعلماء من أن يكونوا ورثتهم ؟ .

(١) رواه مسلم وغيره

(٢) آل عمران : ١٨

(٣) المجادلة : ١١

(٤) فاطر : ٢٨

(٥) المتكوير : ٢٣

(٦) رواه أبو داود والترمذي .

وعنه صلى الله عليه وسلم : « يوزن مداد العلماء ودماء الشهداء يوم القيامة (١) » .

ومن المعلوم أن دم الشهيد الذى يراق فى سبيل الله هو أغلى دم يراق من بنى الإنسان .

فإذا كان المداد الذى يتفقه العالم فى تأليف الكتب لنفع الناس يعادل دم شهيد . بل يرجح عليه فى بعض الروايات . كان ذلك أشادة كبرى بفضل العلماء .

ثالثاً : تفضيل العلماء على المتعلمين المنقطعين للعبادة .

لا شك فى فضل العبادة لله والوقوف بين يديه فى الصلاة مع الخشوع والحضور . ومع ذلك فقد جاء الاسلام بتفضيل العلماء على المنقطعين للعبادة .

قال عليه الصلاة والسلام : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب (٢) »

وروى عنه : « قليل العلم خير من كثير العبادة (٣) »

وعنه أيضاً : « يبعث الله العالم والعابد ، فيقال للعابد : ادخل الجنة ، ويقال للعالم : أشفع للناس كما أحسنتم أديهم » (٤)

رابعاً : البحث على طلب العلم :

قال الله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون (٥) »

والذكر هنا هو العلم على رأى جمهرة المفسرين ، بدليل قوله « أن كنتم لا تعلمون (٦) » فإن أمر من لا يعلم أن يسأل عما لا يعلم لا يكون إلا بالسؤال من العلماء

وقال تعالى : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون (٧) »

وعنه عليه الصلاة والسلام : « طلب العلم فريضة على كل

(١) رواه ابن عبد البر

(٢) رواه أبو حنود والترمذى

(٣) رواه ابن عبد البر

وأخرجه البيهقى وغيره

(٤) رواه النسائى والترمذى

(٥) النحل : ٤٣

(٦) لبن تيد البر فى جامع بيان الصلح .

(٧) التوبة : ١٢٢

مسلم (١) «

وجاء في بعض الآثار : « أطلب العلم من المهد إلى اللحد »

خامساً : فضل الرحلة في طلب العلم .

وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم قوله : « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة (٢) »

وعنه عليه الصلاة والسلام : « من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع (٣) »

سادساً : لا خير في غير العالم والتعلم :

في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : « العالم والمتعلم شريكان في الأجر ولا خير في سائر الناس بعد (٤) »

وفي الآثار عن عبد الله بن مسعود « اغد عالماً أو متعلماً ولا تفد بين ذلك » (٥)

وعن علي رضي الله عنه : « الناس ثلاث : فعالم رباني ، ومتعلم في سبيل نجاة ، والباقي همع رعاع اتباع كل ناعق (٦) »
وسئل عبد الله بن المبارك . من الناس ؟ فقال : هم العلماء !

قال الغزالي رحمه الله في شرح ذلك : لم يجعل غير العالم من الناس لان الخاصبة آلتى يتميز بها الناس عن سائر البهائم هي العلم . فالإنسان انسان بما هو شريف لاجله . وليس ذلك بقوة شخصه . فان الجميل أقوى منه . ولا بعظمه فان الفيل أعظم منه . ولا بشجاعته فان الأسد أشجع منه . ولا بأكله فان الثور أوسع بطناً منه . ولا ليجامع فان الخس العصافير أقوى على السفاد منه . بل لم يخلق الا للعلم . اهـ (٧)

سابعاً - وجوب التعلم والتعليم :

خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فأنشأ على طوائف من المسلمين خيراً . ثم قال : ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا ينهونهم ؟ وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون ؟ والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم وبأنهم وينهونهم . وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لا عاجلهم المقسوبة !

ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قوم : من ترونه عنى بهؤلاء ؟ قال : الأشعرين هم قوم فقهاء ولهم جيران جفأة من أهل المياه والاعراب . فبلغ ذلك الأشعرين فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) رواه البيهقي وابن عبد البر ، قال السخاوي في المقاصد الحسنة قد ألحق بعض الصنفين بآخر هذا الحديث « ومسلمة » وليس لها ذكر في شيء من طرقه وإن كان معناها صحيحاً ؟ هـ ٢٧٧

(٢) رواه مسلم وأبو داود والترمذي وغيرهم ٢٨/١ :

(٣) رواه الترمذي (٤) ابن عبد البر في جامع بيان العلم :

(٥) ابن عبد البر في جامع بيان العلم : ورواه ابن ماجه .

(٦) ابن عبد البر : ٢٩/١ (٧) الاحياء : ٧/١

فقالوا : يا رسول الله ! ذكرت لقوما بغير ذكرتنا بشر فما بالنا ؟ فقال :
 ليعلن قوم جيرانهم وليعظنهم وليأمرنهم ولينهونهم ، وليتعلمن قوم من
 جيرانهم ويتعظون ويتفقهون . أو لاعلمجنهم العقوبة في الدنيا ، فقالوا
 يا رسول الله ! انطقن غيونا ؟ فأعاد قوله عليهم ، وأعادوا قولهم : أنطقن
 غيونا ؟ فقال ذلك أيضا ، فقالوا : أمهلنا سنة ، فأمهلهم سنة ليفقهوهم
 (١) ويعلموهم ويفظنوهم ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه
 الآية : « لمن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن
 مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس
 ما كانوا يفعلون (٢) »

وانك لتري في هذا الحديث من الحقائق ما يجدر التنبيه اليه .
 ١ - فالرسول عليه السلام لم يقر قوما على الجهالة بجانب قوم
 متعلمين .

٢ - واعتبر بقاء الجاهلين على جهلهم وامتناع المتعلمين عن تعليمهم
 قصصا لأوامر الله وشريعته .

٣ - واعتبر ذلك أيضا - عدوانا - و - منكرا - بوجبان اللعنة
 والمصائب .

٤ - وأعلن الحرب والعقوبة على الفريقين حتى يبادروا الى التعلم
 والتعليم .

٥ - وأعطاهم لذلك مهلة عام واحد للقضاء على آثار الجهالة فيما
 بينهم .

٦ - ولئن كانت الحادثة قد وردت بشأن الأشعرين العلماء وجيرانهم
 الجهلاء ، فإن الرسول أعلن ذلك المبدأ بصفة عامة ، لا بخصوص الأشعرين
 وحدهم بدليل أن الأشعرين لما جاءوا يسألونه عن سر تخصيصهم بهذا
 الإنكار كما فهم الناس ، لم يقل لهم أنتم المرادون بذلك ، بل أعاد القول
 العام الذي سلف ثلاث مرات دون أن يخصه بالأشعرين ، أشعارا بأن
 القضية قضية مبدأ عام غير مخصوص بفئة ولا عصر معين .

وبذلك يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد أعلن مكافحة الأمية
 قبل أن تملأها الدول المتحضرة في عصرنا هذا بأربعة عشر قرنا ، وإن هذا
 لعجيب أن يصدر من نبي أمي في بيئة أمية لولا أنه رسول الله .

ثامنا - حدود العلم :

لا يرى الاسلام أن للعلم حدا ينتهي عنده العالم ، وإن لحقائق الوجود
 مدى يمكن أن يحيط بها العلماء ، بل على العالم أن يندأ على البحث
 والنظر ، وعليه أن يعتمد عن غرور « أنصاف » العلماء الذين يظنون

(١) كذا نقله المنذرى في الترغيب والترهيب: ١ ، ٦٠ والهيتمي في مجمع الزوائد : ١٦٤٤
 والحديث أخرجه الطبراني في الكبير
 (٢) الآية وردت في سورة المائدة ٧٨ ، ٧٩

انهم علموا كل شيء ، فليست هذه الصفة الا لله وحده (ان الله بكل شيء عليم (١) .

وفي ذلك آيات من القرآن الكريم :

« وما آوتيتم من العلم الا قليلا (٢) » .

« وقل رب زدني علما (٣) » .

« وفوق كل ذي علم عليم (٤) » .

تاسعا - مدلول العلم .

ويلاحظ من نصوص القرآن الكريم واكثر نصوص الاحاديث التي اوردناها ان لفظ «معلم» مطلق غير مقيد بعلم معين ، اللهم الا ان يكون علما ضارا بالامة ، فهذا هو وحده الذي تحرمه مبادئ الشريعة حيث يمنع كل ما يضر بالمجتمع ويؤذيه .

ومن هنا يتفق العلماء على تحريم تعلم « السحر والشعوذة والحيل والرمل وامثالها » .

وقد قال بعضهم بوجوب تعلمها اذا كان يراد بذلك تخطيط الامة من الدجالين بكشف حيلهم وتفريدهم بالسدج من الناس (٥) .

وقد خص بعض المتأخرين تلك النصوص الحاثية على طلب العلم أو المشيدة بفضله ، بعلم « التصوف » من حيث ايساله الى خشية الله ومشاهدة جلاله وعظمته ، وخصها بعضهم بعلم « الفقه » من حيث يعرف الناس الحلال والحرام ، ويستدلون لذلك بقوله صلى الله عليه وسلم « من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين » (٦) .

والصحيح شمول مدلول العلم لكل علم نافع مقيد للامة في شئون الدين والدنيا لما سيأتي معنا في بيان تقسيم العلم الى ما هو فرض عين وفرض كفاية ، أما الحديث المذكور فتخصيصه بعلم الفقه خطأ ، اذ المراد بالفقه الوارد فيه « يفقهه » هو الفهم والمعرفة بالدين ، لان اطلاق «الفقه» على احكام الحلال والحرام فقط اصلاح متأخر عن عصر التشريع وبذلك كان الصحيح في فهم الحديث ما فهمه المحققون من العلماء من انه يشمل كل ما جاءت به الشريعة من مبادئ وعقائد ، واحكام وآداب ، وتربيته وترهيب ، وغيرها .

وهذا لا يمنع ان يكون العلم بالحلال والحرام اشرف العلوم التي رغبت فيها الشريعة لاتصاله بتصحيح العبادات والمعاملات ، مما يؤدي الى الاستقامة في الحياة الدنيا ، والنجاة في الآخرة ، وهذا ما لا نزاع فيه .

(٢) الاسراء : ٨٥ .

(٣) يوسف : ٧٦ .

(٤) رواه البخاري ومسلم .

(١) المجادلة : ٧ .

(٢) طه : ١١٤ .

(٣) ابن ماجة : ٣٦١ .

عاشرا : أقسام العلم :

يجمع علماء الشريعة على أن العلم المطلوب في الشرع هو نوعان .

١ - ما هو فرض عين :

أي ما يطلب تعلمه وجوبا من كل فرد مكلف ولا يعذر أحد في الجهل به ، وهو ما يحتاج اليه الإنسان في إقامة دينه وقبول عمله عند الله تعالى ، واستقامة معاملته ومعاشرته للناس ، يدخل تحت ذلك كله تعلم أحكام الصلوات ، وتعلم أحكام المعاملات لمن يمارسها ، وكذا أهل الحرف (المهن) وقالوا : أن كل من اشتغل بشيء يفرض عليه علمه وحكمه ليمتنع عن الحسرام فيه (١) .

٢ - ما هو فرض كفاية :

وهو كل ما يحتاج المجتمع اليه من غير نظر الى شخص بذاته ، كتعلم الصناعات التي يحتاج اليها الناس ، وتعلم المهن التي لا بد للناس منها من خياطة وحياكة وغيرها على قدر ما يحتاجون اليه فان لم يكن فيهم من يتعلم كانوا آمنين جميعا .

قال ابن أمير الحاج في شرح التحرير في تعريف فرض الكفاية : هو المتحتم المقصود حصوله من غير نظر بالذات التي فاعله فيتناول ما هو ديني كصلاة الجنازة ، وديوي كالصنائع المحتاج اليها (٢) .

وقال الغزالي : أما فرض الكفاية فهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب إذا هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان ، والحساب فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواثيق وغيرها ، وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عن يقوم بها ، خرج (أثم) أهل البلد ، وإذا قام بها واحد كفى ، وسقط الفرض عن الآخرين فلا يتعجب من قولنا أن الطب والحساب من فروض الكفايات ، فإن أصول الصناعات أيضا من فروض الكفايات كالزراعة والحياكة والسياسة ، بل والحجامة والخياطة (٣) .

وقال ابن عابدين : وأما فرض الكفاية من العلم فهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب والحساب واللفة . وأصول الصناعات كالزراعة والحياكة « النسيج » والسياسة والحجامة (٤) .

وبلاحظ من هذه النصوص التي نقلناها أن القاعدة في العلوم التي هي فرض كفاية هي كل ما يحتاج اليه في شؤون المجتمع من تجارة وطب واقتصاد وهندسة وكيمياء وفيزياء وكهرباء ، وكذا صناعة الأسلحة والذخائر وجميع أنواع الصناعات ، وما اقتضوا عليه من ذكر الحياكة والطب والزراعة والحساب ، فإنما هو للتمثيل بالنسبة لما كانوا يحتاجون اليه في عصورهم ، وقد وجدت حاجات علوم كثيرة في عصرنا هذا فتعتبر من فروض الكفاية . وكذا كل ما يجد في المستقبل من الحاجة

(٢) التقرير شرح التحرير : ١٣٥-٢

(١) ابن عابدين : ٢٩-١

(٣) الاحية : ١ - ١٩

(٤) رد المحتار : ١٩٠-١ والمراد بالحجامة عندهم قديما ما يقابل الطب الجراحي في عصرنا

الى علوم اخرى فانها تعتبر من فروض الكفاية بحيث يجب على الامة ان يكون فيها من العلماء بتلك العلوم ما يكفي لخصول الامة على تمسار تلك العلوم . فلو كانت تحتاج في علم من العلوم الى مائة عالم مثلا ، ولم يكن فيها الا خمسون عالما ، تكون الامة آثمة حتى يوجد العدد الباقي اللازم من العلماء .

العلم المندوب والمباح . .

وما عدا هذين النوعين من العلم فهو مندوب أو مباح كتعلم ما زاد عن الفرض العين من شئون الدين ، أو تعلم ما قام به غيره من فروض الكفاية ، فان ذلك مندوب ، وكالتوسع في الثقافة في مختلف العلوم فانه مباح ، واذا اقترنت به نية التقرب الى الله أو خدمة المجتمع فهو مندوب .

أيهما أفضل ؟

وقد اختلف العلماء في أيهما أفضل ؟ تعلم فرض العين ؟ أم تعلم فرض الكفاية ؟ والجمهور على ان تعلم ما هو فرض عين أفضل ، لان فيه القيام بفرض متحتم عليه لايجزى ان يقوم به غيره عنه .

وقال بعض المحققين : ان تعلم ما هو فرض كفاية أفضل ، لانه يكون سببا في اسقاط الائم عن جميع الناس ، ومن تعلم ما هو فرض عين فقد سقط عنه الائم وحده (٢) .

النتيجة :

من هذه المقدمات التي ذكرناها يتبين لنا ان العلم في اشتراكية الاسلام هو شرف وواجب وحق :

العلم شرف :

اما انه شرف فلما ذكرناه من النصوص التي تشيد بفضل العلم وترفع من مكانة العلماء ، والشرف كل الشرف هو ما جعله الله شرفا ونوه بقدره في كتابه ، وجعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فضلا يحث عليه في سنته .

وقد فرع الفقهاء على هذا فروعا كثيرة نذكر منها :

- ١ - قولهم في بحث الكفاءة بين الزوجين : ان العلم والقضاء ارفع الحشرف (١) .
- ٢ - وقول من اشترط الكفاءة في النسب بين الزوجين : ان شرف العلم فوق شرف النسب فالعالم كفؤ لمن هو اعلى منه نسبا (٢) .

(١) جمع الجوامع : ٦ - ١٨٥

(٢) حاشية القليوبي على التهاج : ٣-٢٣٦ (٢) ابن عابدين : ٢-٣٤٢

٣- وقول من اشترط الكفاءة في المال بين الزوجين : ان العالم
المفقر كفؤ لبنت الفنى أو الغنيمة (١) .

٤ - وقول من اشترط الكفاءة في الحرفة بين الزوجين : ان شرف
العلم يجبر نقص الحرفة بل يفوق سائر الحرف ، فالتاجر الفنى ليس
كفؤا لبنت العالم أو القاضى (٢) .

٥ - قولهم بان القرشى الجاهل لا يجوز أن يتقدم على العالم « غير
القرشى » لان كتب العلماء طافحة بتقدم العالم على القرشى ولم يفرق
سبحانه بين القرشى وغيره في قوله : « هل يستوى الذين يعلمون والذين
لا يعلمون (٣) » .

٦ - قولهم ان من تعلم الصلاة ليعلم الناس احكامها افضل ممن
تعلمها ليعمل بها (٤) .

٧ - قولهم ان طلب العلم والفقہ اذا صحت النية افضل من جميع
اممال البر (٥) .

٨ - قولهم ان تعلم العلم المفروض الولي من تعلم آى القرآن
(٦) .

العلم واجب :

وأما انه واجب فقد ذكرنا ان من العلم ما هو فرض عين « وهذا
واجب على كل مكلف ومنه ما هو فرض كفاية وهو واجب على جميع
الكافئين لا فردا بذاته » فكل مكلف لا يخلو من ان يجب عليه ان يعلم
اشياء من الدين أو الدنيا ، أو ان يجب عليه - بوصفه عضواً في المجتمع
- ان يتعلم ما يحتاج اليه المجتمع بحيث يتمكن من القيام بما فرض
على المجتمع تعلمه .

المسلم حق -

إذا كان الاسلام يفرض على العالم ان يعلم ، وعلى الجاهل ان يتعلم .
كما قدمنا آنفاً - كان من الواجب على الانسان أن يسعى لتحصيل العلم
وعلى الدولة والمجتمع أن ييسرا له الوصول الى هذا الحق ، وبهذا
يكون « حق العلم » من الحقوق الطبيعية في اشتراكية الاسلام .

ونحن نجد في الفقه الاسلامي كثيرا من الاحكام التي تنبئ على هذا
الحق ، نذكر امثلة لها فيما يلي :

(١) ابن عابدين : ٢ - ٢٢٢

(٢) المصدر السابق نقل عن الفتاوى

(٣) المصدر السابق نقل عن الفتاوى

(٤) ابن عابدين : ٥ - ٢٦١

(٥) المصدر السابق

(٦) الغزالي في الاحياء

٩ - للابن أن يخرج لطلب العلم المفروض ولو من غير اذن والديه كما يخرج للجهاد المفروض من غير اذنهما كذلك ، بشرط ألا يتعرضا للفاقة أو الضياع بخروجه .

١٠ - وللزوجة أن تخرج بغير اذن زوجها إذا أبى زوجها أن يعلمها ما افترض الشارع عليهما من علم .

١١ - وللقريب أن يفعل مثل ذلك بنون اذن السيد في مثل تلك الحالة .

١٢ - ونفقة طالب العلم واجبة على أبيه أو سر - ولو كان الطالب قادرا على الكسب - كنفقة اللباس والطعام والسكنى وغير ذلك بالنسبة للأولاد الصغار .

١٣ - وكتب العلم لأصحابها من طلاب وعلماء هي من الحوائج الضرورية كالدار والطعام واللباس والثالث البيت وآلة العمل ، فلا تدخل قيمتها في تصانيف الزكاة الواجبة .

١٤ - وكذلك لا تعتبر قيمتها - ولو بلغت الآلاف - بحيث يعتبر صاحبها ممن يجوز له أخذ الزكاة .

١٥ - ولا تلزمه صدقة الفطر إذا كان لا يملك غير كتبه مهما بلغت قيمتها .

١٦ - ولا يلزمه بيعها لاداء فريضة الحج إذا كان لا يملك من المال ما يكفي لنفقات الحج .

١٧ - وإذا لزمه الدين وحكم بإفلاسه ما ترك للمال كتب العلم . (١)

قال العزالي رحمه الله في حكم كتب العلم : وحكم الكتاب حكم الثوب واثالث البيت فإنه يحتاج إليه ، ثم فصل القول في ذلك فقرر أن الكتاب الذي يلزم للعالم للتدريس سواء للاكتساب أو لتعليم ماله فرض كفاية فهو من الحوائج الأصلية التي لا يستغنى عنها (٢) .

وقال ابن عبيدين رحمه الله في بيان أن كتب العلم للعالم من الحوائج الأصلية : لأن الجهل عندهم - أي العلماء - كالهلاك (٣) .

العلم حق للجميع

وغنى عن البيان أن الإسلام يجعل حق العلم ثابتا للجميع بلا استثناء بين الرجل والمرأة ، أو بين الفنى والفقر ، أو بين ابن الأمير وابن العامل أو بين ابن المدينة وابن القرية فلكل يشتركون في هذا الحق .

(١) الأشياء والنظائر للشيخ محمد بن عبد الله بن تيمية ٢٧٥ وفي هذا النوع انظر خلاف للجهاد العظمى .

(٢) انظر الإحياء ١ - ٢٢١ . (٣) رد المحتار ٢٣٢ .

أثر هذا الحق في البيئة الإسلامية :

وقد كان لتقرير الاسلام في هذا الحق الثابت لجميع الناس آثار بعيدة في المجتمع الاسلامي ، نذكر منها :

١ - ان العلم كان يشمل جميع الفئات ، حيث كان يبدأ من الفرد ثم يعم الأسرة ، فقد جاء في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته .. والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته (١) » الخ .

ومسئولية الرجل عن أهله تشمل تأديب أولاده وتعليم زوجته ، وهدايتهم الى سبل الخير والصلاح .
قال على رضى الله عنه في تفسير قوله تعالى « قوا انفسكم وإلهيكم نارا » علموا أهليكم الخير (٢) .

٢ - ان العلم كان مشاعا في المجتمع ميسرا لكل انسان : في المسجد وفي المدرسة ، وفي الحلقات العلمية ، وفي المكتبات العامة ، فلم يعرف المجتمع الاسلامي « ارسقراطية » العلم ، أو انحصاره في فئة معينة ، كما كان محصورا في رجال الدين عند أكثر الأمم القديمة وخاصة عند الغربيين حتى عصر النهضة .

٣ - وبذلك سارت الحضارة والعلم مع الدين جنبا الى جنب في تاريخ الحضارة الاسلامية ، حتى اعترف بعض مؤرخي الغرب بأن مدينة قرطبة في ابان ازدهارها كانت تحتوى على مليوني نسمة ليس فيهم أمي واحد (٣) .

٤ - وبعد افول شمس الحضارة الاسلامية ، لم تقف حركة العلم ، بل استمرت - ولو في نطاق ضيق - حتى عصر نهضتنا الحاضرة ، ونعني بذلك استمرار اقبال الناس على العلوم الشرعية خاصة من تفسير وحديث وفقه وأصول عقيدة وغيرها ، وعلى العلوم الادبية كاللغة والأدب والتاريخ وسواها ، وبعض العلوم الرياضية كالحساب والفلك والهندسة .

لقد استمرت المساجد والمدارس والمكتبات تؤدي رسالتها في نشر هذه العلوم . ونشير هنا بصورة خاصة الى علم الفقه . فالعقل الاسلامي رغم ركوده بعد عصور الحضارة الاسلامية الزاهرة لم ينقطع عن التفكير في التشريع ، في ائمة بيئة اسلامية كانت ، سواء في العواصم أو القرى ، وسواء في مراكز الحضارة أو الأماكن النائية ، كاليمن أو نجد أو حضرموت أو اواسط افريقيا ، لم تنقطع أبدا حركة التأليف في الفقه على مختلف المذاهب ، وبذلك أصبح الفقه الاسلامي ثروة نامية لامثيل لها في أمة من أمم العالم .

ومن هنا نلمس مكانة العلم في اشتراكية الاسلام وضرورته وأثره في تحقيقها حتى في عصور التخلف والانحطاط .

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما . (٢) رواه الحاكم .

(٣) انظر ذلك موسما في كتابنا « مدن واثق حضارتنا » .

حق الكرامة

يقول الله تعالى : « ولقد كرّمنا بنى آدم وجعلناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا (١) » .

هذه الآية نص صريح فى أن الإنسان الكرم من كل شيء على ظهر الأرض ؛ وأن الكرامة حق لكل انسان ، وأن كرامته ملازمة لانسانيته فاذا حرم هذه الكرامة لم يكن المجتمع الذى يعيش فيه مجتمعا متماسكا سعيدا .

وللكرامة مظاهر متعددة ، تتحقق بمجموعها الكرامة الكاملة ، وإذا فقد مظهر منها كانت كرامة الانسان مثلومة ، وكانت سعادته مشوهة بتراءء .

ونذكر فيما يلى أهم مظاهر الكرامة :

١ - كرامة الاخاء الانسانى

« الانسان أخ للانسان » هذا أول مظهر من مظاهر الكرامة ، وذلك واضح من نص الآية التى صدرنا بها هذا البحث ، فإن الكرامة فيها تثبت « لبنى آدم » بـ « بلى بقطع النظر عن ألوانهم وأصولهم ولغاتهم وأديانهم » .

قال الألوسى رحمه الله فى تفسير هذه الآية : « أى جعلناهم قاطبة برهم وفاجرهم ذوى كرم أى شرف ومحاسن (٢) ونرى أن لفظ «كرّمنا» من الكرامة لا من الكرم » .

وانك لترى هذا المعنى يتكرر كثيرا فى القرآن الكريم ، اذ جاء الخطاب فيه للناس مصدرا بقوله : « يا بنى آدم » « يا ايها الناس » مما يشهر بتساوى الناس جميعا فى هذه الأخوة (الانسانية) .

ويقول تعالى « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » (٣) .

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام فى خطبته الخالدة فى حجة الوداع : « يا ايها الناس ان ربكم واحد ، وأن اباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم بـ تراب » (٤) .

فليس فى الاسلام انسان ابيض لاكرم من انسان اسود ، ولا فيه انسان من قبيلة اكرم من انسان من قبيلة اخرى ، ولا فيه انسان غريب اكرم من انسان شرقى ، كما تنادى بذلك الحضارة الغربية فى اعمال دولها الاستعمارية .

(٢) روح المعاني : ١٥-١٧٧

(٤) روه البزدر

(١) الامراء : ٧٠

(٣) المجرات : ١٣

ب - كرامة المساواة الحقوقية :

الناس قد يتميز بعضهم عن بعض بالذكاء أو المواهب ، أوفى العمل والإنتاج ، أو في النفع العام للمجتمع ، وهذا هو معنى قوله تعالى : «وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم (١) » .

ولكن هذا التفاوت سبيل للتفاضل عند الله تعالى ، كما قال « إن أكرمكم عند الله أتقاكم (٢) » وفي تقدير المجتمع تقديرا أدبيا كريما ، وفي مطالبة أصحاب المواهب بأن يستعملوها في خدمة أمتهم ومصلحتها ، وهذا هو معنى قوله تعالى في الآية السابقة « ليلوكنكم فيما آتاكم » .

أما بالنسبة إلى الحقوق والواجبات ، فالناس جميعا متساوون فيها ، فكل حق يقابله واجب وكل فئة من الناس لها حقوق وعليها واجبات ، لا يستثنى واحد منها من الآخرين بميزة في حق أو في إسقاط واجب ، فالعالم إذا قتل جاهلا يقتل به ولا عبرة بامتيازته عليه بالعلم ، والجاهل إذا قتل عالما يقتل به وحده ولا يؤخذ معه غيره والمبدأ في ذلك «أنفس بالنفس» (٣) فلا نظر هنا حين تنفيذ القانون إلا إلى نفس قتلت نفسا ، وإن كانت النفسان متفاوتتين في نفع المجتمع وإفادة الناس .

وقد قرر الفقهاء أنه يجري على الإنعام الأعظم (الخليفة) من الأحكام والأنظمة العامة ما يجري على سائر الناس ، إلا ما تقتضى مصلحة المجتمع وأمنه وسلامة الدولة وكيانها (٤) .

والخلاصة أن الإسلام وفق بين واقع الحياة الذي لا بد منه ، وبين مبادئه الاشتراكية .

فهذا التفاوت في المواهب والكفاءات والطبائع والإمكانات هو سنة من سنن الحياة في عمران الكون ، به يخدم الناس بعضهم بعضا ، كل فيما يستطيعه ويحسنه ، فابن المدينة مسخر لابن القرية في جلب ما يحتاج إليه من سلع وحاجيات ، وابن القرية مسخر لابن المدينة في إنتاج ما يحتاج إليه من المنتجات الغذائية ، والاب مسخر لولاده يطعمهم ويربهم ، والأبناء مسخرون لأبائهم يعينونهم عند الشيخوخة وينفقون عليهم عند الفقر والحاجة . وهكذا شأن الناس بعضهم مع بعض في واقع الحياة ، وبذلك تعلقت الآية الكريمة : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا (٥) » فهو تفضيل كفاءات ومواهب ، لا تفضيل امتيازات واستثناءات ، وتسخير مصلحة ومنفعة ، لا تسخير ذلة وعبودية .

والتساوى في الحقوق والواجبات مما لا يقوم مجتمع كريم سعيد إلا على أساسه ، حتى لا يؤدي تفاوت الناس في المواهب والكفاءات التي استعباد فريق لفريق ، وأنفراد فريق قليل بالقوائم والزام الجمهور بالمفساروم .

(١) - الإنعام : ١٦٥

(٢) - الحجرات : (٣)

(٣) - المائدة : ٤٨

(٤) - الأنعام : ١٦٥

(٥) - الزخرف : ٣٢

بهذا ضمن الاسلام تعاون المجتمع مع تعدد فئاته ، وتفاوت احوال
 ابناءه ، وتساويهم جميعا في الواجبات الاجتماعية والكرامة الانسانية ،
 فليس في الاسلام رجال دين لا يخضعون للقانون ، وليس فيه اشراف
 لا يؤدون عملا ، وليس فيه لمرء لا تطولهم سلطة الدولة ، وليس فيه
 اغنياء لا يدفعون ضريبة ولا يبذلون جهدا ، وليس فيه اذكاء يدعون
 لهم حقا في استغلال « البلاد » ! بل الكل شعب واحد وقانون واحد
 رئيس يخدم الشعب ، وشعب يؤازر رئيسه ويطيعه ، وشعار الحكم
 فيه ما اعلنه ابو بكر رضي الله عنه يوم ولي الخلافة « انا وليت
 عليكم ولست بخيركم ، القوى فيكم ضعيف عندي حتى اخذ منه الحق ،
 والضعيف فيكم قوى عندي حتى اخذ له الحق » .

ج - كرامة العدالة القضائية :

ان النص على كرامة المساواة الحقوقية لا يحقق للانسان تمتعه بتلك
 الكرامة حتى يضمن له القضاء تنفيذه ، وهنا يأتي دور القضاء بمد
 دور التشريع ، ولا يتمكن القضاء من القيام بواجبه هذا حتى يحقق
 العدالة لكل مواطن في الأمور التالية :

أولا - أن يستمع الى شكوى المواطنين من عدم تحقق كرامة المساواة
 في الحقوق بينهم وبين ذوى الجاه والنفوذ من اغنياء وأقرباء ، فيستمع
 الى الشكوى ويطلب الى هؤلاء حضورهم الى مجلس القضاء ، فبان
 لم يستمع الى الشكوى رغبة أو رهبة . فهدت كرامة المساواة التي أقرها
 القانون مهزلة من عوامل اضطراب المجتمع .

ثانيا - أن يتمتع المواطن بالعدالة في الإجراءات القضائية ، فيسوى
 بينه وبين خصمه في طريقة استدعاء الطرفين والاستماع اليهما ، وتمكينهما
 من ابداء الراى بحرية تامة من غير تمييز بين الفقير والغنى ، أو بين
 الضعيف والقوى ، أو بين المغمور وذى الجاه والنفوذ .

ثالثا - أن يحكم بما نص عليه القانون من كرامة المساواة
 الحقوقية بكل جراءة وعدالة ، فلا يفرق القاضى بين بعيد عنه وبين قريب
 منه ، ولا بين حاكم يخشى غضبه وبين رجل من عامة الناس .

بهذه الأمور الثلاثة تتحقق عدالة القضاء ، فتتحقق كرامة المساواة
 وبذلك يسعد المجتمع وتقوم فيه الاشتراكية التي ينشأى بها
 الإسلام .

وقد جاءت نصوص الشريعة واضحة صريحة في ضرورة تحقيق
 هذه الأمور :

قال الله تعالى : « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها
 وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل (١) » .
 وقال : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو
 على أنفسكم أو الوالدين والأقربين (٢) » .

وقال : « ولا يجرمكم شتان (عداة) قوم الا تعدلوا ، اعدلوا هو اقرب للتقوى » (١) .

وقال : « فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد يمانسوا يوم الحساب » (٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم « ايها الناس ! اتماهلك الدين من قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف اقاموا عليه الحد وايم الله لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » (٣) .

وقال ايضا « القضاة ثلاثة : واحد في الجنة واثنان في النار ، فاما الذي في الجنة فرجل عرف الحق ف قضى به ، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار ، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار » (٤) .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول « ما من امير امر امرا او استقضى قاضيا محاباة الا كان عليه نصيب ما اكتسب من الالم » (٥) .

وجاء في كتابه الى ابي موسى - وهو الكتاب المشهور بين العلماء والذي وضع فيه عمر رضى الله عنه أسس القضاء في الاسلام - قوله :

فافهم اذا ادلى اليك فانه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له - وهذا تحريض منه على العلم بالحق والقوة على تنفيذه .

اعدل بين الناس في مجلسك وفي وجهك وقضائك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا يياس ضعيف من عدلك .

واياك والفضب والقلق والضجر والتأذى بالناس والتنكر عند الخصومة (٦) .

قال ابن القيم رحمه الله في شرح هذا الموضع من الكتاب :

« اذا عدل الحاكم في هذا بين الخصمين فهو عنوان عدله في الحكم . فمتى خص أحد الخصمين بالدخول عليه أو القيام له أو بصدد المجلس والاقبال عليه والبشاشة له والنظر اليه كان عنوان حيفه وظلمه . . وفي تخصيص أحد الخصمين بمجلس أو اقبال أو اكرام مفسدتان : احدهما ظمعه في أن تكون الحكومة له فيقوى قلبه وجنانه ، والثانية ان الآخر يياس من عدله ويضعف قلبه وتكثر حجتة (٧) » واية كرامة لياس ضعيف لا يستطيع الابانة عن حقه ؟

(٢) سورة ص : ٢٦

(١) المائة : ٨

(٣) رواه البخارى ومسلم واصحاب السنن الاربعة .

(٤) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه .

(٥) تاريخ القضاء والقضاة في الاسلام للشيخ محمود عرنوس .

(٦) انظر كاملا في اعلام الموقعين : ١-٦١

(٧) المصدر السابق : ٦٥-٦١

وهكذا تحرص اشتراكية الاسلام على تحقيق الكرامة في ميدان القضاء بتحقيق العدالة في القضاء ومراحلته .
وفي تاريخ القضاء في الاسلام صفحات مشرقة في تحقيق العدالة بين المتخاصمين ، وخاصة اذا كان المدعى عليه امير المؤمنين او وزيراً خطيراً أو منفذاً شريراً ، مما تميز به القضاء الاسلامي عن تاريخ القضاء في جميع الأمم قديمها وحديثها .

د - كرامة العدالة الاجتماعية :

لا كرامة للجائع ولا للمريض ولا للفقير في مجتمع تطفئ فيه القسوة والآثرة والاهمال على الرحمة والآثار والعناية بأولئك البؤساء من أبناء المجتمع .
ومن هنا يأتي دور التكافل الاجتماعي في تحقيق العدالة الاجتماعية للفئات التي تجعلها ظروف الحياة في اوضاع تعجز فيها عن العيش بمظهر كريم يحفظ لها انسانيتها الكريمة بلا مهانة ولا تعاسة ولا شقاء .
وقد اهتم الاسلام بتحقيق هذا المظهر من مظاهر الكرامة بما سنذكره في الأبحاث التالية من مبادئ التملك وقوانين التكافل الاجتماعي في اشتراكية الاسلام .

هـ - كرامة المنزلة الاجتماعية :

وهذه من مظاهر الكرامة الانسانية الحقيقية ، وهي أن يعيش الانسان في مجتمعه موفور الحزمة ، مصون المنزلة ، ولهذه الكرامة مظهران ايجابى وسلبى .

اما المظهر الإيجابى ففي مشاركته في افراحه وإفراحه : ومعونته في مشاكله الخاصة ، واحترامه في جواره وصدائقه ، وحفظه في حضوره وغيبته ، ومن ذلك : السلام عليه عند اللقاء ، وعيادته عند المرض ، ومواساته في حزنه على فقد قريب أو صديق ، وإبرار قسمه اذا أقسم واجابته اذا دعا ، ونصحه اذا زل أو أخطأ ، والاشارة عليه بالخير اذا استشار ، ونصرته اذا ظلم أو أعتدى عليه .

واما المظهر السلبى ففي البعد عن ابدائه بالقول والخطاب واليد والمعاملة ، وفي اجتناب التحدث عنه بما يكره في غيابه ، والسعى بينه وبين الناس بالنميمة والكذب ، وعدم الازدراء به واحتقاره وانتقاصه حقه من التقدير والاحترام .

وقد حرص الاسلام على توفير هذه الكرامة في نصوص كثيرة جدامن القرآن والسنة لم تترك خلقاً جميلاً مما تتحقق به كرامة الفرد في المجتمع الا حثت عليه ، وكررت النهى عن الاساءة اليه بمختلف مظاهر الاساءة .

ونكتفي هنا بإيراد النص الذى يضع المبدأ العام في كرامة المنزلة الاجتماعية بمظهرها الإيجابى .
قال صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب ل أخيه ما يحب لنفسه (١) » .

وبنصين آخرين يحتويان على النهي عما يهدر كرامة المنزل الاجتماعية من الجانب السلبي .

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يستخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تملزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاتسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون ، يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن أن بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله أن الله تواب رحيم . يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وإنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا أن اكرمكم عند الله اتقاكم أن الله عليم خبير (١) » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الا أخبركم بالمؤمن ؟ المؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم ، والمؤمن من سلم المسلمون من لسانه ويده (٢) » .

وليس لفظ « المسلمون » في هذا الحديث قيذا لباحة الاعتداء على غير المسلم ، بل هو خارج مخرج العادة في حديث النبي صلى الله عليه وسلم إلى صحابته ، بدليل الشطر الاول من الحديث من لفظ « الناس » ومن الجدير بالذكر ان اشتراكية الإسلام تثبت هذه الكرامة للانسان بعد موته كما تثبت لها حال حياته .

فقد اتفق الفقهاء على حرمة اغتيا ب الميت بقصد الاساءة . عملا بقوله صلى الله عليه وسلم « اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساوئهم (٣) » .

واتفقوا على حرمة نبش قبره أو التمثيل به أو قطع جزء من أعضائه ، مع أنه فارق الحياة فلا يشعر بالألم وما ذلك إلا للقاعدة الشرعية « حرمة الانسان ميتا كحرمة حيا » .

وقسمل الميت وتكفينه والصلاة عليه ودفنه في قبره ، كل ذلك من مظاهر التكريم للانسان بعد وفاته كما لا يخفى .

(و) كرامة السمعة العائلية :

وهذه من أبرز مظاهر الكرامة في جميع الشرائع والعادات ، وتتجلى هذه الكرامة في مظهرين :

١ - في سمعة الانسان في أسرته . وذلك بتحريم الزنى تحريما شديدا وعقوبته البالغة في العذاب والنتكال .

٢ - في سمعة الانسان نفسه ، وذلك بتحريم اتهام انسان بالزنى سواء كان رجلا أو امرأة وقد وضع الشارع لذلك عقوبة الجلد حتى

(١) الحجرات : ١٢-١٣

(٢) أخرجه الطبراني والحاكم وابن ماجه

(٣) رواه ابو حنيفة والترمذي والحاكم

وعمرهم .

يأتى القاذف بأربعة شهداء يشهدون بارتكابه تلك الجريمة ، وهيئات
وفى ذلك جاء القرآن الكريم : « والذين يرمون المحصنات ثم لم
يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً
وأولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله
غفور رحيم (١) » .

« أن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الدين آمنوا لهم عذاب اليم
فى الدنيا والآخرة والله يعلم ولتتم لا تعلمون (٢) » .

« أن الذين يرمون المحصنات الفاضلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا
والآخرة ولهم عذاب عظيم (٣) » .

حق التملك

حين يقرر الاسلام لكل انسان حق الحياة وحق الحرية وحق العلم وحق الكرامة ، وحين يقرر مع هذا أن ما في الكون مسخر للناس جميعا « الله سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلمكم تشكرون » ، وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه (١) » حين يقرر الاسلام هذا كله انما يقرر حقا خامسا لكل انسان وهو حق التملك ، ففي جو الحياة الحرة العالة الكريمة يندفع الناس الى العمل ليكسبوا ما به قوام حياتهم ومعيشتهم ، لا يوصد باب العمل دون واحد منهم . ولا تستأثر بخرات الدنيا فئة منهم ، لكل انسان من الدنيا بحسب طاقته وجهده ، وكفأته « وان ليس للانسان الا ما سعى (٢) » فاذا حاز شيئا منها كانت هذه الحيازة حقا لا ينازع فيه ولا يقلب عليه .

القوانين المنظمة لهذه الحقوق :

وحين تقرر اشتراكية الاسلام هذه الحقوق الطبيعية الخمسة لكل انسان ، تشرع له القوانين التي تنظم كل حق من هذه الحقوق وتضمن تأمينها لكل انسان على اكمل وجه وأتمه ، ومن هنا جاء في الاسلام القانون الجنائي والقانون الصحي لتنظيم حق الحياة ، وقوانين الحكم والتوجيه الاجتماعي والقانون الدولي لتنظيم حق الحرية ، وقوانين التعليم والتربية لتنظيم حق العلم ، وقوانين متعددة لتنظيم حق الكرامة وقوانين المعاملات من بيع ورهن وإيجار وغير ذلك لتنظيم حق التملك ، كما شرعت العقوبات المتنوعة لكل من يعتدى على حق من هذه الحقوق ، والمراد بالقانون مجموعة الاحكام المتعلقة بموضوع واحد (٣) .

وكان من المناسب أن أعرض في هذا البحث قوانين التملك ، الا أن عرض هذه القوانين يحتاج الى مجلدات ضخمة لانها تشمل كل احكام المعاملات في الفقه الاسلامي ، وهذه الاحكام تكاد تبلغ تسعة أعشار الفقه ، ولعل بعض فقهاء الشريعة ممن تمكنهم حالتهم الصحية ويمد الله في حياتهم أن ينهضوا بعبء اخراج هذه القوانين بأسلوب سهل يفهمه جمهور المثقفين ، انتهت بها سلسلة قوانين الاشتراكية الاسلامية وسأكتفي الان بالإشارة الى المبادئ التي تقوم عليها قوانين التملك في اشتراكية الاسلام لان ذلك أمس بالموضوع الذي نتحدث عنه .

(٢) النجم : ٣٩

(١) الجانية : ١٣-١٢

(٣) استعمله فقهاؤنا الإقنونيون بهذا المعنى، فإن جزى الف كتابا في الاحكام الفقهية على مذهب مالك باسم « الواوئين الفقهية » وكذلك استعمله القاضي أبو يعلى في كتابه « الاحكام السلطانية » انظر ص : ٢١ ، ٣٢ . وكذلك استعمله الغزالي في احيا علوم الدين .

مبادىء التملّك

١ - الكون كله لله :

قال تعالى : « لله ملك السموات والارض (١) » « لله ما في السموات وما في الارض (٢) » وهكذا تتوارد نصوص القرآن على ان كل ما في الكون من اموال ومنافع وارض وبحار وشمس وقمر وأقمار ملك لله لا ينازعه فيه أحد ، وليست لهذه الملكية نتائج حقوقية ، وانما هي لتحقيق غرضين ضروريين في هذا الصدد :

اولهما : نفى الفرور عن قلوب الناس حين يحوزن الاموال ويسعون وراء الثروة ، والفرور مبدأ ضرور الحياة في المجتمع ، فاذا تذكر المؤمن دائما ان مالك الملك هو الله وحده تطامنت نفسه وقل غروره .
ثانيهما : ان يلزم الناس بالتقيد بقوانين الشريعة في التملك طبقا لما يريد صاحب الملك وهو الله عز وجل .

٢ - الكون مسخر للانسان :

قال تعالى : « وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره ، وسخر لكم الانهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار (٣) » « سخر لكم ما في الارض (٤) » « وسخر لكم ما في السموات (٥) » قال علماء اللغة : « السخرة ماسخرت من خادم اودابة بلا اجر ولا ثمن ، وسخرته في العمل استعملته مجانا ، وسخر الله الابل ذلها وسهلها » .

هذا المبدأ - مبدأ تسخير الكون للناس - يؤدي غرضين مهمين ايضا :

اولهما : انه ليس في الكون شيء لا يصعب على الانسان تناوله ، اذا عمل عقله وعلمه . ووجه لذلك همه وارادته ، فما على الانسان بعد ان ذل الله له الكون الا أن يجتهد في الانتفاع منه واستثمار خيراته .

ثانيهما : ان الناس متساوون جميعا في الاستفادة من خيرات الارض والسماء ، مادام الخطاب للناس جميعا ، والله قد بذلها لهم من غير ثمن وذللها لهم من غير تمييز بين فئة وفئة أو أمة وأمة .

٣ - المال وسيلة للخير :

ليس المال غاية في ذاته ، وانما هو وسيلة من وسائل تبادل المنافع وقضاء الحوائج . فمن استعمله في هذا السبيل كان المال في يده خيرا له وللمجتمع ، ومن استعمله على انه غاية والمة ، انقلب الى شهوة يورث صاحبها المهالك ، وتفتح على الناس ابوابا من الفساد .

(٢) البقرة : ٢٨٤

(٤) الحج : ٦٥

(١) الشورى : ٤٩

(٣) ابراهيم : ٣٢ ، ٣٣

(٥) الجاثية : ١٣

وللاشارة الى هذا المبدأ الخطير من مبادئ التملك ، عبر القرآن عن المال بالخير في مثل قوله تعالى . « لتب عليكم - اذا حضر احدكم الموت - ان ترك خيرا الوصيه للوالدين والاقرين بالمعروف » (١) قال المصرون المراد بالخير هنا المال ، وهذا بلا شك تنبيه الى وجوب الحصول على المال من طريق الخير ، واستعماله في طريق الخير ، وبوصفه خيرا رغب الاسلام في تملكه « نعم المال الصالح للرجل الصالح » (٢) « والمال الصالح هو الذى لم يجمع من طريق فيه ظلم ولا خداع ، والرجل الصالح هو الذى ينفق ماله في سبيل الخير والصالح

ويشير القرآن الى ان الناس - في الاكثر الاغلب - ينظرون الى المال على انه شهوة « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة » (٣) وبهذا الوصف يكرهه الاسلام وهو بهذا سبب شقاء الامم والشعوب .

٤ - الفقر مرض اجتماعي :

اذا كانت خيرات الارض في متناول الناس جميعا ، وكان كل انسان قد قدر الله له من خيرات الكون رزقا ونصيبا « وما من ذنبة في الارض الا على الله رزقها » (٤) وكان المال وسيلة الى الخير وتيسيرا لمنافع الناس ، كان من واجب الانسان ان يسعى ليكتسب ويحصل على المال ولا عذر لاحد في ترك العمل بحجة ان الله قد كتب عليه الفقر او انه غير محظوظ او ان ظروف الحياة اقسائية تقف عقبة كاداء في وجهه دون السعى والعمل . فالفقر في الاصل مرض اجتماعي وليس قدرا مقدورا لا حيلة في دفعه بسعى او كسب . لقد امر القرآن بالسعى في الارض « هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » (٥) فلا يكون الفقر بعد ذلك الا لاحد امرين . اما كسل وخمول ، وهذا لا يقره الاسلام . واما لعجز عن العمل . ومثل هذا الفقر هو الذي لا حيلة للانسان في دفعه وهو الذي وضع له الاسلام من قوانين التكافل الاجتماعي ما يدفع يؤسه ، ويحفظ للفقر كرامته .

ومما يدل على نفرة الشريعة من الفقر ، قوله عليه الصلاة والسلام : « كاد الفقر ان يكون كفرا » (٦) « وكان من دعائه عليه السلام . « اللهم اني اعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل واعوذ بك من الفقر والكفر والفسوق ، واعوذ بك من الصمم والبلية والجنون وسوء الاسقام » (٧) وفي دعاء آخر للرسول عليه السلام : « اللهم اني اسالك الهدى والتقى والعفاف والفنى » (٨) وهذا انتقال من موقف السلبية تجاه الفقر الى الايجابية من عكسه وهو الفنى . وان في طلب الرسول للفنى وهو قدوة الزهاد في الدنيا ، دلالة بعيدة الاثر في هذا المقام .

(٢) رواه البخاري في الادب المفرد : ٨٤

(٤) هود : ٦

(٦) رواه ابو نعيم في الحلية

(٨) رواه مسلم والترمذي وابن ماجه

(١) البقرة : ٢٨٠

(٣) آل عمران : ١٤

(٥) الملك : ١٥

(٦) رواه الحاكم والبيهقي

٥ - العمل أهم وسائل التملك :

تملك المال وسائل من أهمها في نظر الإسلام العمل « أظيب الكسب عمل الرجل بيده (١) » ولا يجوز لأحد أن يسأل الناس وهو قادر على الكسب . وبذلك كان العمل في الإسلام شرفاً وواجباً .

٦ - تأميم المواد الضرورية :

ثبت في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الناس شركاء في ثلاث : الماء والكلا والنسار » (٢) وفي حديث آخر « والملح » وبلاحظ أن هذه الأشياء مواد ضرورية لحياة الناس وخاصة سكان الصحراء في تلك العهود ، وليس النص على هذه الأشياء للحصر ، بل قواعد الشريعة تقضي بأن كل ما كان مثل هذه المواد ضرورياً للمجتمع لا يصح أن يترك تملكه لفرد أو أفراد إذا كان يشاعن احتكارهم له استغلال حاجة الجمهور إليه ؛ بل يجب أن تشرف الدولة على استثماره وتوزيعه على الجمهور .

٧ - طرائق التملك :

يسمح الإسلام بالتملك عن طريقين رئيسيين :

(أ) عن طريق الهبة والوصية والارث مما لاسمى للإنسان فيه وهو طريق مشروع للتملك في جميع الشرائع والمذاهب الاقتصادية ماعدا الشيوعية التي كانت تنكر التملك عن طريق الارث ثم عادت فسمحت به (٣)

(ب) عن طريق السمي والاكساب ، والإسلام يسمح بكل طريق يسلكه الإنسان للتملك إلا ما كان من الطرق الناجية :

١ - الظلم ، ولذلك حرم الإسلام الربا والقمار والاحتكار والغصب والسرقة وما أشبه ذلك .

٢ - الفس ، ولذلك حرم الإسلام اختفیر عند البيع ، كما حرم إخفاء العيب في السلعة والكذب في راس المال ، وغير ذلك من اليسوع والعقود المحرمة التي يقع فيها الفتن والخداع .

٣ - الأضرار ، سواء كان أضراراً بالفرد ، أو أضراراً بالمجتمع ، أو أضراراً بكيان الدولة العام ، ولذلك حرم الإسلام أضرار البغي ، والاتجار بالخمر ، والاتجار مع العدو ، وهكذا .

٨ - الحجر على السفهاء :

يحتم الإسلام أن ينفق الإنسان من ماله على نفسه في حدود الاعتدال لا سرف ولا تقتير « وكلاوا واشربوا ولا تسرفوا (٤) » فان سرفاً وأخلت

(٢) رواه أحمد وأبو داود

(١) رواه أحمد والحاكم

(٣) ناقشنا الشيوعية في كتابنا لشرعية الارث في مقدمة الجزء الثاني من كتابنا شرح

(٤) الاعراف : ٣١

مقانون الأحوال الشخصية .

في تبديد ثروته على أهوائه وملذاته بما ينكره الشرع والعقل وجب الحجز عليه لأنه سفيه ، والحجز هو منع الدولة لهذا السفيه أن يتصرف في ماله كالمقلد الراشدين : وإقامة قيم عليه بمنعه من التصرف حتى ينفى إلى رشده (١) وأصل هذا قوله تعالى : « ولا توتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً (٢) ويلاحظ في هذه الآية إضافة أموال السفهاء إلى المجتمع (أموالكم) ثم وصفها بأن المجتمع قيم عليها (التي جعل الله لكم قياماً) وهذا دليل واضح على ما نقرره في المبدأ التالي من أن التملك وظيفة اجتماعية .

٩ - التملك وظيفة اجتماعية :

كما يفرض الإسلام رعاية مصلحة المجتمع عند تملك المال ، يفرض رعاية مصلحة المجتمع أيضاً بعد التملك ، لأن المال لله ، والإنسان مؤتمن عليه « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » (٣) فيد المالك يد استخلاف ، والله جعل المال وسيلة للخير . فلا يصح أن يستعمل إلا في الخير أي مصلحة المجتمع ، وبذلك تكون الملكية الشخصية - في نظر الإسلام - وظيفة اجتماعية .

١٠ - كراهية تكديس الثروات :

يكره الإسلام تكديس الثروات في أيدي قليلة في المجتمع لما يؤدي إليه ذلك من ترف وفساد واستغلال ، يقول الله تعالى في وجوب إعطاء الفقراء نصيباً من الثنائم « كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم (٤) » .

ولما جرى الخلاف بين الصحابة في تقسيم أراض العراق والشام على الفاتحين في عهد عمر . كان رأيه عدم تقسيمها . وإبقائها في أيدي المغلوبين على أن يكون عليهم خراجها . ووافق على ذلك بعض الصحابة ومنهم معاذ بن جبل الذي قال لعمر « أنك أن قسمتها صار الربع العظيم في أيدي هؤلاء القوم ، ثم يبيدون فيصير ذلك إلى الرجل الواحد لو المرأة (٥) » أي وبذلك يقع مآكرهه الإسلام من تكديس الثروات في أيدي قليلة كما تدل عليه الآية المذكورة .

١١ - الملكية المشروعة مصونة :

فاذا جمع المال من الطريق المشروع ، وأنفق منه صاحبه بالاعتدال كان مابقي منه في يد صاحبه مصوناً تحميه الدولة وقوانينها . وعلى المجتمع أن يحترم ملكيته لذلك المال « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل »

(١) أما التعريف الاصطلاحي للحجز فهو « منع شخص مخصوص عن تصرفه القول » (للمادة ٩٤١ من المجلة) والذين يحجز عليهم بالاتفاق هم الصغار والمجنون والمعتوه والسفيه وجه تعريف السفيه في المجلة (مادة ٩٤٦) : هو الذي يصرف ماله في غير موضعه ويسلوه في مصارفه ويضيع أمواله ويبتلقها بالاسراف الخ ..

(٢) النساء : ٧

(٣) الحديد : ٧

(٤) الاموال لابي حنيفة : ص ٥٩

(٥) الحشر : ٧

(٦) البقرة : ١٧٨

ولا تمسه الدولة الا لحق الشعب وضرورات المجتمع كما سيأتى .

١٢ - وجانب التكافل الاجتماعى

ومع احترام الاسلام للملكية الشخصية . فقد جعل فى الثروات الخاصة حقوقا للشعب تأخذها الدولة من تلك الثروات . لتحقيق التكافل الاجتماعى وغيره مما تحتاجه الدولة . ولذلك جاءت فريضة الزكاة وغيرها مما سنغلمه بعد عند بحث قوانين التكافل الاجتماعى .

١٣ - مشروعية الارث

اذا بقى لدى صاحب المال شيء فائض عن حاجة صاحبه وحاجة المجتمع . ثم ادركه الموت فقد انتقلت ملكية ذلك المال الى ورثته . وهنا بجىء قانون الارث مبينا كيفية تقسيم هذا المال بين الورثة . وبلاحظ على قانون الارث فى الاسلام انه يشرك عددا كبيرا من اقرباء الميت فى التركة . ولا يحصره فى طبقة معينة منها كما هو شأن أنظمة الارث فى اكثر شرائع العالم . وهذا مما يؤدى حتما الى تفتيت الثروات مهما كانت كبيرة وتقسيمها الى ملكيات صغيرة (١) .

١٤ - حق الخزانة العامة

واذا مات المالك عن غير وارث انتقلت ملكية المال الى الدولة وكان من موارد بيت المال التى تنفق لتحقيق التكافل الاجتماعى . هذه هى مبادئ التملك فى اشتراكية الاسلام . ولا يخرج نوع من انواع التملك المشروع من هذه المبادئ . ولما كانت هنالك ابحاث خاصة ببعض وسائل التملك التى لها علاقة باشتراكية الاسلام فقد افردنا لها الابحاث التالية :

(١) بينا خصائص الارث الاسلامى فى كتابه مشروعية الارث واحكامه فى الاسلام .

- ٢ -

أبحاث حول حق التملك

- ١ - أحياء الموات
- ٢ - الأقطاع
- ٣ - حقوق العمال
- ٤ - التأميم
- ٥ - تحديد الملكية

احياء الموات

يقسم الفقهاء الارض من حيث الملكية والانتفاع بها الى اربعة اقسام رئيسية (١) .

الاول : ارض مملوكة عامرة : ويعنون بالارض العامرة هي التي ينتفع بها من سكنى أو زراعة أو غيرها . وحكم هذا النوع من الارض انه ملك لصاحبه لا يجوز لاحد أن ينتفع منه بشيء الا بإذنه ، ولا يؤخذ منه الا برضاه ، فيما عدا الحالات التي تقتضيها مصلحة الدولة والمجتمع وسندكر ذلك في التحديد والتأميم .

الثاني : ارض مملوكة غير عامرة : ويعنون بها الارض الخراب التي اتقطع مأوها أو لم تستغل بسكنى أو استثمار أو غير ذلك . وحكم هذه انها تبقى على ملك صاحبها كالسابق ، وتوزر وتباع كبقية الاراضى العامرة .

الثالث : ارض من المرافق العامة للناس ، كالارض التي تكون لاهل القرية مرعى لدوابهم ، ومحتطبا لهم أو مقبرة لموتاهم . وهذه لا يملكها احد بل تكون منفعتها للجميع .

الرابع : ارض خراب لا يملكها احد ولا ينتفع بها احد وهذه هي التي تسمى « الموات » .

تعريف الموات :

وعلى ذلك فيكون تعريف « الموات » كما ذكره الفقهاء :

هو ارض خارج البلد لم تكن ملكا لاحد ولا حقا له خاصا .

فلا يكون من ارض الموات :

١ - الارض التي تكون داخل البلد ولو كانت خربة .

٢ - والارض التي تكون خارج البلد ولكنها من المرافق العامة لاهل المنطقة المجاورة لها .

٣ - والارض التي تكون فيها المعادن ، وقد مثل الفقهاء الاقدمون لذلك بالملح والقار والنفط وما اشبهه مما لا يستغنى عنه الناس .

هل يشترط أن تكون بعيدا عن العمران ؟

في ظاهر مذهب الحنيفة : أنه لا يشترط .

وقال الطحاوى : هو شرط وما قرب من العامر فليس بموات .

وقال الشافعى : الموات كل ما لم يكن عامرا ولا حريما لعامر (١) .

ما هو احياء الموات ؟

احياء الارض الموات يكون بجلب الماء لها ان كانت خالية من الماء او بتجفيفها ان كانت مغمورة بالماء او بزراعتها او بالبناء فيها أو بكل شيء يجعلها صالحة للاستثمار بعد أن كانت معطلة .

قال الماوردى : وصفة الاحياء معتبرة بالعرف فيما يراد له الاحياء لان رسول الله صلى الله عليه وسلم اطلق ذكره اشارة على العرف اليهود فيه ، فان اراد احياء الموات للسكنى كان احياءه بالبناء والتسقيف ، لانه اول كمال العمارة التي يمكن سكنها ، وان اراد احياءه للزراعة والفرس اعتبر فيه ثلاثة شروط .

احدهما : جمع التراب المحيط بالارض حتى يصير حاجزا بينها وبين غيرها .

والثانى : سوق الماء اليها ان كانت يسا وحسبه عنها ان كانت بطائع (٢) ، لان احياء اليبس بسوق الماء اليه . واحياء البطائع بحبس الماء عنها حتى يتمكن زرعها وقرسها في الحالىن

والثالث : حرثها : والحرث يجمع اثاره المعتدل وكسح المستعلى وطم المنخفض (٣) .

حكم لحياء الموات :

من احياء ارضا مواتا كان مالكا لها ، وقد وردت في ذلك احاديث وآثار :

(١) الاحكام السلطانية للماوردى : ١٥٨ والبراد بالحريم عنا هو ما كان من الرائق الخاصة بحريم النهر وحريم الطرقات وغيرها

(٢) جمع اطلع وهو مسيل واسع فيسهل دقاق الحصى .

(٣) الاحكام السلطانية .

فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم : « انه قال من احيا أرضا
مينة فهي له ، وما اكلت العافية منها فهي له صدقة (١) » .

وفي رواية أخرى عنه : « من عمر أرضا ليست لاحد فهو احق
بها (٢) » .

وعن أسمر بن مزيار : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم
فبأبعته فقال : من سبق الى ما لم يسبق اليه مسلم فهو له ، قال فخرج
الناس يتعادون « أى يسرعون » يتخاطون « أى يضمون على الأرض
علامات بالخطوط » (٣) .

وخطب عمر رضى الله عنه على المنبر مرة فقال : « يا أيها الناس من
احيا أرضا فهي له » (٤) .

هل يشترط اذن الدولة ؟

الجمهور على انه لا يشترط لصحة التملك في احياء الارض الموات
ان يكون ذلك باذن من الامام . بل كل من سبق الى أرض ميتة فأحيها
واستثمرها كانت ملكا له .

وقال أبو حنيفة : لابد من اذن الامام في ذلك لان الناس يتقاتلون
على احياء الاراضى فتقع بينهم الخصومة والعداوة فلا بد من اذن الامام
« رأيت رجلين أراد كل واحد منهما أن يختار موضعا واحدا وكل واحد
منهما منع صاحبه أيهما احق به ؟ رأيت أن أراد رجل أن يحيى أرضا
ميتة بقاء رجل وهو مقر أن لا حق له فيها ، فقال لاحتحيها فانها بفنائى
وذلك يضرنى . فانما جعل أبو حنيفة اذن الامام في ذلك هاهنا فصلا
بين الناس . فاذا اذن الامام في ذلك لانتسان كان له أن يحييها وكان ذلك
الاذن جائزا مستقيما . واذا منع الامام احدا كان ذلك المنع جائزا ،
ولم يكن بين الناس انتشاح في الموضوع الواحد ولا الضرار فيه مع اذن
الامام ومنعه (٥) .

وقال بعض العلماء : ان كان الموضوع المراد احيائه مما لا يرغب
الناس فيه فلا حاجة الى اذن الامام ، وان كان مما يقع التزاحم عليه
فلا بد من اذن الامام .

ولا ريب عندنا في أن رأى أبى حنيفة يتفق مع مفهوم الدولة
وسلطانها في العصر الحديث . فسواء كانت الأرض مما يتنازع عليها

(١) روى احمد والنسائي وابن حبان والمراد بالعافية من يسر بالأرض فيأكل منها
لحاجته سواء كان انسانا ام حيوانا

(٢) روى البخارى واحمد . (٣) روى ابو داود .

(٤) أخرجه أبو عبيد في كتاب الاموال : ٢٩٠ (٥) الخراج لابی يوسف : ٦٤

الناس ام لا فهى ملك للدولة ، ولا يصح لاحد ان يبادر الى تملكها بدون ترخيص .

شرط تملكها

أجمع الفقهاء على ان الارض الميئنة لاتملك بمجرد تحجيرها ، اى وضع علامة حولها تدل على أن واضع العلامة أراد احياء هذه الارض ، بل لابد من احيائها فعلا بفعل ما يؤدى الى احيائها من بناء أو زرع أو حرث مما ذكرنا آنفا .

نعم ان المحتجر يكون أولى من غيره بتملكها اذا جاء غيره بعده ورغب فى احيائها .

واتفق الفقهاء على انه يترك له اجل ثلاث سنوات فاذا مضت ولم يقم باحيائها انتزعت منه وأعطيت لغيره . لان القصد من تملكه لارض الموات ان ينتفع المجتمع والدولة بزيادة الثروة العامة وتوسيع رقعة الارض الصالحة للزراعة والاستثمار .

والاصل فى هذا ما ورد من ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « عادى الارض لله وللرسول ثم لكم من بعد » فمن احيأ أرضاً ميتة فهى له ، وليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين » (١) .

وروى عن عمر انه قال على المنبر : « من احيأ أرضاً ميتة فهى له ، وليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين » يقول راوى هذا الخبر : وذلك ان رجلاً كانوا يحتجرون من الارض ولا يقومون باحيائها (٢) .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اعطى بلال بن الحارث المزنى جميع ارض العقيق ، فلما كان زمن عمر قال بلال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقطعك تحتجره عن الناس ، انما اقطعك لتعمل ، فخذ منها ما قدرت على عمارته ، ورد الباقي (٣) .

وقال عمر رضى الله عنه : « من عطل أرضاً ثلاث سنين لم يعمرها فنجاء غيره فمعمرها فهى له (٤) » .

تلك هى احكام احياء الموات فى الشريعة ، ومنها يتبين ان اشتراكية الاسلام حين اعطت هذا الحق للناس انما تريد بذلك استغلال الثروات التى خلقها الله فيما يعود على المجتمع بالخير والفائدة .

(١) رواه ابو يوسف فى الحراج : ٦٥

(٢) الاموال : ٢٩٠ والخراج ليعلى بن آدم : ١٢

(٣) الخراج ليعلى بن آدم : ١١

(٤) الاموال : ٢٩

الاقطاع

تعريفه

هو في الشريعة تمليك الامام ارضا لا مالك لها ، لانسان يقوم بعمارتها واستغلالها . على ان يتم ذلك خلال مدة معينة - ذكرناها في بحث احياء الموات - فان انقضت ولم يفعل شيئا من ذلك استردها الامام منه واعطاها لغيره .

هذا هو الاقطاع الذي جرى في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ومن بعدهم . ثم اطلق الاقطاع على منح الامام بعض الناس غلة ارض من اراضي الدولة لبلاتهم في الجيش او لعظيم فائدتهم للامة

واقطاع الاراضي لا يكون الا في الاراضي التي :

١ - ليست مملوكة لاحد ولو كانت خرابا .

٢ - ليست من المرافق العامة التي يحتاج اليها سكان المدن او القرى او الصحراء .

٣ - ليس فيها معدن من المعادن التي يحتاج اليها الناس .

وما عدا هذه الانواع الثلاثة من الاراضي فمن حق الامام ان يقطعها لمن يشاء ، ولا يجوز له ان يفعل ذلك محاباة ، بل عليه ان يبتنى في ذلك الانفع للامة والبلاد .

وقائع الاقطاع في عهد الرسول والخلفاء

كانت بلاد العرب حين جاءها الاسلام ما بين ارض مملوكة لاصحابها وما بين ارض لا مالك لها ، ومنها ما كان مرعى للابل والانعام .

ولما بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد مقامه في المدينة ينظم شئون الدولة الاسلامية كان مما اتجهت اليه عنايته اصلاح الاراضي الميثة التي لا مالك لها ، فاعلن - كما قدمنا - ان من احيا ارضا ميثة فلي له ، وتقدم اليه بعض الناس يطلبون منه ان يمنحهم من تلك الاراضي ما يقومون بعمارتها ، ففعل ، وسمى عمله هذا « اقطاعا » .

فقد اقطع الرسول صلى الله عليه وسلم : الزبير بن العوام ، وبلال ابن الحارث ، وعمر بن حريث ، ووائل بن حجر ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعمر بن الخطاب وغيرهم .

ولما بدأت المعارك بين الدولة الإسلامية ومملكتي الفرس والروم - عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم - انتهت تلك المعارك باستيلاء الإسلام على أكثر أقطار تلك المملكتين ، ووجدت الدولة الإسلامية نفسها أمام أراض واسعة ليس لها مالكون ، أما نتيجة لوفاة أصحابها المحاربين : أو لاستيلاء الدولة على أملاك كسرى وقبصر وأمراء البيت الملك وقواد الدولتين في فارس والروم ، وأما لأنها في الأصل كانت أراضى خراباً .

وهنا قضت سياسة الدولة الانشائية بإحياء تلك الأراضي وأعمارها فاقطعها الخلفاء لمن يقوم عليها ويحسن استثمارها .

ذلك هو أصل اقطاع الأراضي في الدولة الإسلامية ، وهو كما ترى عمل عمراني أدى أجل الخدمات المائية للدولة وثروتها الاقتصادية .

وفي أكثر الحالات لم يخرج الاقطاع عن حدوده الشرعية ، وهو أن تكون الأرض المقطعة أرضاً مواتاً أو من أراضي الدولة ، ويكون ذلك لمن يحسن عمارتها واستغلالها .

ونصوص الفقهاء كلها مجمعة على ذلك :

قال أبو يوسف في كتابه الخراج :

فأما القطائع من أرض العراق فكل ما كان لكسرى ومرازبته . وأهل بيته مما لم يكن في يد أحد . . وقد وجد في الديوان أن عمر رضى الله عنه أصفى أموال كسرى وآل كسرى ، وكل من فزع أرضه وقتل في المعركة ، وكان مفيض ماء أو أجمة ، فكان عمر يقطع من هذه لمن أقطع ، وذلك بمنزلة المال الذي لم يكن في يد أحد ولا في يد وارث ، فللإمام العادل أن يجيز منه ويعطى من كان له غناء في الإسلام « أي جهاد وخدمة لدولته » ويضع ذلك موضعه ولا يحابى به ، وكذلك هذه الأرض « فهذا سبيل القطائع عندي في أرض العراق . والذي فعل الحجاج ثم عمر بن عبد العزيز . فإن عمر رضى الله عنه أخذ في ذلك بالسنة .

ثم تكلم عن القطائع في أرض الحجاز ومكة والمدينة وأرض العرب وأرض البصرة وخراسان وكيف كان الاقطاع فيها من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن بعده . وقال : وكل أرض من أرض العراق والحجاز واليمن والطائف وأرض العرب وغيرها غامرة وليست لأحد ولا في يد أحد ولا ملك أحد ولا واثقة ولا عليها أثر عمارة فاقطعها الإمام رجلاً فعمرها إن كانت في أرض الخراج فعلى الذي أقطعها الخراج ، وإن كانت في أرض العشر فعليه العشر .

ثم نصح الرشيد بقوله : ولا أرى أن يترك « الإمام » أرضاً لا ملك لأحد فيها ولا عمارة حتى يقطعها الإمام ، فإن ذلك أعمر للبلاد

واكثر للخراج ، فهذا حد الاقطاع عندى على ما أخبرتك (١) .
وقال ابو عبيد القاسم بن سلام بعد ان ذكر الاحاديث والآثار التى وردت عن اقطاع النبى صلى الله عليه وسلم وخلفائه للأراضى : ولهذه الاحاديث التى جاءت فى الاقطاع وجوه مختلفة ، الا ان حديث النبى صلى الله عليه وسلم الذى ذكرناه « وهو : عادى الارض لله ولرسوله ثم هى لكم آى : تقطعونها للناس » هو عندى مفسر لما يصلح فيه : لاقطاع من الارضين ولما لا يصلح . واهادى كل ارض كان لها ساكن فى آباد الدهر . فانقضوا فلم يبق منهم انيس . فصار حكمها الى الامام . وكذلك كل ارض موات لم يحيها احد ولم يملكها مسلم ولا معاهد . واباها اراد عمر بكتابه الى ابي موسى « ان لم تكن ارض جزية ولا ارضا يجرى اليها ماء جزية فاقطعها آياه » فقد بين أن الاقطاع ليس يكون الا فيما ليس له مالك . فاذا كانت الارض كذلك فأمرها الى الامام (٢) .

وقال القاضى ابو الحسن الماوردى : « واقطاع السلطان مختص بما جاز فيه تصرفه ، ونفذت فيه أوامره . ولا يصح فيما تعين فيه ملكه وتميز مستحقه (٣) » .

افتراء جاهل :

واذا كان هذا هو حقيقة الاقطاع الذى ورد عن الرسول وخلفائه وعرف فى تاريخ الاسلام وحضارته ، كان من الجهل والتضليل مازعمه بعض الحاقدين على الاسلام من انه جاء بنظام الاقطاع الذى عرفته أوروبا فى القرون الوسطى .

ذلك أن الاقطاع الذى عرف عند الغربيين فى القرون الوسطى كان عبارة عن تملك السيد لارض وسعة بمن عليها من الفلاحين وما عليها من الحيوان ، تملكا مطلقا يبيح له التصرف فيها وفيهم غير مقيد بقانون او خلق كريم ، واذا باعها ماكبها لآخر انتقلت ملكيتها وفلاحوها وحيوانها الى الملك الجديد ! .

وهذا ما ياباه الاسلام فى تشريعه ، وخطت منه حضارته فى مختلف عصورها .

فانفلاخ فى نظر الاسلام انسان حر له كرامته وله شخصيته ولاهليته الكاملة ، ولا ارتباط له بالارض التى يعمل فيها - ان لم يكن مالكا لها - الا ارتباط الحر باى عمل يتعاقد عليه مع غيره

ولم يقع قط فى تاريخ الحضارة الاسلامية ان ارضا بيعت ، فانتقل الى المالك الجديد ملكية فلاحها ! والذى كان يقع هو أن الفلاحين « المزارعين » كانوا يخبرون بين أن يستمروا فى زراعتهم للأرض مع المالك الجديد ، وبين أن يعملوا فى ارض أخرى . وحققهم فى حرية الاختيار هذا حق ثابت لهم بموجب نظام العقود فى الشريعة الاسلامية .

(١) ص ٥٧ فبا بعدها من كتاب « الخراج » (٢) الاموال : ٢٧٨

(٣) الاحكام السلطانية : ١٦٨

ولعل الامر الذى ورط ذلك الجاهل فى زعمه ذاك هو التوافق بين لفظ « لاقطاع » الذى أطلقه المسلمون على ما ذكرناه ، وبين لفظ « الاقطاع » الذى أطلقه التراجمه العرب المحدثون على ما كان يقع عند الغربيين فى القرون الوسطى ، ولكن كل مطلع على حقيقة « الاقطاع » فى الاسلام وحقيقته عند الغربيين يجزم بأن الاسلام لا يعرف نظام الاقطاع الغربى ولا يقره : ولم يقع فى حضارته مثل ذلك النظام .

فادعاء أن الاسلام لقر « الاقطاع » جهل يستحق الازدراء ، وتضليل يستوجب به مدعيه الخروج من زمرة التلاميذ ، بله أن يكون من زمرة المؤرخين أو العلماء الاجتماعيين !

حقوق العمال

كان من الثورة الاجتماعية الكبرى التي أحدثها الإسلام في التاريخ رفعه من شأن العمل ، واحترامه العامل ، وضمانه لحياته حياة كريمة والمستقبله عند الشيخوخة والعجز والمرض ، وضمان أسرته بعد وفاته ، فقد كان العمل في العالم كله قبل الإسلام وحتى عهد قريب يعتبر أمرا مهينا ، ويعتبر العمال طبقة دنينة ليست لها أية حقوق . ولما اخترعت الآلة في العصر الحديث بدأت مشاكل العمال مع أرباب العمل ، وبدأ العمال يطالبون بحقوقهم ، ويتكثرون ضد أرباب العمل ، وتنبهت الدول أخيرا الى وجوب رفع مستواهم ، وضمان حقوقهم ، لا بدافع من العاطفة الانسانية ، بل خوفا من تفاقم مشكلتهم ، وانتشار الثورة في صفوفهم ومن هنا جاءت تشريعات العمال في الدول الحديثة . فما هو موقف الإسلام من هذه التشريعات والحقوق التي لم تكن معطاة لهم من قبل ؟

الواقع ان كل ما قدمناه من مبادئ اشتراكية الإسلام ، وهي الاعتراف بالحقوق الطبيعية الخمسة لكل مواطن ، ووجوب تحقيق التكافل الاجتماعي ، بحسب قوانينه التي سنتجديث عنها ، تشمل العامل وتضمن له حقه في التكافل الاجتماعي ، ومع ذلك فقد جاء في النصوص التشريعية ما هو خاص بالعمال ، وما هو شامل لهم ولغيرهم مما يمكن أن يستخرج منه مبادئ لسن تشريعات لحقوق العمال ترتفع عن مستوى التشريعات الحالية المعمول بها لدى الدول الحديثة وخاصة الاشتراكية الشيوعية منها .

وسترى فيما نذكره من المبادئ ما يكفل للعمال حياة كريمة مستقرة بحيث تستطيع الدولة ان تسن التشريعات اللازمة - على ضوءها - وفق ما يقتضيه التطور الصناعي والحضارى اللازمة .

ونحب ان نشير الى ان القرآن قد وردت فيه ٣٦٠ آية تتحدث عن العمل و ١٠٩ آيات عن « الفعل » وهي تتضمن احكاما شاملة للعمل وتقديره ومسئولية العامل وعقوبته ومثوبته . ونكتفى بسرده بعض المبادئ التي ضمن بها الإسلام حقوق العمال ، ونترك تفصيل القول في العمل عموما الى البحث الشامل الذي نضعه لهذه النظرية .

المبادئ العامة لصيانة حقوق العمال

١ - العمل شرف

يقول الله تعالى : « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا (١) » والعمل هنا وفي آيات كثيرة جاء شاملا للعمل الديني أى تنفيذ احكام الشريعة ولغيره ، وهو فى عموميه يشمل العمل الصناعى كما يعرف ذلك من قواعد الاجتهاد فى الشريعة وغيره فان العبارة بشمول اللفظ وعمومه . وكذا ما ذكره من الجزاء لطيب للعمل الحسن يشمل الجزاء المادى فى الحياة ، وان كان واردا فى الجزاء الاخرى بل ربما كانت دلالته على الجزاء المادى فى الدنيا اقوى ، وكان وروده فى الجزاء الاخرى مقصودا منه الاشارة الى الجزاء المادى فى الحياة الدنيا .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ان أشرف الكسب كسب الرجل من يده (٢) » .

٢ - العمل نعمة :

يقول تعالى « لياكلوا من ثمره وما عملته ايديهم افلا يشكرون(٣) » والشكر على النعمة يقتضى حفظها والمداومة عليها .

٣ - العامل مسئول :

يقول تعالى : « ولتسئلن عما كنتم تعملون (٤) » ويقول عليه السلام « والخادم (العامل) راع فى مال سيده وهو مسئول عن رعيته (٥) » وعليه أن يتقن عمله « أن الله يحب من العامل اذا عمل أن يحسن (٦) »

٤ - رب العمل مسئول :

يقول عليه السلام : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته (٧) » . ويقول عليه السلام : « اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت ايديكم (٨) » ..

(١) فصلت : ٣٣

(٢) رواه الامام احمد

(٣) يس : ٣٤

(٤) النحل : ٩٣

(٥) رواه البخارى ومسلم

(٦) رواه البيهقى ، وفى حديث اخر ان الله

يحب اذا عمل احدكم عملا ان يتقنه (رواه البيهقى)

(٧) (٨) رواه البخارى ومسلم

٥ - لا عمل من غير أجر :

يقول تعالى : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليه سهم أعماله فيها وهم فيها لا يبخسون (١) » .

٦ - الاجر على قدر العمل :

يقول تعالى : « ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون (٢) » ويقول : « ولا تبخسوا الناس أشياءهم (٣) » فإذا رضى العامل مضطراً بأجر دون ما يستحقه وجب أن يدفع له رب العمل ما يستحقه ولا عبثاً برضاه في الأجر المخفض، كمن اضطر الى بيع سلعته بأقل من ثمنها الحقيقي ، فان الأيجار هو بيع المنافع .

٧ - الاجر حق لا منة فيه :

يقول تعالى : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم اجر غير ممنون (٤) » .

٨ - الاجر في حماية الدولة :

يقول تعالى : « اني لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او أنثى (٥) » ويقول عليه السلام : « أعطوا الأجر أجره قبل ان يجف عرقه » (٦) ويقول « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة .. منهم .. ورجل استأجر أجيراً فلم يوفه أجره » ، وفي قصة الخضر في القرآن الكريم « اما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان زواجرهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » (٧) وهذا صريح في حماية العامل من العدوان عليه في ماله ، وأجره المستحق أصبح مالا له فتجب حمايته .

٩ - العمل على قدر الطاقة :

يقول عليه السلام « ولا تكلفوهم مالا يطيقون (٨) » ويقول تعالى « لا يكلف الله نفساً الا وسعها » (٩) فإذا قررت الدولة - بناء على

(٢) الاحقاف : ١٦

(٤) فصلت : ٨

(٦) رواه ابن ماجه

(٨) رواه البخاري ومسلم

(١) هود : ١٥

(٣) الاعراف : ٨٥

(٥) آل عمران : ١٦٥

(٧) الكهف : ٧٩

(٩) البقرة : ٢٨٦

ما ثبت علميا - من أن العمل يجب أن يكون ثمانى ساعات فى اليوم أو أكثر من ذلك أو أقل ، وجب التقيد بذلك، فلذا أراد رب العمل تشفىل العامل أكثر من ذلك وجب إعطاؤه الأجر الإضافى عليه ، ويكون داخلا تحت قوله عليه السلام فى تنمة الحديث السابق : « فإذا كلفتموهم فأعينوهم » وإعطاء الأجر على العمل الإضافى إمانة بلا ريب .

١٠ - حق العامل فى تأمين نفقاته :

للعامل حق فى تأمين نفقاته العائلية لان ذلك من كرامته « ولقد كرما بنى آدم (١) » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطى الأهل حظين ويعطى العزب حظا واحدا (٢) ، وهذا تقدير لحق الإنسان فى كفايته المعاشية ويقول عليه الصلاة والسلام « من ولى لنا عميلا وليس له منزل فليتخذ منزلا ، أو ليس له زوجة فليتزوج أو ليس له دابة فليتخذ دابة (٣) » وهذا وإن كان واردا فى حق موظفى الدولة ، لا أن العلة التى اقتضت حصول الموظف على ذلك وهى تحقيق كفايته للقيام بعمله بأمان واستقرار ، تقتضى شمول هذا الحكم للعامل ، وليس معنى ذلك أن رب العمل ملزم بإعطائه ما يحتاج اليه من نفقات ولو كان أكثر مما يستحقه من أجر عادل ، بل معنى ذلك أن على الدولة أن تضمن للعامل هذا الحق اذا كان أجره العادل لا يكفيه .

١١ - حق العامل فى الراحة :

يقول عليه السلام : « أن لنفسك عليك حقا ، وإن لجسدك عليك حقا ، وأن لزوجك عليك حقا ، وإن لعينك عليك حقا (٤) » وهذا يعطى العامل حقا فى الراحة وإداء العبادة والقيام بحق الزوجية والإبوة .

١٢ - للعامل حماية المجتمع :

لقد ضمنت قوانين التكافل الاجتماعى فى الإسلام حق المواطن فى تأمين معيشته وكرامته عند العجز والمرض والشيخوخة ، كما ضمنت له حق حماية أسرته بعد وفاته أن مات من غير ثروة : «من ترك مالا فلورثته ، ومن ترك ضياعا (أى ورثة) أو كلا (أى ذرية ضعفاء) فليأتمنى فأنا مولاة » (٥) وفى رواية «فالى الله ورسوله» : قال أبو عبيد «الكل كل

(٢) رواه البخارى وغيره. وذكره أبو حنيفة

(٣) رواه الإمام أحمد وأبو داود

(٤) رواه البخارى

(١) الإسراء : ٧٠

فى الأموال ٧٤٢

(٤) رواه البخارى وغيره

عيل والذرية منهم ، فجعل صلى الله عليه وسلم للذرية في المال (مال الدولة) حقا ضمنه لهم (١) » .

هذه جملة من المبادئ ضمن بها الاسلام حقوق العمال وتوفى لهم الحياة الكريمة لهم ولاسرهم في حياتهم وبعدها ، وبذلك نعلم أن الأكثر ماتضمنته قوانين العمل في بلادنا مما يرفع الظلم عن العمال ويضمن لهم حقوقهم ، هي أحكام شرعية يجب التقيد بها وتنفيذها بحكم الشريعة عدا حكم القانون .

التأميم

ما هو موقف الاسلام من التأميم ؟ تأميم الصناعات ؟ تأميم المرافق العامة ؟ تأميم الارض وما اشبهها ؟

سنستعرض بعض النصوص والمبادئ المقررة في الشريعة فيوضح موقف الاسلام من هذا الموضوع .

١ - لقد ذكرنا في مبادئ التملك قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « الناس شركاء في ثلاث : الماء والكلا والنار » وهذا يفيد أن كل انسان له حق الاستفادة من هذه المواد الطبيعية لحاجة الناس جميعا اليها ، وقد قرر الفقهاء انه لا يجوز أن يستأثر بها انسان دون بقية الناس الا بعد احرازها في الانية أو ما اشبهها، فإذا أدت الملكية الشخصية لهذه الاشياء الى أن تحبس عن الناس أو يتحكم مالکها في ثمنها وتوزيعها بحيث يتضررون من ذلك وهم في حاجة اليها ، كان للدولة أن تحول دون هذا الاحتكار ، وجاز لها أن تتخذ الوسائل الكفيلة لاشراك الناس جميعا في الاستفادة منها تحقيقا لمعنى « الشركة » الواردة في الحديث، وذلك يعنى « التأميم » أو تدخل الدولة في « تحديد » الاسعار . . ولا شك في أن النص على تلك المواد الثلاث ليس للحصر ، بل يلحق بها كل ما كان مثلها في حاجة الناس جميعا اليه . بدليل اضافة (الملح) اليها في بعض الروايات ، وهذا يعنى أن كل ما كان ضروريا للناس من طعام أو غيره يأخذ ذلك الحكم : وهو « جواز التأميم » من الناحية التشريعية .

٢ - ومن المعلوم أن الوقف جائز في الاسلام ، بل هو مرغوب فيه للحاجات الاجتماعية التي تحدثه عنها في قوانين التكافل الاجتماعى ، والوقف كما عرفه الفقهاء هو « اخراج العين الموقوفة من ملك صاحبها الى ملك الله أى أن تكون غير مطوكة لأحد بل تكون منفعتها مخصصةة للموقوف عليها » وهذا هو « التأميم » .

٣ - ومن المتفق عليه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حمى الرضا بالمدينة يقال لها « النقيع » لترعى فيها خيل المسلمين (١) ، وحمى عمر أيضا أرضا بالربذة وجعلها مرعى لجميع المسلمين ، فجاء أهلها

(١) رواه احمد والترمذى ابويعقوب فى الاموال ص ٢٩٨ انظر بحث الحمى فى الاحسنكام السلطانية للمواردى ص ١٦٤ وللقاضى أبى يعقوب ص ٢٠٦

يقولون : يا أمير المؤمنين ! انها بلادنا قاتلنا عليها في الجاهلية وأسلمنا عليها في الاسلام ، علام تحميها ؟ فاطرق عمر ثم قال : المال مال الله ، والعباد عباد الله ، والله لولا ما أحمل عليه في سبيل الله ما حمت من الارض شبرا في شبر (١) .

وظاهر ان « الحمى » هو اقتطاع جزء من الارض لتكون مرعى عاما لا يملكه أحد ، بل ينتفع به سواد الشعب ، وقد أوضح ذلك عمر حين قال لهني لما استعطفه على حمى الريدة : يا هني ! أضمم جناحك عن الناس ، واتق دعوة المظلوم فانها مجابة ، وادخل رب الصريمة والغنمية - أي مكن صاحب الابل القليلة والغنم القليلة من رعيها في تلك الارض - ودعني من نعم بن عفان ونعم بن عوف - أي من أصحاب الاموال الكثيرة - فانهما ان هلكتا ماشيتهما رجعا الى نخل وزرع ، وان هذا المسكين - أي صاحب الابل او الغنم القليلة - ان هلكتا ماشيته جاءني ببنيه يصرخ : يا أمير المؤمنين ! - أي يطلب معونة الدولة لان له حقا في بيت المال حين يفتقر - أفتاركهم انا لا ابا لك ؟! فالكلا أسر على من الذهب والورق - النضة - وانها لارضهم . قاتلوا عليها في الاسلام ، وانهم ليرون الى ظلمتهم ، ولولا النعم التي يحصل عليها في سبيل الله ما حبيت على الناس شيئا من بلادهم (٢) .

وهذا صريح في « تأميم » الارض لضرورة الدولة والمجتمع ، وفيه من المبادئ ان أصحاب الحاجات تقضي لهم حوائجهم ولو كان في ذلك بعض الضرر لأصحاب الثروات الكبيرة ، وانه لو لم يفعل ذلك لهلكت رؤوس الاموال الصغيرة ، ولزم الدولة أن تكفيهم حاجتهم وان المصلحة التي تصيب هؤلاء وهم سواد الشعب ، تتحقق بتحمل ضرر بسيط يلحق أصحاب الحق في المال « التأميم » وهو أفضل من تحمل ضرر أكبر بالزام خزانة الدولة اعمالة تلك العائلات ... وهذا تطبيق القاعدة « يتحمل الضرر الادنى لدفع الضرر الاعلى » .

٤ - ومن المقرر في الفقه الاسلامي أيضا ان الاحتكار غير جائز وان المحتكر الذي يمتنع من بيع الناس ما احتكره ، يجبره القاضي على بيع ما زاد عن قوته وقوت عياله ، وكذلك اذا أبى أن يبيعه للناس الا بسعر فاحش يشق عليهم ، يأمره القاضي ببيعه بسعر معتدل الربح وفق تقدير الخبراء ، فاذا أبى في الحالين انتزع منه ماله ، وباعه عليه بسعر معتدل (٣) . فاذا اقتضت مصلحة المجتمع اليوم انتزاع ملكية الارض من أصحابها جاز ذلك كما جاز في الاحتكار .

(١) الاسوال : ٢٩٩

(٢) رواه البخاري وذكره أبو عبيد في الاموال : ٢٩٩

(٣) انظر : الاختيار شرح المختار : ١١٥/٣ والمحبية لابن تيمية وابن عابدين : ٢٥٥/٥

٥ - كان لسمرة بن جندب نخل في حائط « بستان » رجل من الانصار ، فكان يدخل عليه هو وأهله فيؤذيه ، فشكا ذلك الانصارى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يلقاه من سمرة ، فقال الرسول لسمرة : به ، فأبى ، قال : فاقطعه ، فأبى ، قال : هبه ولك مثلها في الجنة فأبى - وكان يظن أن الرسول يقول له ذلك على سبيل النصيح لا على سبيل القضاء والالزام - فقال له رسول الله : أنت مضار . وقال للانصارى : اذهب فاقطع نخله (١) .

فهذا « انتزاع » للملك جيرا عن صاحبه : حين أدت ملكيته الى ضرر جاره . كيف اذا أدت الى ضرر المجتمع ؟

٦ - وقد قاسم عمر ولاته نصف أموالهم وهم من كبار الصحابة كابى هريرة وعمر بن العاص وابن عباس وسعد بن أبى وقاص . وهذا « انتزاع » للمال حين اقتضته المصلحة .

٧ - وسياى معنى في قوانين التكافل الاجتماعى : في قانون الانعاف وقانون الطوارئ . وقانون الكفاية . انتزاع جزء من أموال الاغنياء لمصلحة المجتمع . وفي هذا ما يرشد الى جواز « انتزاع » الملكية بطريق « التأميم » لمصلحة المجتمع ايضا .

وتقدم لنا أن الشريعة تحارب الظلم وتسمى للعدل . وانها تراعى مصلحة المجتمع . فاذا كانت ملكية الافراد تؤدي الى ظلم الشعب أو فئة منه . كان من المصلحة لانتزاع هذه الملكية أو تحديدها ، وكان الاخذ بذلك « استصلاحا » تفعله الدولة من قبيل « السياسة الشرعية » وهى حق الدولة في فعل كل ما فيه مصلحة الناس .

وخلاصة القول ان « التأميم » وقع في الاسلام « تشريعا » كما في « الوقف » ووقع في تاريخ الاسلام « عملا » كما في « الحمى » وأن نزاع الملكية رغما عن صاحبها وقع من الرسول « قضاء » كما في قصة سمرة ابن جندب فاذا كانت المصلحة العامة تحتم « التأميم » وفيه دفع الظلم والضرر عن الناس أو عن فئة كبيرة منهم . كان التأميم « واجبا » في تلك الحالات .

ولما كان مبدأ « التأميم » كنظرية اقتصادية محل نقاش بين علماء الاقتصاد وخاصة غير الاشتراكيين منهم . فنحن نرى أن لالتجأ الدولة الى تأميم صناعة أو مرفق من المرافق العامة الا بعد اخذ رأى الخبراء الاقتصاديين والاجتماعيين عملا بقوله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر (٢) »

الا اننا نرى أن تأميم « الكهرباء » و « المياه » و « بعض المسواد الغذائية » مما يحتمه الحديث « الناس شركاء في ثلاث : الماء والكلأ

(١) رواه ابو داود وذكره القاضى ابو يعلى فى الاحكام السلطانية : ٢٨٥

(٢) الانبياء : ٧

والنار» و « الملح » والماء هو مصلحة المياه اليوم . والنار هي مؤسسة الكهرباء في عصرنا الحاضر . والكلاً والملح أمثلة للمواد الضرورية التي لا يستغنى عنها انسان ما .

بقي إن يقال : ان نصوص الشريعة . قاضية باحترام الملكية الشخصية وأنه لا يجوز أخذ المال الا برضى من صاحبه . والتأميم انتزاع للملكية بغير رضا صاحبها . وجوابنا على ذلك أن تلك النصوص ليست على إطلاقها باجماع الفقهاء ، فما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم ثم عمر والخلفاء من بعده من « حصى » بعض الاراضى هو انتزاع للحق من أصحابه بغير رضاهم . وجواز أخذ الطعام عند الحاجة ممن ليس محتاجاً اليه ، هو أخذ للمال من غير رضا صاحبه . واجبار الحاكم للمحتكر على بيع ما احتكره وبيعه عليه اذا أبى . هو انتزاع للمال من غير رضا صاحبه وبيع القاضى مال المدين سداداً لديون الفرماء - على رأى جمهور الفقهاء - هو انتزاع للمال من غير رضا صاحبه ، ولأخذ الشريك ما باعه شريكه من عقار مشترك بينهما بحق الشفعة هو انتزاع للمال من غير رضا صاحبه ، والاستملاك للمنفعة العامة كما تفعل « البلديات » اليوم وهو جائز في الشريعة انتزاع للمال من غير رضا صاحبه ، وأمثال هذا كثير في الفقه الإسلامى .

نعم اذا لجأت الدولة الى التأميم « لضرورة اجتماعية » وجب عليها ان تعوض على من انتزعت منهم ملكيتهم تعويضاً عادلاً ، اذا كانت ملكيتهم لذلك المال عن طريق مشروع ، وخاصة اذا كان ما أمته سبباً للناس او تأخذ على انتفاعهم منه نصيباً مقدرًا ، وذلك قياساً على الاحتكار ، وعملاً بالقاعدة « الضرورة تقدر بقدرها »

تحديد الملكية

هل يجوز للدولة أن تحدد الملكية الزراعية بحد معين إذا حتمت مصلحة المجتمع هذا التحديد ؟ هذا ما سنبحثه الآن .

لما فتحت العراق والشام والجزيرة على المسلمين في عهد عمر بن الخطاب ، اختلف الصحابة في الأراضي الزراعية في تلك البلاد : ايقسمونها على الفاتحين ، أم يتركونها بأيدي أصحابها ؟ واستقر الامر على الرأي الثاني ، فبقيت الأراضي في أيدي الفلاحين ، ومسحت من جديد ، وقدرت عليها ضريبة الخراج ، وكان أساس التقدير أن تقدر غلتها المعتادة . ثم يترك للفلاحين ما يحتاجون اليه من نفقة لهم ولعيالهم ولن تلزمهم نفقتهم للسنة كلها ، مع زيادة يدخرونها للنوائب . ثم تأخذ الدولة منهم ما بقي .

أخرج أبو يوسف وأبو عبيد القاسم بن سلام ، أن عمر بن الخطاب بعث حذيفة بن اليمان على ما وراء دجلة وبعث عثمان بن حنيف على مادونه ، فأتياه فسالهما : كيف وضعتما على الأرض ؟ لعلكما كلفتما أهل عملكما « أي الفلاحين » ما لا يطيقون ؟ فقال حذيفة : لقد تركت فضلا ، وقال عثمان : لقد تركت الضعف ولو شئت لأخذته ، فقال عمر : أما والله لئن بقيت لأراهم أهل العراق لادعنهم لا يفتقرون لأمير بعدى (١)

وبذلك يكون عمر والصحابة قد اعتبروا أراضي العراق والشام والجزيرة « وكذلك أراضي مصر » رقيبتها للدولة ، وفلاحوها أجراء عليها ، يأخذون من غلتها ما يحتاجون اليه من نفقة للعام كله مع فضل في التقدير وما بقي فهو للدولة ، وقد قال بعض علماء القانون المشهورين في بلادنا أن عمر قد سبق بهذا العمل « ستوارت ميل » العالم الاجتماعي الانجليزي وغيره من القائلين بعدم جواز تملك الأرض من قبل الأفراد بل الاحتفاظ برقيبتها للدولة ، واستغلالها بأسلوب الضرائب أو ابدال الإيجار أو خراج المقاسمة المفروض على حاصلاتها ضمن حدود الربع ، وهو مازاد عن غلة الأرض على أجرة العامل عليها (٢) .

وسار المسلمون في فتح الأندلس على سنة تختلف عن سنة عمر ، وهي تقسيم الأراضي الزراعية بين فلاحها الذين كانوا محرومين من تملك الأرض في عهد « الفزيوت » قال « دوزي » المستشرق المعروف في كتابه « تاريخ الأندلس » ، « لقد أنقذ للإسلام الطبقات الدنيا من المسيحيين الصبيد وأقنان الأرض من العبودية والظلم ، وحررهم من

(١) الخراج لأبي يوسف : ٣٧ والأموال لأبي عبيد : ٤٠

(٢) علم المالية للاستاذ فارس الخورى : ١٤٧-١٤٩

سلطة الأقطاعيين الأقوياء الذين كانوا يعتبرون الفلاحين لاعبيدا لهم فحسب بل عبيدا للأرض أيضا ، لقد كان الفتح العربي حسنة بالنسبة لاسبانيا ، فقد حقق ثورة اجتماعية ذات أهمية بالغة ، وأزال قسما كبيرا من الآلام التي كانت ترزح تحتها البلاد منذ قرون ، فان سلطة الطبقات ذات الامتيازات وسلطة الكنيسة والنبلاء زالت عن الطبقات الدنيا من المسيحيين وهم العبيد وأقنان الأرض ، ووزعت الأراضي المصادرة بين عدد كبير من أفراد هذه الطبقات المستغلة المظلومة ، وكان تحقيق الملكية الصغيرة مصدرا للسعادة . وسببا لازدهار الزراعة في أسبانيا العربية . ثم يقول « لقد حكم المسلمون وفق الطريقة التالية : خفضت الضرائب تخفيضا عظيما بالنسبة لما كانت عليه أيام الحكام السابقين ، وصودرت الأراضي من أصحابها الاغنياء حيث كانت تشكل أقطاعات عظيمة جدا تزرع من قبل العبيد والاقتان ، ووزعت بين هؤلاء الذين كانوا يعملون عليها وكان المالكون الجدد « العبيد » يعملون بحماس ، وينتجون أفضل المحصول » .

ويقول ليفي بروفانسال : « ان الإزدهار الزراعي الذي أصاب اسبانيا بعد الفتح الاسلامي يعود أيضا الى التقسيم الكبير للملكية الأرض » (١)

نستنتج من ذلك أن الدولة الإسلامية في أوائل قيامها كانت سياستها بالنسبة الى تملك الأرض المفتوحة تتخذ أحد طريقتين :

١ - اما نقل ملكيتها الى الدولة على أن يكون عمالها الزراعيون أجراء عليها .

٢ - واما تقسيمها الى ملكيات صغيرة بين عمالها حتى يصبحون جميعا مالكيين لها ، وتزول معالم الملكيات الكبيرة وأثارها المفعجة .

ولو استمر الإسلام في سيره الطبيعي ولم ينحرف ولاة السوء عن هدفه الاشتراكي العظيم ، لظلت أراضي الشام ومصر والعراق كما كانت ملكا للدولة يشتغل الناس عليها بخراج المقاسمة ، وبذلك تكون بلادنا أول بلاد في العالم طبقت مبدأ ملكية الدولة لرقة الأراضي ، هذا المبدأ الذي نادى به كثير من العلماء الاجتماعيين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وطبقته روسيا في الربع الاول من هذا القرن .

واستمر الامر الى عهد عبد الملك بن مروان لا يجري في أراضي هذه البلاد بيع ولا شراء ، ثم أذن لهم عبد الملك والوليد وسليمان في الشراء على أن يدفعوا ثمنها الى بيت المال ، وأراد عمر بن العزيز أن يرد الأمر الى نصابه فينتزع الأراضي من أيدي أصحابها الجدد ، ولكنه وجد من الصعوبة ما لم يجد معه حيلة ، فلقد قسمت الأراضي في الموارث ومهور النساء والديون والمعاملات وغيرها ، فأقر ما كان قبل عهده، ونهى

(١) اسبانيا المسلمة في القرن العاشر ص : ١٦١ من ترجمة الدكتور عبد الرحمن الأوكابي

(١) انظر هذا البحث في المجلد الثاني ص : ٨٥٤-٨٨٨

عن شراء الاراضى وبيعها بعد ذلك ، وكذلك حاول المنصور فى العصر العباسى فلم يستطع ، وهكذا طغت الاهواء على استقامة هذا التشريع العظيم .

قال الازاعى : اجمع رأى عمر وأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم لما ظهر على الشام « والعراق » على اقرار أهل القرى فى قراهم على ما كان بأيديهم يعمرونها ويؤدون خراجها ، ويرون انه لا يصح لاحد من المسلمين شراء هذه الاراضى طوعا ولا كرها ، لما كان من اتفاقهم على انها لاتباع ولا تورث (١) .

من هذا نعلم حكم اراضى مصر والشام والعراق فى العهود الاسلامية الاولى ، واذا أضفنا الى ذلك ، ما قدمناه من الادلة على جواز التأميم ، نؤكد لنا جواز « تحديد الملكية الزراعية » خاصة بعد ان رأينا بأعيننا الآثار الاجتماعية السيئة للملكيات الزراعية الكبيرة : من اهمالها وعدم استفادة الدولة من انتاجها كما ينبغى بالنسبة الى مساحتها الواسعة ، ومن انحطاط المستوى الماشى للفلاحين الذين يعمرونها ببجودهم ، ومن استبداد المالكين الكبار بشؤون معيشتهم واهمالهم لصحتهم وازدراهم بكرامتهم كل ذلك يجعل تحديد الملكية الزراعية بحيث يملك الفلاحون ما يزرعونه من الارض منذ مئات السنين عملا اصلاحيا كبيرا ، وضرورة اجتماعية ملحة .

ومما يؤيد جواز التحديد اتفاق الفقهاء على مبدأ « سد الدرائع » وقولهم بوجوب تحديد ربح المحتكرين عندما يتأكد تحكيمهم فى فرض الاسعار كما يريدون مع اضرار ذلك بالشعب ، وتحديد ملك الانسان للمال كتحديد ربحه فى المال ، فاذا جاز هذا جاز ذلك ، ويؤيده ان ملك الانسان لقدر معين من الارض مباح ، فاذا رافى الامام انه لا يصح تملك أكثر من ذلك كان من الواجب اطاعته ، لان ذلك حق من حقوقه فى السياسة الشرعية ، وقد نص فقهاء الملكية على ان للامام أن يمنع أو يحد من زراعة العنب فى قرية اعتاد أهلها أن يزرعوا العنب ليتخذوا منه عصيرا للخمر ، وذلك من قبيل الاستصلاح . وقد حد عمر من حرية كبار الصحابة فى الانتقال من المدينة الى غيرها من الامصار ، مع ان الانتقال حق طبيعى للانسان ، فما الفرق بين « الحد » من حرية الانتقال و « الحد » من الربح و « الحد » من حرية الزراعة ، وبين « الحد » من التملك ؟

المهم عندنا ان « التحديد » اذا اقتضته مصلحة الامة كان جائزا بل واجبا وله شواهد فى الفقه الاسلامى ، وسوابق تشبهه فى تاريخ الحكم الاسلامى ، ومن اعترض على ذلك بظواهر نصوص الشريعة القاضية بأن للانسان أن يملك ما يشاء من الارض ، فجوابنا عليه ما قدمناه فى بحث التأميم ، من أن هذا الحق ليس مطلقا ، بل هو مقيد بمصلحة الجماعة ، وليس فى الاسلام « حق » لا يخضع لمصلحة الجماعة ، ومن انكر هذا فقد أساء الفهم للإسلام ، وصدد عنه من حيث لا يريد .

(١) انظر هذا البحث فى المقيم، لابن لامية ٢/٥٨٤/٥٨٨

ولهذا كله نحن نرى أن تحديد الملكية الزراعية بقانون كقانون الإصلاح الزراعي الذي صدر في مصر أولاً ، ثم في أقليمنا «الشمالى» ثانياً أمر تجيزه مبادئ التشريع في الإسلام ، والواقع التاريخي للحكم الإسلامى ، بل إن واقعنا الحاضر ، ووجوب رفع الظلم ورد الكرامة الى الفلاحين في أراضي الملكيات الكبيرة ، يجعل هذا التحديد واجباً من أهم واجبات الدولة ، اتنا نقر المبدأ الذى قام عليه قانون الإصلاح الزراعي ونعتبره فاتحة خير في نهضتنا العتيدة ، بقطع النظر من تفاصيله وبعض أحكامه .

ولسنا نقول هذا القول « تحديد الملكية الزراعية » الان في عام ١٩٥٩ فحسب ، بل قلناه من قبل ، منذ عام ١٩٤٩ حين كنا في الجمعية التأسيسية « في سوريا » أثناء وضع الدستور ، لقد كان الصراع عنيفاً بيننا وبين المالكين الكبار ، اذ كنا ننادى بوجوب النص في الدستور على مبدأ تحديد الملكية الزراعية ، على أن يتخذ هذا التحديد فور صدور الدستور لكل الملكيات الزراعية الموجودة ، وكانوا يعارضون في ذلك معارضة شديدة ، وأخيراً تفضلنا عليهم في اقرار الدستور الذى صدر عام ١٩٥٠ لمبدأ التحديد ، وتفضلوا علينا في جعل التحديد يسرى على الملكيات الزراعية التى ستنشأ في المستقبل ، دون أن يكون لذلك مفعول رجعى ، بحيث لا يمس الملكيات القائمة . . وهكذا كنا نحن الذين ننادى بتحديد الملكية الزراعية «رجعيين» وكان الاقطاعيون الكبار «تقدميين» .

ثم استمررنا بعد ذلك على المناداة بمبدأ تحديد الملكية الزراعية في محاضراتنا العامة في مدن لبنان - أثناء هجرتنا اليه بعد خروجنا من السجن في عهد أليشيشكلى - ثم في مدن الاقليم الشمالى وقراه الى أن صدر قانون الإصلاح الزراعي .

قوانين التكافل الاجتماعى

الناس في مجتمعهم الذي يعيشون فيه يحتاج بعضهم الى بعض في كل شؤون الحياة ، وهم في مجموعهم يؤلفون قوة متماسكة لا تبدو في تمامها واكتمالها الا بقوة كل فرد من أفرادها وسعادته ، كالجيش لا تتم له قوته كاملة الا اذا كان كل فرد فيه قويا في جسمه ومعنوياته ، وبمقدار ما تتوفر هذه القوة للأفراد يعتبر المجتمع قويا ، وبمقدار ما تتوفر للسعادة لكل فرد فيه يعتبر سعيدا .

وقد فطن العالم في عصره الحديث الى هذه الحقيقة ، وبدأ ينادي « بالتكافل الاجتماعي » بين أفراد المجتمع ، وقصر مفهوم التكافل الاجتماعي على تحقيق المطالب المعاشية للفئات المحرومة من الغذاء والكساء والسكن وما أشبهها .

بيد ان الاسلام قد فطن الى هذه الحقيقة منذ أربعة عشر قرنا ، فبعد ان قرر لكل مواطن تلك الحقوق الخمسة التي لاتتم كرامة الانسان وسعادته بفقدان واحد منها ، نظر الى الذين تحول ظروف الحياة بينهم وبين تمتعهم بها ، فاعتبر المجتمع هو المسؤول عن تحقيقها لهم ، ومن هنا انبثقت فكرة « التكافل الاجتماعي » في اشتراكية الاسلام .

والاسلام حين ينادي في اشتراكيته بفكرة « التكافل الاجتماعي » لايجعلها قاصرا على المطالب الفدائية او السكنية او الكسائية وما أشبهها فحسب ، بل يجعله شاملا للحقوق الخمسة التي تحدثنا عنها ، وبذلك جاءت فكرته عن « التكافل الاجتماعي » شاملة لكل نواحي الحياة المادية والمعنوية .

مبدأ التكافل الاجتماعي في الإسلام :

يتجلى اعلان الاسلام لمبدأ التكافل الاجتماعي في نصوص كثيرة من القرآن والسنة :

ونحن نحتجئ الآن بنصين من كتاب الله تعالى ، وبثلاثة من حديث رسوله صلى الله عليه وسلم .

١ - فمن القرآن الكريم : « انما المؤمنون اخوة (١) » .

ان اعلان « الاخاء » بين أفراد مجتمع ما ، يوجب التكافل بينهم لا في الطعام والشراب وحاجيات الجسم فحسب . بل في كل حاجة من حاجيات الحياة . اتري الاخ يحرص على طعام اخيه الجائع وكساء اخيه العريان . وسقاء اخيه العطشان فحسب ؟ أم هو يحرص على حياته وحرته وثقافته وكرامته ومكانته الاجتماعية أيضا ؟ ألا تراهُ يحزن لحزنه ولو كان هذا الاخ طاعما كاسيا ؟ ألا تراهُ يضطرب لمستقبله وحاضره ولو كان هذا الاخ مستقرا ثاويا ؟

ان تقرير « الاخاء » بين اثنين . هو تقرير للتكافل والتضامن

بينهما في المشاعر والاحاسيس . وفي المطالب والحاجيات . وفي المنازل والكرامات هذه هي حقيقة « التكافل الاجتماعى » في اشتراكية الاسلام ..

٢ - وجاء في القرآن الكريم ايضا : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان (١) » .

والتعاون هو التكافل والتضامن في تحقيق امر ما . وهذه الآية توجب التكافل على البر والتقوى . فما هو البر ؟ وما هي التقوى في الاسلام ؟

اننا لا نريد ان نستنتج من نصوص القرآن مالا يفقهه ويصل الى حقيقة معناه الا العلماء الفاضلون على اسرار الشريعة ، المحيطون بأصولها ومبادئها .

ولكننا نريد ان نعرف معنى البر والتقوى من نصوص القرآن الصريحة . فما معناهما في القرآن ؟

معنى البر في القرآن :

١ - جاء البر في القرآن بمعنى حسن المعاملة وطيب العشرة ومكارم الاخلاق . والبعد عن اعمال الشقاوة والظلم : «

وفيه ورد قوله تعالى « وبرا بوالدتي ولم يجعلنى جبارا شقيا(٢) »

٢ - وجاء بمعنى الانفاق والبلد في سبيل الله وهو كل طريق للحق والخير والنفع :

وفيه ورد قوله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون(٣) »

٣ - وجاء بمعنى العبادة من صلاة وزكاة .

وفيه ورد قوله تعالى بعد امر بنى اسرائيل باقامة الصلاة وابتاء الزكاة : « أأمرؤن الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ؟ (٤) » .

٤ - وجاء بمعنى مجموعة من الفضائل النفسية والامتعادية والخلقية . وفيه ورد قوله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب . ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين . وأتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب . وأقام الصلاة وآتى الزكاة . والوفون بمعهدهم اذا عاهدوا . والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » (٥) .

معنى التقوى في القرآن :

لما تحديد معنى « التقوى » فقد جاء واضحا صريحا فى عديد من آيات القرآن الكريم :

(٢) سورة مريم : ٣٢ .

(٤) سورة البقرة : ٤٤

(١) المائدة : ٢

(٣) سورة آل عمران : ٩٢

(٥) البقرة : ١٧٧

١ - فقد جاء بمعنى مجموعة من الفضائل الاعتقادية والنفسية والخلقية كما ذكرناه في الفقرة الرابعة من تخديد معنى ألب ومثله قوله تعالى : « ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون (١) » .

٢ - وجاء بمعنى تعظيم أحكام الله وشرائعه : « ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب (٢) » .

٣ - وجاء بمعنى العفو والتسامح : « وان تعفوا اقرب للتقوى (٣) »

٤ - وجاء بمعنى العدل ومجانبة الظلم : « اعدلوا هو اقرب للتقوى (٤) » .

٥ - وجاء بمعنى مايقابل الاثم والفجور : « فآلهما فجورهما وتقواهما (٥) »

٦ - وجاء بمعنى الصدق والحق : « والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون (٦) » .

٧ - وجاء بمعنى الوفاء بالعهد : « فاتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين (٧) » .

٨ - وجاء بمعنى الجهاد بالمال والنفس : « ان يجاهدوا بأموالهم وانفسهم والله عليم بالمتقين (٨) » .

٩ - وجاء بمعنى عدم الطفيان والفساد في الارض : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين (٩) »

١٠ - وجاء بمعنى خشية الله واثابة القلب : « واأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون لكل أبواب حفيظ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب (١٠) » .

١١ - وجاء بمعنى القيام بشئون المحرومين والمحتاجين وابتائهم حقوقهم التي شرعها الله في دينه : « ان المتقين في جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم اللهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالاسحار هم يستفكرون ، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم (١١) » .

(٢) الحج : ٣٢

(٤) المائدة : ٨

(٥) الشمس : ٨

(٧) التوبة : ٤

(٩) القصص : ٨٣

(١١) اللزاريات : ١٩:١٥

(١) البقرة : ٣١

(٣) البقرة : ٢٣٧

(٤) المائدة : ٨

(٦) الزمر : ٣٣

(٨) التوبة : ٤٤

(١٠) سورة ق : ٣١

١٢ - وجاء بمعنى هجر الظالمين وعدم توليهم والركون اليهم : « وان الظالمين بعضهم اولياء بعض ، والله ولي المتقين (١) » .

٣ - وجاء في الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم : « ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى (٢) »

وهذا نص في تكافل المجتمع ومسئولية افراده عن الام فرد واحد منه لا نرى معه حاجة الى زيادة في الشرح والايضاح .

٤ - وجاء في الحديث الصحيح عنه ايضا : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا (٣) »

ثم شبك رسول الله صلى الله عليه وسلم بين اصابعه تأكيدا لمعنى « يشد بعضه بعضا » .

وهذا ايضا مما لا يحتاج الى شرح دلالته على مبدأ التكافل الاجتماعي .

قال المناوي في شرح هذا الحديث : « وذلك لان اقوامهم لهم ركن ، وضعيفهم مستند لذلك الركن القوى ، فاذا والا قوى بما يباطنه » ثم نقل عن الراغب قوله : انه لا صعب على كل احد أن يحصل لنفسه ادنى ما يحتاج اليه الا بمعاونة عدة له ، فلقمة طعام لو عددنا تعب تحصيلها من زرع وطحن وخبز وصناعاتها لصعب حصره ، فلذلك قيل ، الانسان مدني بالطبع ، ولا يمكنه التفرد عن الجماعة بعيشه بل يفتقر بعضهم لبعض في مصالح الدارين وعلى ذلك نبه بهذا الحديث (٤) .

٥ - ولعل ما جاء في الحديث من وضع قواعد التكافل الاجتماعي قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن احدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه (٥) »

اترى الانسان يحب لنفسه الخبز واللحم والثوب والنعاء فحسب أم هو يحب لنفسه قبل ذلك كله ، الحياة والكرامة والحرية والعلم وكل ما تتحقق به سعادة الحياة ؟

انواع التكافل الاجتماعي في الاسلام

يتضح مما ذكرناه من الآيات ان الله امر بالتعاون والتكافل على جميع معاني البر والتقوى ، ومما ذكرناه من الاحاديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم نص بكل صراحة على قيام التكافل الاجتماعي بمعناه

(١) رواه البخاري في الادب المفرد ورواه

(١) الباقية : ١٩ .

مسلم واحمد .

(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي (٤) قيض القدير : ٢٥٢/٦

(٥) رواه البخاري ومسلم واحمد والترمذي وغيرهم .

الشامل الواسع ، وبذلك تكون له في اشتراكية الاسلام مظاهر متنوعة ، ونحن نذكر منها بإيجاز أهمها وأزومها لسعادة المجتمع :

أولا - التكافل الأدبي :

وذلك أن يشهر كل واحد نحو الآخرين بشعور الحب والعطف وحسن المعاملة والتعاون في سراء الحياة وضرائها ، وقد دل عليه قوله صلى الله عليه وسلم : « أحب للناس ما تحب لنفسك (١) » .

ثانيا - التكافل العلمي :

وقد قدمنا في حق العلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوجب على العالم أن يعلم الجاهل ، وعلى الجاهل أن يتعلم من العالم . ويدخل في ذلك أن لا يضمن العالم بعلمه على الناس ، وأن لا يكتف ما أدركه من أسرار الشريعة أو الكون ، لكي ينفرد بالرئاسة العلمية أو التميز العلمي ، وقد جاء في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « من كتم علما لجمه الله بلجام من نار يوم القيامة (٢) » .

ثالثا - التكافل السياسي :

وقد قرر الاسلام أن كل مواطن له حقه السياسي ، وله حقه في المراقبة والنصح لأولياء الأمور لأنه مسئول عن مستقبل الأمة ، وما كان كذلك فالمجتمع كله متكافل في تأييد السياسة الرشيدة ، وانكار الفساد والانحراف فيها ويدخل ذلك تحت عموم قوله صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته (٣) » .

ويؤكداه قوله صلى الله عليه وسلم : « المسلمون تتكافأ دماؤهم فيسمى بدمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم (٤) » .

ومن هنا أجمع الفقهاء على أنه إذا أجاز مسلم ، رجلا حريبا وأعطاه الأمان ، فقد أصبح هذا الأمان محترما تلزم به الدولة مهما كان المجر عالما أو جاهلا ، قويا أم ضعيفا رجلا أم امرأة إلا إذا اقتضت مصلحة الدولة خلاف ذلك .

ويؤيد هذا أن أم هانئ قد أجارت رجلا مشركا في فتح مكة والراد بعض المسلمين أخذه وقتله لأنه محارب ، فترافعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الرسول مخاطبا أم هانئ : « قد أجرنا من الجرت يا أم هانئ » وكف المسلمون عنه .

(١) رواه الحاكم والطبراني وابن سعد وغيرهم ، ويؤيده الحديث المتقدم « لا يؤمن

احدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه » .

(٢) رواه أبو داود والترمذي والحاكم وغيرهم باللفظ متقاربة .

(٣) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

(٤) رواه أبو داود وغيره .

رابعاً - التكافل الدفاعي :

وذلك أن كل مسلم في الدولة عليه أن يتسكافل مع بقية مواطنيه بالدفاع عن سلامة البلاد ، وعليه النفي إذا أغار عدو مغير على ناحية منها بحيث أصبحت الأمة في حالة استنفار ، وفي ذلك نزل قوله تعالى : « انفروا خفافاً وثقلاً (١) » ولا يعفيه من هذا الواجب مقام ولا منزلة إلا أن يكون به مرض أو عي أو عرج أو عثر من الأعذار .

ويقرر الفقهاء أن الإعداء إذا أسروا واحداً منا في المغرب وجب على آخر رجل بالشرق أن يهب مع أخوانه لاستنقاذه وتخليصه من أيدي الإعداء .

والواقعة التاريخية التي استغاثت فيها امرأة مسلمة أسرها الروم فقالت : « وا معصماه ! » فهب المعتصم من بغداد بجيش قوى وخاض المعارك حتى خلصها من الأسر ، أن هذه الواقعة التاريخية وأمثالها مشهورة في التاريخ الإسلامي ، فما أبعد واقعنا في الجزائر وعمان وفلسطين وغيرها عن التكافل الدفاعي في الإسلام وعن واقعنا بالأمس .

خامساً - التكافل الجنائي :

وذلك أنه إذا جنى جان على إنسان ما ولم يعرف قاتله ، الزم الشارع أن ينظر إلى المكان الذي وجد فيه القتل فيختار أولياء الدم خمسين رجلاً من ذلك المكان يقسمون أنهم لا يعرفون القاتل ولا يؤونه عندهم ، فإذا أقسموا حكم الشارع بدية القتل تعطى لأوليائه ، فإن عجز المحكوم عليهم بالدية عن دفعها دفعها بيت المال . وكذلك الحكم في كل من وجبت عليه دية قتل وعجز هو وعاقلته عن دفع الدية ، لزم بيت المال .

وفي نظام القسامة الذي ذكرناه آنفاً ، الزام بيت المال بالدية عند العجز معنى واضح من معاني التكافل في تحمل آثار الجرائم ، لأن بيت المال هو خزانة الشعب ففي الزامه بدفع الدية تحميل لكل فرد في الأمة أثار تلك الجناية .

ومن هنا جاء المبدأ الرائع في أحكام الجنائيات : « لا يطل دم في الإسلام » ومعناه لا تقع جريمة قتل في المجتمع الإسلامي دون أن يقتض من فاعلها ، فإذا لم يعرف القاتل استحق أهل القتل دية قتلهم أما من بيت المال وأما من أهل القسامة .

سادساً - التكافل الأخلاقي :

يعتبر الإسلام المجتمع مسئولاً عن صيانة الأخلاق العامة لأن بها حفظة من الفوضى والفساد والانحلال ، وبذلك وجب أن يشكر المجتمع على مرتكبي المنكرات الخليقة وغيرها ، ولا يعتبر الإسلام هذا دخلاً منه في الحريات الشخصية لأن الفساد والمنكر يأتي على بنين الأمة من القواعد ولم يفهم أحد في الشرق والغرب نختي الآن أن من معنى الحرية أن تسمح لكل إنسان في أن يهدم بيتك الذي تسكنه !

وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً بديعاً للتكافل الإخلاقي في الأمة ، ذلك التكافل الذي يأخذ على أيدي العابثين والمخربين بقوله : « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم (منعوه) من خرق السفينة) نجوا ونجوا جميعاً (١) » .

ولهذا التكافل الإخلاقي جاء الشارع صلى الله عليه وسلم يقول : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان (٢) » .

سابعاً - التكافل الاقتصادي :

يولى الإسلام عنايته الكبرى باقتصاد الأمة ، فيعمل على حفظ ثروات الأفراد من الضياع والتبذير ، ويمنع سوء استعمال الاقتصاد الوطني بالاحتكار والتلاعب بالأسعار والفش في المعاملات وغير ذلك .

ولهذا أوجب على الدولة أن تحول دون الاحتكار والتلاعب والفش وأن تضرب على أيدي المحتكرين بيد من حديد ، بل وأن تصدر بضائهم المحتكرة وتوزعها على الشعب بأسعار معتدلة وبيع معقول .

وأوجب على الدولة أيضاً منع المجانين والمعتوهين والسفهاء المبلرین من التصرف في أموالهم حتى يعقلوا أو يشوبوا إلى الرشيد ، وفي ذلك جاء ما قدمناه من قوله تعالى : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً » وقد قدمنا ما تدل عليه هذه الآية من مصان تعلق بأحكام الحجر .

ثامناً - التكافل العبادي :

هناك في الإسلام شعائر وطاعات يجب أن يقوم بها المجتمع ويحافظ عليها بمجموعه ، وتسمى بفروض الكفاية في العبادات ، كصلاة الجماعة ، فان الميت إذا مات وجب على المجتمع تكفينه والصلاة عليه ودفنه ، فإن لم يتم بذلك أحد أئم المجتمع كله .

ومثل ذلك الاذان لاداء الصلاة ، واقامة الجماعة في الاوقات الخمسة واقامة الجمعة وغير ذلك ، والمجتمع متكافل في اقامة ذلك كله كعمل من أعمال الحياة الروحية والاجتماعية التي يسعد بها المجتمع .

تاسعاً - التكافل الحضاري :

كل ما يفيد الجماعة من عمل دنيوي أو ديني ، سياسي أو اقتصادي ،

(١) رواه البخاري والترمذي .

(٢) مسلم والترمذي والنسائي وغيرهم .

نراعى أو تجارى ، علمى أو أدبى ، هو من البر الذى يحبه الله لعباده ، ويرغب لهم أن يتعاونوا عليه .

قال صلى الله عليه وسلم : « الخلق كلهم عيال الله وأحبهم اليه أنفعهم لعياله (١) » .

فالعمل النافع للمجتمع الانسانى كله محبوب عند الله ، وهو من البر الذى أمرنا أن نتعاون ونتضامن فى تحقيقه « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان (٢) » .

عاشرا - التكافل المعاشى :

ونعنى به ماخصص اليوم باسم « التكافل الاجتماعى » من الزام المجتمع برعاية أحوال الفقراء والمسننين والمرضى وذوى الحاجات ، وسنذكر ما جاء فى اشتراكية الاسلام من أحكامه وقوانينه عقب الانتهاء من هذا البحث مباشرة .

وقد فضلنا تسمية هذا النوع من التكافل بالتكافل المعاشى لئلا نحاجى لانه يتعلق بكفالة المجتمع لمعيشة هؤلاء معيشة كريمة تليق بكرامة الانسان .

وتخصيصه باسم « التكافل الاجتماعى » خطأ ناشئ من اخذنا هذه التسمية عن الغربيين ، فان الغربيين لا يلزمون أنفسهم الآن بتكافل المجتمع مع الافراد الا فى شئون المعيشة المادية فحسب من طعام ولباس وسكن اما ما عدا ذلك من نواحي التكافل الاجتماعى فلا يعرفونه ولا يؤمنون به فى هذه الحضارة .

وكيف يؤمنون بالتكافل الادبى ، أو الدفاعى ، أو الاخلاقى ، أو الجنائى ، أو غير ذلك مما ذكرناه ، وحضارتهم قائمة على الحرية الاخلاقية والانانية الفردية ، والنظرة المادية ، والعزلة الروحية ، والفقير الروحى ، مما تحدثنا عنه فى كتابنا « من روائع حضارتنا » .

ان اشتراكية الاسلام تعتبر تكافل المجتمع كله فى رد الحرية الى اسير مفلوب على امره ، أو رد العقل والاتزان الى ماجن خليع مفلوب على ارادته ، هو من حقيقة التكافل الاجتماعى كما يكون تكافل المجتمع فى اطعام جائع ، واسعاف مكروب .

ولهذا كان « التكافل الاجتماعى » فى اشتراكية الاسلام مما تميزت به هذه الاشتراكية الانسانية الاخلاقية عن كل اشتراكية معروفة اليوم ولو طبقت فى مجتمعنا لكان مجتمعنا مثاليا لا يذانب فى رقية مجتمع آخر .

(١) رواه البزار .

(٢) للمائدة : ٢

قوانين التكافل المعاشي

تنقسم القوانين التي جاءت في اشتراكية الاسلام لتحقيق المعيشة الكريمة للفئات المحرومة ١ والضعيفة الى قسمين رئيسيين .

١ - القوانين التي نصت على الفئات التي تستحق التكافل وعلى احكامها .

ب - القوانين التي عينت الموارد المالية التي تعين على تحقيق التكافل لتلك الفئات وستنكم عن كل منها كلاما موجزا من غير اسهاب .

١ - الفئات التي تستحق التكافل

هي فئات يتميز اكثرها بالعجز والفاقة : وقد وضعت لها القوانين التي تعين احكامها وهي :

١ - قانون الفقراء والمساكين .

٢ - قانون المرضى .

٣ - قانون العميان .

٤ - قانون المقعددين .

٥ - قانون الشيوخ .

٦ - قانون المشردين .

٧ - قانون الملقطاء .

٨ - قانون اليتامى .

٩ - قانون الاسرى .

وهناك فئات قد لا تنصف بالفقر ولا بالمعجز ولكنها تحتاج الى المساعدات المالية وغيرها ، ونذكر من قوانينها :

(*) قد مشينا في الطبعة الاولى على تسمية هذه القوانين بقوانين التكافل الاجمالي تمشيا مع اصلاح الشائع . ولقد تبين مما ذكرناه في هذه الطبعة عن حقيقة التكافل الاجتماعي في اشتراكية الاسلام انه اوسع دائرة وشمولا من معناه المصطلح عليه عند الغربيين .

١٠ - قانون المساءة :

وهو يشمل :

١ - المدين اذا لزمته الديون بسبب التجارة ، او بسبب بعض الاعمال الاجتماعية ، كما اذا تحمل زعيم في منطقة ما ، ديات القتلى من المتخاصمين لصيانة الدماء واحلال الوئام محل النزاع ، او تحمل الاموال لعمل المبرات والخيرات الاجتماعية ، فان ديونه تسدد من بيت المال وهو داخل في قوله تعالى « والفارمين » .

٢ - القاتل اذا قتل خطأ ، فان دية القتل لا يتحملها وحده ، بل تتحملها عاقلته وهم عصبتهم من اقربائه او اهل ديوانه او اهل نقابته ، على تفصيل يعرف في موضعه من كتب الفقه .

٣ - المنقطع في بلد غير بلده ، ويسمى « ابن السبيل » فيعان حتى يصل الى بلده ولو كان فيها غنيا .

١١ - قانون الضيافة :

وحكم الضيافة في الاسلام انها واجبة - عند بعض العلماء - او سنة عند اكثرهم ، ليلة واحدة باكرام زائد ، ثم لثلاثة ايام بالحالة المعتادة ، وما زاد على ذلك فهي متوقفة على ارادة من ينزل عليه الضيف ، وأصل ذلك قوله عليه السلام : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، جائزته يوم وليلة ، والضيافة ثلاثة ايام وما بعد ذلك فهو صدقة ولا يحل له أن يثوى عنده (يقيم) حتى يعرجه (١) » قال مالك في قوله عليه السلام : « جائزته يوم وليلة » يتحفه ويكرمه ويخصه يوما وليلة ، وثلاثة ايام ضيافة .

وقال ابن حزم : الضيافة فرض على البدوي والحضرى يوم وليلة ، مبرة واتحاف ثم ثلاثة ايام ضيافة (٢) .

وقد كانت الضيافة في العصور الماضية ضرورة من الضرورات الاجتماعية وخاصة في القرى والصحارى تأمينا لهذا الحق الاجتماعى وهو الاكل والمبيت للمسافرين ، وقد كللت تفرض في معاهدات الصلح ولهذا دلالة الكبيرة .

ولا تزال كذلك في عصرنا الحاضر في بعض الحالات كالقرى النائية أو الصغيرة التى ليس فيها فنادق أو مطاعم ينام فيها المسافرون ويأكلون

١٢ - قانون المشاورة :

وذلك حين يحين وقت المواسم الزراعية وخاصة الثمار والفواكه ،

(١) رواه البخارى وصلىم وغيرهما

(٢) المع : ١٧٤/٩

فان من حق المواطنين الذين لا يجدون ما يشترون به الثمار اiban قطعها لقلاء ثمنها ان يأكلوا منها من غير ثمن ، وأصل ذلك مأخوذ من قوله تعالى : «كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ» وقد نقل القرطبي عن بعض الصحابة والتابعين القول بذلك ، ورواه أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال مجاهد : إذا حصدت فحضرك المساكين فاطرح لهم من السنبيل وإذا جذدت فآلق لهم من الثمار، وإذا درستته وذريته فاطرح لهم منه (١) وكان الصحابة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم يأتي كل واحد من أصحاب النخيل بقنو (العذق) كالعتود من العنب (عند جذاده ثم يعلقه على باب المسجد يأكل منه من يشاء (٢) .

وكذلك حين تقسم التركة بين الوارثين ويحضرها من لا يرث ولو كان غير قريب إذا كان فقيراً . فيجب على الوارثين أن يعطوا هؤلاء منها شيئاً ، عملاً بقوله تعالى : « وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً » قال القرطبي : بين الله تعالى - في هذه الآية - أن من لم يستحق ارثاً وحضر القسمة ، وكان من الاقارب أو اليتامى والفقراء الذين لا يرثون أن يكرموا ولا يجرموا أن كان المال كثيراً ، والاعتذار اليهم أن كان عقاراً أو قليلاً لا يقبل الرضخ (العطاء) وأن كان عطاء من القليل ففيه أجر عظيم ، وقد نقل عدد من الصحابة والتابعين والفقهاء القول بهذا ، قال ابن عباس : أمر الله المؤمنين عند قسمة موارثهم أن يصلوا أرحامهم ويتامهم ومساكينهم من الوصية ، فان لم تكن وصية وصل لهم من الميراث ثم ذكر الخلاف في أن ذلك واجب أو مندوب (٣) .

١٣ - قانون المساعون :

يقول الله تعالى : « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراعون ويمنعون المساعون (٤) » المساعون كل ما ينتفع به من شئون البيت وغيره ويستعيره الناس فيما بينهم كالنفاس والقدس والدلو وأمثالها (٥) قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : أي لا أحسنوا عبادتهم ولا أحسنوا إلى خلقه حتى ولا باعارة ما ينتفع ويستعان به مع بقاء عينه ورجوعه اليهم وعن مجاهد قال : على المساعون الزكاة وكذا روى علي وابن عمر وبه يقول كثير من التابعين ، ويعد أن ذكر ما جاء من أقوال كثيرة في تفسير المساعون قال : وقال عكرمة رأس المساعون زكاة المال وأدناه المنخل والدلو والابرة وهذا الذي قاله عكرمة حسن فإنه يشمل الأقوال كلها وترجع كلها إلى شيء واحد وهو أي - منع المساعون - ترك المعاونة بمال ومنفعة (٦) .

(٢) معالم السنن : ٧٥/٢

(١) النظر تفسير القرطبي : ٩٩/٧

(٣) النظر تفسير القرطبي : ٤٨/٥ ، ٩٩ والآية في سورة النساء : ٨

(٥) تفسير ابن كثير : ٥٥٥/٤

(٤) سورة المساعون : ٧/٥

(٦) المرجع السابق : ٥٥٦/٤

وقال الخطابي : يقال في تفسير المأمون انه الشيء الذي لا يجوز منعه من الارفاق (المنافع) التي للناس فيها متاع . ثم ذكر حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم « وما من صاحب ابل ولا غنم لا يؤدي حقها الخ » فستل رسول الله صلى الله عليه وسلم : فما حق الإبل ؟ قال : تعطى الكريمة ، وتمنع الغزيرة ، وتقفر الظهر ، وتطرق الفحل ، وتسقى اللبن (١) .

وروى أبو عبيد القاسم بن سلام عن سعيد بن المسيب والحسن وقادة وغيرهم من فقهاء التابعين أن زكاة الحلي اعارته (٢) .

١٤ - قانون الإعصاف :

يقول تعالى : « واتكحوا الأيامي منكم والصالحين من عبادكم وأماكم (٣) » وقد قرر الفقهاء أن الزواج واجب على من كان في حاجة اليه ويخاف على نفسه الوقوع في الحرام ، ثم ان كان فقيرا لا يجد نفقات الزواج وجب على قريبه المورس تزويجه كماتجب عليه نفقة طعامه ولباسه وسكنه - وهذا هو رأى جمهور العلماء - حتى لو كان له رقيق وجب عليه تزويجهم رجلا كانوا أم نساء ، اذا طلبوا ذلك لحاجتهم الى الزواج . أما الأب فعلى الابن تزويجه اذا احتاج الى ذلك ، وعلى الابن نفقة زوجته أيضا ، وأما الابن فعلى الأب تزويجه في رأى جمهور الفقهاء وسيأتي معنا في فصل الواقع التاريخي بيان ماكان يوقف خاصة لتزويج الفتيان والفتيات الفقراء .

وهناك قوانين للتكافل الاجتماعى في الحالات النادرة والطارئة ، ولنتكلم عنها بكلمة موجزة .

١٥ - قانون الإسعاف :

إذا جاع انسان أو عطش أو مرض بحيث أشرف على الهلاك وجب على من يعلم بحاله أن يبادر الى انقاذه ، فان كان عنده فضل من طعام أو شراب أو دواء أو مال يشتري به مايدفع الهلاك عن ذلك الانسان وجب أن يدفعه اليه ، فان امتنع كان لذلك المضطر أن يأخذه منه عنوة ويقاقله عليه . فان قتل كان على المانع القصاص ، وأن قتل المانع لم يكن على قاتله المضطر شيء . . وعلى هذا اتفاق العلماء ، قال ابن حزم : « من عطش فخاف الموت فرض عليه أن يأخذ الماء حيث وجدته وأن يقاقل عليه ، ولا يحل لمسلم اضطر أن يأكل ميتة أو لحم خنزير وهو يجد طعاما فيه فضل عن صاحبه ، لان فرضا على صاحب الطعام اطعام الجائع . فاذا كان ذلك كذلك فليس بمضطر الى الميتة ولا الى لحم الخنزير ، وله أن

(١) معالم السنن شرح أبي خلدو ٧٥/٢ ، والغزيرة الكثيرة اللبن ، والمنيخة القساء اللبن أو الناقة ذات الدرتمار لدرما فاذا حلبت ردت الى ردها ، واقفار الظهر اعارته الركوب حتى يبلغ الراكب حاجته ، وإطراق الفحل اعارته للضراب لا يمنعه اذا طلبه ولا يأخذ عليه غسبا ، (٢) الاموال : ٤٣٣ (٣) النور : ٣٢

يقاتل عن ذلك ، فان قتل (الجائع) فعلى قاتله القود (القصاص) وانه قتل المانع فالى لعنة الله ، لانه منع حقا وهى طائفة باغية . قال تعالى : « فان بغت احسدهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تقىء الى امر الله (١) » « ومانع الحق باغ على اخيه الذى له الحق (٢) » . . .

وهكذا انما يتصور فى مكان كالصحراء أو حيث لا يجد طعاما ، أو حيث لا يقوم بيت المال بواجبه فى التكافل الاجتماعى ، أو يتخلى المجتمع عن القيام بهذا الواجب . . وهذا حق لا مرأ فيه .

ومما يؤيده - عدا النصوص والقواعد العامة فى الشريعة - ما حدث فى عهد عمر بن الخطاب إذ ورد جماعة على ماء وكانوا فى حالة من العطش أشرفوا فيها على الهلاك هم ودوابهم ، فأبى أصحاب الماء أن يسمحوا لهم بالشرب منه « فلما وفدوا على عمر أخبروه بالامر . فقال لهم : « علا وضعتهم فيهم السلاح ؟ (٣) » .

« ومن اشتد جوعه حتى عجز عن طلب القوت . ففرض على كل من علم به أن يطعمه أو يدل عليه من يطعمه ، فإن امتنعوا من ذلك حتى ماتوا اشتروا فى الاثم قال عليه الصلاة والسلام « ما آمن بى من بات شبعا وجارم الى جانبه طاو » (جائع) وقال : « أى رجل مات ضياعا بين اقنياء فقد برئت منهم ذمة الله ورسوله » وكذا اذا رأى لقيطا أشرف على الهلاك أو أعمى كان أن يتردى فى بئر ، وصار هذا كإنجاء الغريق (٤) .

١٦ - قانون الطوارئ :

إذا أصبح العدو يهدد سلامة البلاد ، ولم يكن فى خزينته الدولة ما يكفى للانفاق على الجيش وتجهيز المقاتلين وشراء السلاح ، ويجب أن تأخذ الدولة من أموال الناس بقدر ما يندفع به الخطر ، وتأمين الأمة على أرواحها وأموالها واستقلالها ، لأن الجهاد - فى تلك الحالة - واجب بالمال والنفس على كل مستطيع ، وحق الانسان فى استبقاء ماله بيده ، دون حق المجتمع فى الحفاظ على حريته واستقلاله ، وفق دفع المواطن قسما من ماله للجهاد استبقاء لئاله كله من أن يأخذه الاعداء اذا تغلبوا ، ومن قواعد الشريعة « يجب دفع الضرر الأعلى بتحمل الأدنى » .

وهذا حكم متفق عليه ، قال الغزالي :

« اذا خلت الأيدي (أيدى الجنود) من الاموال ، ولم يكن من ماله المصالح (أى خزينة الدولة) ما يفي بخراجات العسكر (أى نفقات الجيش) وخيف من ذلك دخول العدو بلاد الاسلام أو توران الفتنة من قبل أهل الشر (أى حدوث الفتن الداخلية) جاز للامام أن يوظف على الاغنياء (أى يفرض) مقدار كفاية الجند ، لانا نعلم انه اذا تعارض شران أو ضرران

(٢) الملح : ٦٥٦/٦

(١) المحجرات : ٩

(٤) الاختيار شرح المخلو : ١٢٩/٣

(٣) الخراج الابن يوسف ص : ٩٧

« قصد الشرع دفع أشد الضررين وأعظم الشرين ، وما يؤديه كل واحد منهم (الاغنياء) قليل بالاضافة الى ما يخطر به من نفسه وماله لو خلت خطة الاسلام (أى البلاد) من ذى شوكة (أى الجيش) يحفظ نظام المرور ويقطع مادة الشرور ، ومما يشهد لهذا أن لولى الطفل عمارة القنوات (قنوات الارض الخاصة بالطفل) واخراج اجرة الطبيب ومن الادوية (أى العائدة للطفل) وكل ذلك تنجيز خسران لتوقع ما هو أكثر منه (١) » .

وقال الشاطبي :

« أنا اذا قررنا اماما مطاعا مفتقرا الى تكثير الجنود لسد حاجة النفور وحماية الملك المتسع الاقطار ، وخلا بيت المال وارتفعت حاجة الجند (أى نفقات الجيش) الى ما لا يكفيهم ، فلامام اذا كان عدلا أن يوظف على الاغنياء ما يراه كافيا لهم (الجيش) فى الحال ، الى أن يظهر (يوجد) مال بيت المال ثم الى النظر فى توظيف ذلك على الغلات والثمار وغير ذلك ، وانما لم ينقل مثل هذا عن الاولين (فى العصور الاسلامية الاولى) لاتساع بيت المال فى زمانهم بخلاف زماننا فان القضية فيه اخرى ووجه المصلحة هنا ظاهر . فانه لو لم يفعل الامام ذلك بطلت شوكة الامام وصارت ديارنا عرضة لاستيلاء الكفار . وانما نظام ذلك كله شوكة الامام فالذين يحذرون من الدواهي لو تنقطع عنهم الشبوكة (أى لو يضعف الجيش عن الدفاع) يستحقرون بالاضافة اليها اموالهم كلها فضلا عن اليسير منها فاذا عورض هذا الضرر العظيم بالضرر اللاحق بهم باخذ البعض من اموالهم فالاتماری فى ترجيح الثانى عن الاول ، وهو مما يعلم من مقصود الشرع قبل النظر من الشواهد الخ . (٢) » .

وقال القرطبي :

« وافق العلماء انه اذا نزلت بالمسلمين حاجة بعد اداء الزكاة فانه يجب صرف المسال اليها . قال مالك رحمه الله : يجب على الناس فداء اسراهم وان استغرق ذلك اموالهم وهذا اجماع ايضا (٣) » .

وقد وقع فى التاريخ الاسلامى تنفيذا هذا القانون أكثر من مرة ، ففى غزو التتار لبلاد الشام ، تاهب الظاهر بيبرس لقتالهم ، لكنه كان محتاجا الى الاموال لتجهيز الجيش والانفاق على المقاتلين ، ولم يكن فى بيت المال ما يقوم بذلك ، فاستفتى علماء الشام فى جواز اخذ شيء من اموال الشعب لتسديد نفقات الجيش فاقتوه جميعا بذلك ، وكان الامام النوروى غالبا فأرسلت اليه الفتوى ليوقعها فوافق على فتوى العلماء

(٣) الاعتصام : ١٠٤/٢

(١) المستصفى : ٣٠٤/١

(٢) جامع احكام القرآن : ٢٢٣/٢

بشرط أن يرد السلطان بيبرس كل ما عند جواريه وأعدوانه من حق.
وأموال الى بيت المال (١) .

وكذلك أراد ملك مصر (قطز) التجهز لقتال التتار استجابة لطلب
الملك الناصر صلاح الدين الايوبى صاحب حلب والشام يومئذ « فجمع
القضاة والفقهاء والاعيان لمشاورتهم فيما يعتمد عليه فى أمر انتتار وأن
يؤخذ من الناس ما يستعان به على جهادهم ، فحضروا وحضر الشيخ
عز الدين بن عبد السلام والقاضى بدر السنجائى قاضى قضاة الديار
المصرية وغيرهما من العلماء ، وتناقشوا فى الامر فكان الاعتماد على ما
يقوله ابن عبدالسلام ، وخلاصة ما قاله : انه اذا طرق العدو بلاد الاسلام
وجب على العالم (أى جميع أبناء الشعب) قتالهم ، وجاز لكم (الخطاب
للملك قطز) أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم بشرط
أن لا يبقى فى بيت المال شيء ، وتبيعوا ما لكم من الحوائص (٢) المذهبة
والالات النفيسة ، ويقتصر كل الجند على مركوبه وسلاحه ويتساووا
هم العامة (٣) » .

وفى أيام أمير المسلمين يوسف بن تاشفين (فى الاندلس) احتاج
الى مال لتجهيز الجيوش والوقوف فى وجه الاعداء ، ولم يكن عنده فى
بيت المال ما يسد تلك النفقات فجمع العلماء والقضاة ، منهم القاضى
أبو الوليد الباجى ، وسألهم فى ذلك فافتوه بالاجماع بأن له أن يأخذ من
المسلمين ما يفي بتلك الحاجات ، فأرسل الى المدن بهذه الفتوى ليطلب
من المسلمين أموالا لاعانته على ما هو فيه من الجهاد . ووصل الكتاب الى
أهل (المرية) وكان قاضيه يومئذ أبا عبد الله بن الفراء ، وهو من
الدين والورع على ما ينبغى فكتب الى أمير المسلمين ابن تاشفين
يقول :

« ما ذكره أمير المسلمين فى كتابه من أن أبا الوليد الباجى وجميع
القضاة والفقهاء بالعدوة والاندلس أفتوا بأن عمر بن الخطاب رضى الله
عنه اقتضاها ، وكان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبضجيعة
فى قبره ، ولا يشك فى عدله فليس أمير المؤمنين (أى يوسف بن تاشفين)
بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا بضجيعة فى قبره ، ولا من
لا يشك فى عدله ، فان كان الفقهاء والقضاة أنزلوك بمنزلته فى العدل .
فأله سألهم عن تقلدهم فيك ، وما اقتضاها عمر حتى دخل مسجد
رسول الله صلى الله عليه وسلم وحلف أن ليس عنده درهم واحد فى بيت
المال للمسلمين ينفعه عليهم . فلتدخل المسجد الجامع هناك بحضرة أهل

(١) من اخلاق العلماء : ١٧٩

(٢) جمع حياصهمى كساء موسى بالذهب يخلعه السلطان على اميرائه وأعدوانه فى
مناسبات خاصة (انظر اصبح الاضحى : ٥٥/٤)

(٣) النجوم الزاهرة : ٧٢/٧

العلم وتحلف أن ليس عندك درهم واحد - ولا فى بيت مال المسلمين .
وحيث أنه تستوجب ذلك (١) » .

وكذلك الحكم فى الكوارث العامة كالفيضانات والزلازل والمجاعة
وأمثالها ، فإن من واجب الدولة أن تسعف المنكوبين « لا بالخيام
والدقيق فحسب » بل بتأمينهم من الحياة الكريمة التى يحياها سائر
الناس ، ولما كانت خزينة الدولة تعجز فى الغالب عن القيام بهذا
الواجب الاجتماعى نحو المنكوبين ، فإنها تستطيع أن تفرض ضرائب
خاصة لهذه النكبات تستوفىها من الأغنياء كل على حسب ثروته ، وهذا
واجب التعاون على البر والتقوى الذى أمر به القرآن ، وهو من مستلزمات
الاخوة والتماسك التى يفرضه الاسلام شعارا للمجتمع ، وتوحيده قواعد
الشريعة وتوصفها التشريعية التى سنذكر بعضها فيما يلى :

صح فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه مدح
« الاشعرين » ان الاشعرين اذا ارملوا فى الغزو وفنى زادهم ، أو قل طعام
عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم
فى اداء واحد بالسوية فهم منى وأنا منهم (٢) » والاشعريون قبيلة من
العرب ينسب اليهم أبو موسى الاشعري .

وفى الحديث الصحيح : « من كان عنده طعام اثنى فليذهب بثالث ،
ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس » (٣) .
وقد حدث فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أن كان أبو عبيدة
عامر بن الجراح يجاهد مع ثلاثمائة من أصحاب الرسول صلى الله عليه
وسلم ففنى زادهم فأمرهم أن يجمعوا أزوادهم فى مزودين وجعل يقوتهم
اياها على السواء (٤) .

ولما كان عام المجاعة فى عهد عمر أرسل الى ولاية الامصار ليمدوه
بالطعام والاموال ، فأرسل له كل وال ما استطاع إرساله ، وكان يوزع
الطعام على الناس بالسواء ، ومما أثر عنه فى تلك المحنة قوله : لو
امتدت المجاعة لوزعت كل جائع على بيت من بيوت المسلمين فإن الناس
لا يهلكون على أنصاف بطونهم ، ولكن الله كشف المحنة وعاد الرخاء بعد
ذلك الى البلاد .

هذا وأمثاله هو السند التشريعى لقانون الطوارئ وأحكامه .

ومن قوانين التكافل الاجتماعى القانون التالى :

١٧ - قانون التعويض العائلى :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أتاه فىء قسمه من يومه ،
فأعطى الأهل حظين ، وأعطى العزب حظا واحدا (٥) . فهذا هو مبدأ
التعويض للزوجة .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٤) المحل : ١٥٨/٨

(١) روايت للاعيان : ١١٨/٦

(٣) رواه البخارى

(٥) الاموال لابي حنيفة : ٢٢٢

وكان الرجل اذا أراد أن يتزوج وليس عنده ما يدفعه مهرا جاء الى الرسول صلى الله عليه وسلم يطلب منه المهر الذي يدفعه لزوجته .
 « جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اني تزوجت امرأة من الانصار ، فقال عليه الصلاة والسلام : على كم تزوجتها ؟ قال على أربع أواق ! فقال النبي عليه السلام : على أربع أواق ؟ ! كأننا ننحتون الفضة من عرض هذا الجبل ! ما عندنا ما نعطيك ولكن عسى أن نبعثك بعثا تصيب منه (١) » .

وروى أبو عبيد أن عمر زوج ابنه عاصما وانفق عليه شهرا من مال الله (٢) .

وكان عمر يفرض لكل مولود عطاء يزداد الى عطاء أبيه (مائة درهم) كلما نما الولد زاد العطاء ، وقد جرى عليه من بعد ، عثمان وعلى والخلفاء من بعدهم (٣) . فهذا هو التعويض للأولاد .

هذا عدا ما هو مقرر في الفقه الاسلامي من أن نصيب الفارس المجاهد في غنائم الحرب سهم وللفرس سهمان وبعض المذاهب تعطى الراجل سهما ولل فارس سهمين ، وبعضها تعطيه - ثلاثة أسهم ، وما ذلك الا لما يتحمله الفارس من نفقات الفرس ، ولما دون عمر الدواوين كان يعطى الرجل على قدر حاجته كما كان يعطيه على قدر بلائه وخدمته للإسلام .

ومن ذلك يتقرر مبدأ التعويض العائلي على قدر حاجة الرجل وما يلزمه من نفقات .

ب - موارد نفقات التكافل

تلك القوانين التي وضعها الاسلام لتحقيق التكافل الاجتماعى بين المواطنين جميعا ، لا بد لها من موارد مالية لضمان تنفيذها والا ظلت نظرية بحتة ، وهذا ما عنى به الاسلام اتم عناية ، ولذلك جاءت القوانين المالية التالية جزءا من قوانين التكافل الاجتماعى :

١ - قانون الزكاة :

الزكاة هي الركن الثالث للإسلام وقد جاء الامر بها مقرونة بالصلاة في نحو من ثلاثين موضعا ، وتجب في الاموال النقدية وفي عروض التجارة بنسبة ٢.٥٪ وفي المواشى بنسبة كتلك النسبة تقريبا وفي ازروع والثمار بنسبة العشر في الاراضى المروية من غير كلفة كالتي تروى بمياه الامطار والينابيع ، ونصف العشر في الاراضى التى تروى بآلة ونحوها ، وهى تؤخذ من كل مال بلغ النصاب الشرعى لوجوبها وهو ٢٠ مثقالا من الذهب (ما يعادل ١٢٥ ليرة ذهبية عثمانية) أو ٢٠٠ درهم من الفضة (تعادل ٧٠ ليرة سورية) على أن يكون ذلك قد حال عليه الحول وهو زائد عن حاجات الانسان الاصلية التى يحتاج اليها لمعيشته، فلا يدخل في نصاب الزكاة دار السكن ، والثياب الخاصة للاستعمال والقوت المدخر لطعام العائلة ، والسلاح الخاص ، ودابة الركوب وكتب العلم - غير المتخذ للتجارة - وآلة العمل البدوية التى يحتاج اليها المكتسب بيده كالمنشار والقدم ومقياس الذراع والمتر وأمثال ذلك .

وبلاحظ في الزكاة ما يلى :

١ - أن الزكاة يجب أن تصرف لفئات معينة نص عليها القرآن الكريم في قوله تعالى : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل (١) »
٢ - أنها ليست احسانا ولا منة ، بل هى حق اجتماعى تشرف الدولة على استيفائها وتوزيعها كضمان الضرائب التى تأخذها الدولة من المواطنين ، وفي ذلك يقول القرآن الكريم : « في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم (٢) »

ونص الشافعى على أن للفقير احقية استحقاق المال حتى صان بمنزلة المشترك بين صاحبه وبين الفقير ، ويجوز للفقير أن يأخذ مقدار الزكاة اذا ظفر به وكان صاحبه قد امتنع عن أدائه ، وفي هذا اخراج الزكاة عن أن تكون مظنة للدلة والمهانة للفقير كما يتوهم بعض الناس .

٣ - أن نصاب الزكاة هو من القلة بحيث يشترك جمهور الشعب في الاسهام بنفقات التكافل الاجتماعي . ولم تحصر بالاغنياء ذوي الثروات الكبيرة . وفي ذلك فوائد عظيمة . أهمها أن تكثير حصيلة الزكاة عن هذا الطريق يؤدي الى توسيع في تمويل مشاريع التكافل الاجتماعي ومنها ان اشتراك جمهرة الشعب في تمويل مشاريع التكافل الاجتماعي يبعث في كل من اشتراك بذلك اعتزازا باسهامه في هذا العمل الاجتماعي . وشعورا بالمسؤولية وبانه عضو عامل في المجتمع يقوم بواجبه نحو اخوانه العجزة والفقراء .

٤ - أن نسبة الزكاة من المال - وهي اثنان ونصف بالمائة - نسبة مقبولة تسخو بها النفس طوامية واختيارا ، وهي مع ذلك تجمع حصيلة كبيرة جدا لانها نسبة من رأس المال والربح الناشئ عنه خلال السنة كلها .

٥ - أن الزكاة عامل من أهم عوامل توزيع الثروة وانتقالها بين أيدي الشعب خلال سنوات محدودة ، بحيث يكون ما يملكه الانسان بعدها ثروة جديدة انشأها بجهده وعمله .

٦ - أن الزكاة عامل كبير من عوامل نشر اللفة والمحبة بين الناس وهو ما يحرص عليه الاسلام الذي يقيم وزنا للقيم الاخلاقية الانسانية .

٧ - أن زكاة كل بلد توزع فيها نفسها ، فاذا فاضت عن حاجة أهلها أرسلت لفاتح إلى بيت المال المركزي لينفق على من يستحقونه في البلاد الأخرى ، وهذا عامل رفع مستوى الشعب وتحقيق التكافل الاجتماعي في جميع مناطق الدولة في وقت واحد .

٨ - أن للزكاة ميزانية خاصة في بيت المال بحيث لا تغطي على التكافل الاجتماعي النفقات الأخرى للدولة كما يقع الآن في ميزانية الدولة في عصرنا الحاضر :

٢ - قانون النفقات :

وهو يشمل نفقات

١ - الأيوان وأصولها :

٢ - الأبناء وفروعهم .

٣ - الإخوة وفروعهم .

٤ - الأعمام والأعمات وفروعهم .

٥ - الأخوال والخالات وفروعهم .

وفي بعض هؤلاء خلاف في بعض المذاهب الاجتهادية .

٦ - الزوجات والمطلقات في العدة

٧ - الرقيق بحق مالكة

٨ - الحيوان بالنسبة للملكة .

والنفقة تشمل :

١ - الطعام والغذاء

٢ - اللباس والكساء .

٣ - السكن والمأوى

٤ - الأخدام للعاجز منهم والمريض

٥ - التعليم لمن كان بحاجة إليه

٦ - التزويج لمن كان بحاجة إليه .

٧ - الحاجات الاجتماعية المتعارف عليها (١)

٣ - قانون الوقف :

الوقف نوعان : ذرى « اهلى » وخيرى ، اما الذرى فالمقصود منه تأمين التكافل الاجتماعى لأقرباء الواقف وذريته ، ويجب أن يكون آخره الى جهة خير لا تنقطع كالفقراء والمؤسسات الاجتماعية ، واما الخيرى فهو لتمويل التكافل الاجتماعى لجميع الجهات التى ذكرناها فى بحث التكافل . وقد كان للوقف - خلال العصور الماضية - دور رئيسى فى قيام المؤسسات الاجتماعية فى الوطن الإسلامى كما ستطلع عليه عند الكلام على الواقع التاريخى لاشتراكية الإسلام . ومن الواجب ان يستفاد من الوقف الآن فى تنفيذ قوانين التكافل الاجتماعى على وجه يضمن تحقيق العدالة الاجتماعية فى بلادنا لمختلف الفئات .

٤ - قانون الوصية

أجاز الإسلام أن يوصى الإنسان بثلث ماله لجهات البر والخير ، ويجوز أن يوصى بأكثر من ذلك اذا أجازت الورثة ، وفى بعض المذاهب الاجتهادية أن الوصية للأقرباء غير الوارثين واجبة بمقدار الثلث ، ومنه استمد قانون الأحوال الشخصية المعمول به فى سوريا ، وقانون الوصية المعمول به فى الجمهورية العربية المتحدة ، مبدأ الوصية الواجبة للحفدة المحرومين من الإرث وهم الذين مات أبوهم فى حياة جدتهم (٢)

٥ - قانون الغنائم

قال تعالى : « واعملوا انما غنمتم من شيء فان الله خمسة وللرسول وللى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل (٣) » وقال تعالى : « ما آفأه الله على رسوله من أهل القرى قلله وللرسول ولذى القربى

(١) انظر فى ذلك بحث النفقات من كتابنا (شرح قانون الأحوال الشخصية) الجزء الاول

(٢) ينظر احكام الوصية فتمت الواجبة فى كتابنا (شرح قانون الأحوال الشخصية)

(٣) الاسفال : ٥٧

واليتامى والمساكين (١) « وللعلماء آراء في التفريق بين الفتيمة والفيء وفي المراد ، من « الله والرسول » ، وأيا ما كان فإن الإسلام قد جعل من الفنائم الحربية التى يفتنهما الجيش في معاركه مع الاعداء نصيبا معيناً للتكافل الاجتماعى ، وهذا لا نعلم له مثيلا عند الامم الاخرى في القديم والحديث .

٦ - قانون الركاز :

ما يوجد في بطن الارض من معادن ونقود قد جعل الإسلام فيه نصيبا معيناً يتفق منه على التكافل الاجتماعى ، وللعلماء آراء واجتهادات حول التفريق بين الكنز والركاز وحكم ما يستخرج من باطن الارض او من أعماق البحار من معادن وغيرها يعرف من المراجع الفقهية (٢) .

٧ - قانون النذور :

قال تعالى : « وليوفوا نذورهم (٣) » فإذا نذر الانسان نذراً أن يتبرع لله بمبلغ وجب عليه الوفاء بنذره وكان سبيله الفئات المحتاجة للتكافل الاجتماعى . وأحكام النذور تعرف في كتب الفقه .

٨ - قانون الكفارات :

قال تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون اهليكم لو كسوتهم أو تحرير رقبة (٤) »

وقال تعالى : يا ايها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين (٥) .

ويقول تعالى في الصيام : « وعلى الذين يطبقونه فدية طعام مسكين (٦) » .

وقال تعالى في الاحرام بالحج : « ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ المهدى محله فمن كان منكم مريضاً أو به اذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك (٧) » .

وقال تعالى في كفارة الظهار : « فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا (٨) » .

وفي الحديث الصحيح في افطار رمضان عمدا بالجماع في النهار ،

(٢) انظر مثلا : البدائع ٥/٢

(١) العشر : ٧

(٤) الثلاثة : ٨٩

(٣) الحج : ١٩

(٦) البقرة : ١٠٤

(٥) الثلاثة : ٩٨

(٨) المياعة : ٨

(٧) البقرة : ١٩٦

التكفير عن ذلك بصيام شهرين متتابعين فاذا لم يستطع فاطعام
ستين مسكينا ، وكذلك لحكم عند فقهاء الحنفية فيمن افطر بالاكل من
غير عذر .

وهكذا جعل الاسلام كفارة كثير من الذنوب اطعام الفقراء والمساكين
او كسوتهم . وهذا مورد كبير لتمويل مشاريع التكافل الاجتماعى

٩ - قانون الاضاحى :

قال تعالى : « فصل لربك وانحر (١) » نزلت في صلاة عيد الاضحى
ونحر الاضاحى في العيد ..

وفي الحديث : « يا ايها الناس على كل اهل بيت في كل عام ضحية » (٢)
وللعلماء آراء في كونها واجبة او سنة مؤكدة .

١٠ - قانون صدقات الفطر :

وفي الحديث الصحيح : « فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم
زكاة الفطر من رمضان صاعا من تمر أو صاعا من شعير على العبد والحر
والذكر والانثى والصغير والكبير من المسلمين (٣) » .

والاجماع على وجوبها ، والجمهور على وجوبها على الرجل وكل من
تلزمه نفقته من زوجة وولد وخادم . كما أن الجمهور على جواز اخراج
قيمة الصاع من التمر أو الشعير نقدا وهذا هو الراجح في البلاد التي
لا تنتج تلك المزروعات ، وهو الانفع للفقراء ولزكاة الفطر احكام مفصلة
في كتب الفقه .

١١ - قانون الخزينة العامة :

كانت واردات بيت المال في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم
قاصرة على اموال الزكاة والعشور (زكاة الزروع) والغنائم ، وكانت
تنفق كلها على المستحقين في قوانين التكافل الاجتماعى ، فلما اتسعت
الدولة واتسع دخلها المالى في عهد عمر ، دون اُدواوين فقيدت كل
واردات الدولة كما سجل كل ذوى الاعمال واصحاب الاعطيات
والمستحقين وقال عمر قولته المشهورة « ما من أحد من المسلمين الا وله
حق في هذا المال » ثم نظم الديوان بعد ذلك تنظيما أدق ، وربت ابواب
ميزانية الدولة بحسب وارداتها ، وقسم بيت المال الى اقسام لكل نوع
من الواردات بيت مال خاص به ينفق منه على فئات معينة ، ونذكر
لك هذه الاقسام كما ذكرها الكسانى من علماء القرن السادس الهجرى .

ما يوضع في بيت المال من الاموال اربعة انواع :

(١) البكور : ٢

(٢) رواه احمد وابو داود والبيهقي

(٣) رواه البخارى ومسلم وغيرهما

الاول : الزكاة بمختلف أنواعها وتصرف في الوجوه التي نص عليها القرآن الكريم في قوله تعالى « انما الصدقات للفقراء » الخ .

الثاني : خمس الفنائم والمعادن والركاز ويصرف الى الفقراء والمساكين واليتامى ومن كان في معناهم :

الثالث : خراج الاراضي وجزية الرؤوس وما كان بمعناها وهذه تصرف الى عمادة الدين والمصالح العامة ومنها رواتب الولاة والقضاة واهل الفتوى من العلماء والجيش واصلاح الطرق وعمارة المساجد والرباطات (للجهاد) والقناطر والجسور وسد الثغور واصلاح الانهار العامة .

الرابع : ما اخذ من تركة الميت الذي مات ولم يترك وارثا أصلا أو ترك زوجا أو زوجة فقط « ويلحق به الضوابط التي لم يعرف أصحابها » وتصرف هذه الاموال الى دواء الفقراء المرضى وعلاجهم واكفان الموتى المدين لا مال لهم والى اللقيط وعقل الجنابة والى نفقة من هو عاجز عن الكسب وليس له من تجب عليه نفقته ونحو ذلك (١) .

ومن ذلك يتبين أن تمويل مشاريع التكافل الاجتماعي ليست قاصرة على القوانين العشرة السابقة ، بل ان مهمة بيت المال الاساسية هي تحقيق التكافل الاجتماعي ، ولكن تلك القوانين لا تعطى حقا في المال المجموع بحسب احكامها لغير المحتاجين للتكافل الاجتماعي ، بينما موارد بيت المال الاخرى تتسع لرواتب الموظفين ونفقات الدفاع والمشاريع العمرانية والمواصلات وغيرها . ويؤكد هذا ما ذكرناه من قول عمر رضي الله عنه « ما من أحد من المسلمين الا وله حق في هذا المال » .

١٢ - قانون الكفاية :

يقول الله تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والمجاور الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم (٢) » فهذه الآية دلت على وجوب الاحسان الى هذه الفئات .

وقال تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبیین وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب واقام الصلاة وآتى الزكاة .. » الخ الآية (٣) . وهذه الآية دلت على أن لهذه الفئات حقا في المال سوى الزكاة بدليل أن الزكاة عطف عليها ، والعطف يقتضى المغايرة .

وروى عبد الرحمن بن أبى بكر المصديق أن أصحاب الصفة كانوا أناسا فقراء وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس

(١) البدائع : ٦٨/٢ ، ١٢٤/٧ مع تلخيص وترتيب

(٢) النساء : ٣٦

(٣) البقرة : ١٧٧

أو سادس (١) « وهذا يقتضي وجوب اطعام الفقير على من كان يستطيع اطعامه ولا يجوز تركه عرضة للجوع .

وروى أبو سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : « من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له ، قال أبو سعيد : فذكر رسول الله من اصناف المال ما ذكر ، حتى رأينا انه لا حق لاحد منا في فضل (٢) » :

وعن عمر بن الخطاب ثلث استقبلت من امرى ما استندبرت لاخذت فضول أموال الاغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين (٣) «
وعن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله فرض على اغنياء المسلمين في أموالهم بقدر الذى يسع فقراءهم (أى ما يحتاج اليه الفقراء) ومن يجهد الفقراء اذا جاعوا وعروا الا بما يصنع اغنياؤهم ، الا وان الله يحاسبهم حسابا شديدا ويعذبهم عذابا اليما »

من هذا كله يتبين لنا انه اذا لم تكف الزكاة والقوانين المالية الاخرى لسد حاجات التكافل الاجتماعى ، ولم يكن في بيت المال ما يقوم بتلك الحاجات فقد انتقل واجب القيام بها الى أموال الناس بحيث يؤخذ منها ما يسد تلك الحاجة مهما استنفدت من تلك الثروات .

قال ابن حزم : وفرض على الاغنياء من اهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك ان لم تقم الزكوات بهم ، ولا سائر أموال المسلمين ، فيقام لهم بما ياكلون من القنوت الذى لا بد منه ، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك ويمسكن يكتهم من المطر والشمس وعيون المارة ، ثم استدل لذلك بما ذكرنا من الآيات والاثار وغيرها من أعمال وأقوال الصحابة والتابعين ، وادعى اجماع الصحابة على ذلك بما ذكرناه في قانون الاسعاف من صنيع أبى عبيدة حين نفذ زاد أكثر من معه من الصحابة وكانوا ثلثمائة ، فخطأ أزوادهم بعضها ببعض وقتلهم اياها على السوء (٤) .

وهذا الذى ذكره ابن حزم هو ما تؤيده قواعد المذاهب الاجتهادية، وقواعد الشريعة العامة ، ومبادئ الحقوق الخمسة التى ذكرناها .

وبعد فهذه هى تسعة وعشرون قانونا لتحقيق التكافل المعاشى لم تترك انسانا في المجتمع دون أن يتمتع بحق التكافل المعاشى ودون أن يشال من عنابة المجتمع ما يطمن به الى حاضره ومستقبله ومستقبل هائلته وأولاده ، وقد رأينا أنه وضع من هذه القوانين اثنا عشر قانونا لتمويل التكافل المعاشى بحيث تضمن تنفيذ قوانينه دقيقا شاملا لا نعهد له مثيلا في الشرائع والقوانين لدى امة من امم الارض قاطبة .

وقبل أن نختم هذا البحث نحب أن نذكر بعض المقارنات المتعلقة بالتكافل الاجتماعى .

(١) رواه البخارى

(٢) رواه مسلم

(٣) رواه ابن حزم وقال : « هذا اسناد فى غاية الصحة والجلالة

(٤) انظر المحلى ١٥٦/٨

حقائق عن التكافل الاجتماعي

عندنا وعند الفريين

نرى من المناسب هنا أن نذكر بعض الحقائق عن تشريعات التكافل الاجتماعي عندنا وعند الفريين ليتبين مدى فضل اشتراكية الاسلام في سبقها الى تقرير مبدأ التكافل الاجتماعي وتشريع الاحكام اللازمة له عندنا :

١ - ولد الرسول عليه السلام عام ٥٧١ م

ب - بدأت الرسالة ونزول القرآن عام ٦١٠ م

ج - في آخر العهد المكي فرضت الزكاة وأعلن القرآن الكريم انها حق الفقراء وذلك حوالي عام ٦٢٠ م

د - وقعت الهجرة عام ٦٢٢ واستقر الرسول في المدينة وتأسست الدولة الاسلامية الاولى بقيادة الرسول في تلك السنة .

ز - وفي «٦٢٢» بدأ تنفيذ نظام الزكاة والتكافل الاجتماعي .

هـ - توفي الرسول عليه السلام ٦٣٢ بعد ان أصبحت الجزيرة العربية كلها تخضع للإسلام وأحكامه

و - بعد وفاة الرسول قامت حروب الردة داخل الجزيرة وخاضت الدولة الاسلامية المعارك ضد مانعي الزكاة وأصررت على تنفيذها لتحقيق نظم التكافل الاجتماعي .

عند الفريين :

١ - كان العالم كله وخاصة في الغرب يعتبر اسعاف الفقير مقتصرًا على الاحسان الاختياري الذي يترك لاربعية الاغنياء ، وكانت مهمة رجال الدين والمصلحين الاجتماعيين أن يثيروا شفقة الاغنياء ليرحموا الفقراء ، واستمر هذا حتى القرن السابع عشر .

٢ - في القرن السابع عشر - أي بعد نزول القرآن بعشرة قرون - بدأ الغرب يفكر في أن للفقراء « حق » على المجتمع .

٣ - كانوا يرون أن هذا الحق من وظائف الجمعيات والهيئات المحلية التي كانت تقوم باطعام الفقراء واستمر هذا حتى أواخر القرن التاسع عشر .

٤ - ثم تنهوا الى أن عمل الجمعيات والهيئات لا يفي بالحاجة ولا يتسع لكل الفقراء ، ولا يسعف الفقراء بكل ما يحتاجون ، فبدأوا يفكرون في أنه يجب أن يكون من وظائف الدولة . وكانت أول دولة في الغرب بدأت تعنى بتنظيم الضمان الاجتماعي هي ألمانيا إذ أصدرت أول قانون لذلك عام ١٨٨٣ أي بعد قيام الدولة الإسلامية الاولى بهذا الواجب بالف ومائتي ستة واحد وستين سنة !

٥ - ومع ذلك فالذي حصل أن الدولة الألمانية لم تنظم اعانة جميع الفئات المحرومة من الضمان الاجتماعي مرة واحدة ، بل تم ذلك على مراحل ، فأول قانون أصدرته عام ١٨٨٣ كان ضد الاضرار التي تطرأ للعمال الصناعيين اثناء العمل ، ثم أصدرت عام ١٨٨٩ قانون التأمين ضد المرض والشيخوخة لعمال الصناعة والتجارة والزراعة ، وفي عام ١٩١١ أصدرت قانونا لتأمين المستخدمين ضد العجز والشيخوخة والوفاة وفي عام ١٩٢٣ أصدرت قانونا لتأمين عمال المناجم ضد العجز والشيخوخة .

واقترنت هنا على تاريخ تطور التأمين الاجتماعي في ألمانيا وحدها ، لأنها كانت اسبق دول الغرب تليقيا بهذا العمل ، ثم تبعها بعض الدول السكندنافية بينما عارضت الدول اللاتينية وبريطانيا في بادئ الامر معارضة شديدة فكرة الضمان الاجباري ، ثم اقتنعت به منذ عام ١٩٠٨ كثير من دول أوروبا وأمريكا .

٦ - لم يصبح مبدأ التكافل الاجتماعي حقا لجميع فئات الشعب الا في هذا القرن حيث بلغ في عام ١٩٣٣ عدد الدول التي اعتنقت هذا المبدأ اثنين وستين دولة ، أي أن هذا المبدأ أصبح مسلما به لدى أكثر دول العالم بعد وفاة مؤسس الدولة الإسلامية رسول الله صلى الله عليه وسلم بألف وثلاثمائة سنة ، وسنة ! (١) .

٧ - ونحب أن نشير أيضا الى أن أكثر الدول التي تعتنق مبدأ التكافل الاجتماعي تشترط اشتراك الدين تشملهم قوانين التكافل بجزء معين من دخلهم الشهري أو الاسبوعي قبل أن يستحقوا فوائد التكافل الاجتماعي . بينما الامر في الاسلام وكما طبقته الدول الإسلامية في مختلف العصور لا يطلب من الفقير أو العاجز دفع مبلغ ماء بل الدولة تقوم بهذا العمل دون مقابل ، وهذا امر له دلالة في هذا المقام ٨ - ونختتم هذه الملاحظات بأن تفكير الدول الغربية بالتكافل الاجتماعي ثم تفكير الشيوعية بعد ذلك بحل المشكلة من اساسها انما كان تحت ضغط التطور الصناعي وانتشار موجات السخط في أوساط العمل وأفراد الشعب ، أن أوروبا لم تفكر في تأمين العمال ضد البطالة الا بعد الأزمة الاقتصادية التي عانتها أوروبا منذ عام ١٩٢٩

بينما أعلن الاسلام نظامه الكامل الشامل للتكافل الاجتماعي قبل ثلاثة عشر قرنا دون أن تكون هناك في البيئة العربية - التي ظهر فيها الاسلام - عوامل اقتصادية اضطرت الاسلام لإعلان هذا النظام ودون أن يصدر ذلك عن حقد من فئة نحو فئة أورغية أو نزاع المال والسيطرة عليه انتقاما من الاغنياء والاثرياء ، بل هي نزعة انسانية عميقة قبل أن ينتبه لها ضمير العالم ، وتنظيم دقيق شامل قبل أن يهتدى الى قريب منه عبارة العالم بثلاثة عشر قرنا ، ولعل في هذا مايقنع الذين لا يريدون أن يعترفوا بأن محمدا رسول الله وأن الاسلام دين الله !

(١) رجعنا في هذا البحث الى نشره جامعة الدول العربية عام ١٩٥٢ عن وسائل تنظيم التكافل الاجتماعي في الدورة الثالثة لطلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية والى بحث السيد دانييل س . جريج من منظمة العمل الدولية الذي القاه في تلك الدورة والى مرجع آخر .

المؤيدات

لم يكتف لاسلام بما شرعه من المبادئ العامة الاشتراكية وتقريره الحقوق الطبيعية وتنظيمه للتكافل الاجتماعى بمعناه الواسع وما اتى به القوانين لتنظيم التكافل الاجتماعى فى معناه الواسع ، عن طريق القوانين التى ذكرناها ، ولكنه دعم ذلك كله بمبادئ ومرغبات وزواجر تحمل الناس على تنفيذ تلك المبادئ والقوانين ، وهنا يأتى بحث « المؤيدات » فى هذه النظرية ، وقد كان فقهاؤنا الاقدمون يتحدثون عنها باسم « الزواجر » أحيانا ، وباسم « الترغيب والترهيب » أحيانا .

ويطول بنا البحث لو تكلمنا عن « المؤيدات » التى وضعها الاسلام لدعم نظريته الاشتراكية فى جميع احكامها وقوانينها ، ولكننا نجتزئ هنا « بالمؤيدات » المتعلقة بنظم التكافل الاجتماعى وخاصة « التكافل المباشى » .

تنقسم المؤيدات فى هذه الناحية الى اربعة انواع :

- ١ - اعتقادية أى هى جزء من عقيدة المسلم لا يتم اسلام المسلم الا بها .
- ٢ - اخلاقية أى هى جزء من النظام الاخلاقى فى الاسلام فلا يكمل خلق المسلم الا بها .
- ٣ - ومادية أى منع الناس من مخالفة تلك الاحكام والقوانين اما بالعقوبة الزاجرة ، واما بالسلاح والحرب .
- ٤ - وتشريعية أى وضع مبادئ عامة لسن القوانين التى يحتاج اليها المجتمع فى مختلف العصور تحقيقا للتكافل الاجتماعى بحسب تطور الاوضاع والظروف الاجتماعية ، ولنتحدث عن كل نوع من هذه الانواع حديثا موجزا تبينا للفكرة وضربا للامثال .

١ - المؤيدات الاعتقادية :

١ - يقر الاسلام أن الله خالق الكون ومدبر الامر ، وهو الرقيب على اعمال الانسان ، العليم بسلوكه ونيته ، وسيرجع اليه ليحاسبه على ما فعل من خير أو شر « ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الارض ، وما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ، ولا خمسة الا هو سادسهم ، ولا ادنى من ذلك ولا اكثر الا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة (١) » ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره (٢) » .

ومن الخير تطبيق هذا النظام ، ومن الشر اهماله او الاعراض عنه ، فاین يذهب المؤمن اذا اراد أن يفر منه أو يتلاعب بأحكامه ؟

٢ - ويقر أن الله عادل لا يظلم المحسن ولا يثيب المسئى « ولا يظلم ربك أحدا (٣) » ، « أن الله لا يضيع أجر المحسنين (٤) » « أن الله لا يضلح عمل المفسدين (٥) » .

(٢) الزلزلة : ٧ . أ

(٤) التوبة : ١٢٠

(١) المجادلة : ٧ .

(٣) الكهف : ٦٩

(٥) يونس : ٨١

ومن عدائته أن الأمم التي تتمسك بشرعه فتتراحم فيما بينها ، ويعطف بعضها على بعض ، يحييها حياة طيبة ، والأمم التي تنحرف فيظلم بعضها بعضاً ويأكل بعضها حق بعض ، يبتليها بالخوف والجوع ، وتقص من الأموال والأنفس والثمرات .

« وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون (١) » ، « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القسول فدمرناها تدميراً (٢) » « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض (٣) » .

٣ - أن الرزق بيد الله قد قسمه بين عباده منذ الأزل وكتب لكل إنسان نصيبه منه ، وهو لا ينال إلا بسعي وعمل ، فلا يقعد الإنسان عن طلبه ، ولا يسلك السبل الظالة للاستكثار منه « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا (٤) » .

« أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوفى رزقها فاتقوا الله واجعلوا في الطلب (٥) » وهذا من أبلغ ما يحمل ناؤمن المتدين على تنفيذ نظام الشريعة في التملك والانفاق وتادية ما أمر الله أن يؤدي من المال لحق المجتمع والدولة .

٤ - أن الله يحق المال المجموع من الظلم والفسح ، والمال الذي يمنع منه حق الفقراء والمساكين ، ويبارك في المال الذي يجمع من الحلال وينفق في وجوه الخير .

« وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تربون بها وجه الله فأولئك هم المفلحون (٦) » « بمحق الله الربا ويربي الصدقات (٧) »

فما أروع هذه المقارنة في آية واحدة !

٥ - ليس للإنسان من ماله إلا ما استفاد لنفسه في حياته الدنيا ، أو أنفق منه في الخير فتوابه له في الآخرة ، وما عدأ ذلك فليس في الحقيقة مالكا له ، إنما هو حارس يحرس لورثته ، يحاسب عليه ويحصى غسره فائده « يقول العبد مالي مالي ، وإنما له من ماله ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى أو أعطى فأفنى وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس (٨) » .

ب - التوجيهات الأخلاقية

١ - رغب في العدل والإحسان وحذر من الظلم والبغى والفحشاء « أن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن

(٢) الإسراء : ١٦

(٤) الزمر : ٣٢

(٦) الروم : ٣٩

(٨) رواء مسلم

(١) هود : ١١٧

(٣) الاعراف : ٦٩

(٥) رواء الحاكم والطبراني

(٧) البقرة : ٢٧٦

الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون (١) » .

٢ - حث على الانفاق والسخاء ومدح الكرم والكرماء ، ونفسر من الشح وذم البخلاء « السخى قريب من الله قريب من الناس والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس » (٢) .

« ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون (٣) »

واليك هذا النموذج الرائع من الترغيب في الانفاق يسلك فيه القرآن كل سبيل الى النفس الانسانية ليحملها على الانفاق ويبعدها عن البخل ، ويحلل البخل والكرم وعواملهما في النفس الانسانية وآثارهما تحليلا رائعا في آيات قليلة متتاليات ، تملك على المؤمن تبه وقلبه فلا ينتهى من قراءتها حتى تتفتح نفسه للجدد بكل ما يملك ابتغاء مرضاة الله وطمعا في جنته وثوابه :

١ - يبدأ القرآن بالحث على الانفاق في سبيل الخير بتشويق النفس الانسانية الى الريح الذى تناله من جراء انفاقها المال في سبيل الله ، وهو ربح يفوق ما اعتاده الناس من الريح في معاملاتهم ، فان عادة التجار أن يفرحوا اذا ربحوا خمسة بالمائة او عشرة مثلا ، وتكن الربح المعنوى في الانفاق يبلغ عند الله اضعاف ذلك عشرات المرات فيقول :

« مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة اُتبت سبع سنابل ، في كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم (٤) » .

فهذا أجمل مدخل الى النفس الانسانية التى تغلب عليها طبيعة التجار : دفع القليل ، واخذ الكثير !

٢ - ثم يبين بعد ذلك أن هذا الانفاق الرابع لا يكون الا لمن خلصت نيته ، وسمت نفسه عن المن بما أنفق ، والابتداء لمن أنفق عليه ، كما يقع من أكثر « المحسنين المرائين » ، فان مثل هذا الانفاق يؤدى كرامة المجتمع وكرامة النفس الانسانية ، ويؤدى الى العداوة والبغضاء ، اما الذين ينفقون لوجه الله ثم لا يؤذون ولا يمتنون فهولاء هم الذين ضمن الله لهم ذلك الاجر وشملهم برحمته وعنايته ، فلا يخافون ولا يحزنون ، وفى ذلك يقول :

« الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منها ولا اذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٥) » .

٣ - ثم يتعرض لهؤلاء الذين يتبعون انفاقهم بالمن والاذى ، بأن هذا الانفاق لاخير فيه ، وان خيرا منه قول جميل ، ومغفرة لاساءة المسيء

(٢) رواه الترمذى

(٤) البقرة : ٢٦١

(١) النحل : ٩٠

(٣) الحجر : ٩١

(٥) البقرة : ٢٦٢

فان الله اخفى عن عباده ، يعطيهم ولا يسئ اليهم في عطائه بل يحسن على السوء منهم تفضلا وكرما ، واذا كان هذا شأن الاله الفنى عن عباده ، فما بالك بالعبد الذى لا يستغنى عن الناس ولا يستطيع العيش معهم بالاذى فى القول والشعور ، وفى هذا يقول الله تعالى :

« قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها اذى والله غنى حليم (١) » .

٤ - ثم زاد على ذلك بتقرير حقيقة اخرى ضرب لها الامثال : وهى ان الاتفاق الذى يخالطه الاستكبار على الناس ، وايداؤهم بالن عليهم ، هو باطل الاجر عديم الفائدة ، شأنه فى ذلك شأن الذى ينفق المال ليتحدث الناس عنه فى المجمع ، ويسبغوا عليه من المديح والثناء عليه ، بالاحسان والفضل والكرم ما تتطلع اليه النفوس الصغيرة التى فقدت ايمانها بالله ، والرغبة فى ثوابه فى الدار الآخرة ، ان المنفق النان والمنفق المرائى كلاهما ليس لهما اجر على اتفاقهما ، هذا ابطال عمله بريائه ، وذلك ابطله بايادائه ، وما مثلهما الا كمثل صخرة ملساء غشيتها طبقة خفيفة من التراب ، فيظنها الرائي ارضا منيته طيبة ولكنها فى حقيقتها صخر لابنت ، وسرعان ما يكشف عنه المطر الوابل تلك الطبقة الخفيفة من التراب ، فيبدو للانظار على حقيقتها ، وهكذا نفس المرائى أو النان نفس ليس فيها للخير جذور مثبته وسرعان ما تبدو مقاتلتها للناس عند اول شدة فاذا هى صماء لا تثبت برا ، ولا تبدل خيرا .. والى هذه المعانى كلها تشير الآية الكريمة التالية :

((يا ايها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالان والاذى كالذى ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثل كمثل صفوان عليه تراب فاصابه وابل فتركه صلدا ، لا يقربون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين)) (٢)

٥ - أما النفس التى تبدل الخير لوجه الله ، ورجاء اجره وثوابه ، بدلا منبثقا عن انسانية كريمة برة رحيمة ، ولا تريد جزاء ولا شكورا ، فهى فى تدفقها بالبدل تدفق الينوع الذى لا ينضب ولا يفيض ، فوق ربوة عالية غنية بالطبقات الترايية المنبثة ، ان اصابها مطير شديد آتت اكلاها ضعفين ، وان اصابها المطر الخفيف او اظلمها الندى ، آتت اكلا فيه غشاء وفائدة .. هكذا النفس المؤمنة المحتسبة لاجر الله وجنته : نفس غنية بدوافع الخير وبدوره ، لاتنقطع عنه فى سر أو غير ، ان كثر ما فى ايديها من المال اشاعت الرغد والرفاهية فيمن حولها ، وان قل مالها لم تبخل ولم تنقبض ، بل بدلت ما فى وسعها لاسعاف المحتاجين وانقاذ البائسين ، ثم هى لا تبالي ببناء الناس ولا بدمهم ، تبر الانسانية المفجوعة ولو لم تلق كفاء برها من ثناء وتأييد ، او اقيمت منهم ما لقيت من ذم وجحود .

هذا هو المعنى الذى جاءت الآية التالية تشير اليه :

« ومثل الذين ينفقون أموالهم بمرضاة الله وتبشيتا من أنفسهم كممثل جنة بربوة أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فظل والله بما تعملون بصير (١) » .

مثان راتعان فيهما تحليل نفسى رائع لكل من النفس المرائية فى انفاقها ، والنفس المخلصة التى تبغى وجه ربها ، قد عبر عنهما بأسلوب بليغ معجز ، فتبارك منزل هذا الكلام على النبى الأسمى الأمين .

٦ - وليس آلم للنفس ولا ادعى الى النذر من أن يعمل الانسان عملا ثم ينفقه أحوج ما يكون اليه .. وليس هو الا المرائى والمنان حتى اذا جاءه يتفقده فى قلوب الناس وجد الاذى والمن قد أفسده ونحاه ، واذا جاء يتفقده عند الله وجد الرياء أطاح به كما تطيح الريح العاصفة بزرع يابس .. أفترى مثل هؤلاء لو أن أحدهم كانت له جنة فيها من الأشجار والثمار ماغلا وطاب وقد بذل فيها جهده من عمل وانفاق ورعاية وامتد به الكبير حتى أوفى على الموت .. وله أطفال صغار يحرص على أن يخلف لهم ما يكفيهم الحاجة والعوز والسؤال .. فما هى الا ربح عاصفة مسمومة فيها نار تجتاح الجنة وأشجارها فيفقدونها أحوج ما يكون اليها فى نهاية عمره ، ويفقدونها اولاده أحوج ما يكونون اليها فى مستقبل أيامهم .. وأى انسان يتمنى هذه النهاية لجهد الحياة وهو على آخر خطبوة من الحياة ؟

تلك هى نهاية الذين لا يوجدون الا ليسمعوا الشئ يصم آذانهم ، ولا ينفقون الا ليؤذوا المجتمع باحسانهم منا واستكبارا واستعلاء .. انها النهاية التى تذهب بالمال والشئ والثواب معا ، فيالها من نهاية مفاجئة يرجو السلامة منها كل عاقل ! واليها تشير الآية التالية :

« أبود احذكم أن تكون له جنة من نخيل واعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات واصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها أعصار فيه نار فاحترقت ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون (٢) »

٧ - حسب النفس المؤمنة هذا الترغيب والتوجيه وضرب الامثال .. وها هى تميل الان الى الانفاق .. فمن أى انواع المال يجب أن تنفق ؟ .. ان النفوس الخيرة لا تنفق الا من خير المال وأطيبه حتى يقع الانفاق موقعه فى المجتمع والافراد .. انها تأبى أن تنفق من خبيث المال أو الطعام ما لو عرض عليها لايت أخذه تأفقا وانتقاصا لقيمتة .. والكريم من الناس من يعاملهم بما يجب أن يعاملوه به .. افلا يرى المؤمن ان الله غنى تملأ رحمته الدنيا كلها ويهب الناس ما يحمدونه عليه ويشكرونه من أجله .. هذا مع استغفائه عن حمدهم وثنائهم .. ولكن الكامل من

أعطى ما يحمد عليه وبذل ما يقع فى القلوب موقعا جميلا ، وفى ذلك يقول الله تعالى بعد ذلك :

« يا أيها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذيهِ إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد (١) » .

٨ - لم يبق لاندفاع المؤمن نحو بذل المال الطيب مخلصا لله وجهه الا خاطرة قد تلم بالنفس الانسانية كلما همت بالانفاق .. تلك هى ان المال انما يجمعه الانسان بجهده وعمله - فكيف يعطيه من لم يتعب فيه ولم يشارك فى جمعه ؟ والانسان معرض فى الحياة للنكبات فلماذا لا يمسك عن البذل خشية الفقر والفاقة فى المستقبل ؟ وما الذى يربطه بهؤلاء الفقراء من روابط حتى يؤثرهم على نفسه وعلى أولاده فيعطيهـ ما يحرم منه نفسه وأولاده ؟

انها خواطر تلم بكل نفس انسانية حين يخطر لها خاطر الانفاق .. ولكنها خواطر سوء وفحشاء .. وأى سوء وفحش اكبر من أن لا يذكر الانسان فى الحياة الا نفسه وأولاده ؟ وأية فاحشة أشد من أن يقبض المال وهو فائض عن حاجته الضرورية وحاجة أهله ، عمن هو محتاج اليه ليقيم ضرورات الحياة وليدفع عن نفسه وأهله آلام الفقر والجوع والمرض والضعف ؟ ..

انها وسوسة الشيطان تخوف المنفق من الفقر وتأمره بالامساك .. والقسوة والاثرة .. وليس لهذا من أثر فى واقع الحياة وفى دنيا الخير والخلق الكريم فالله هو الرزاق المنعم يعطى خيره من يستحقه ومن لا يستحقه . أفينزل المنفقين الذين يرون الانسانية المعذبة ابتغاء وجه الله ومَرْضاته عرضة للآلام والفقر وتكد الحياة ؟ ان عدالة الله تأبى ذلك .. وما المنفق الا مقرض لله ما ينفق والله يرد القرض بأحسن منه فقيم يخشى المؤمن الفقر وكيف يعيش فى جو من القسوة والبخل والانانية ؟ « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم (٢) » .

٩ - أترى المؤمن حين تلم به خواطر السوء من بخل وامساك ؟ يستجيب لها وهى وسوسة الشيطان ووعد الكاذب ؟ أم يستجيب لآيمانه ولنداء ربه ولوعده الحق ؟ ان المؤمن من وثق بالحق وكتب بالباطل ، وأثر غيره على نفسه ولم يؤثر نفسه على غيره ، امتد بصره الى آفاق أوسع من نفسه وبيته وعائلته . آفاق العيش فى عالم مسعيد تغمر السعادة أبناءه جميعا .. ذلك هو الايمان وتلك هى الحكمة من أوتيتها فقد أوتى خيرا كثيرا وما يؤتاها الا من علم الله منه سلامة الفطرة وصدق اليقين وبعد النظر .

« يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب (١) » .

١٠١٠ - الآن تهبأت نفس المؤمن للبذل رغبة في ثواب الله معبرضة عن دسائس الشيطان لا تخشى من البذل فقرا ولا اقلالا — فكيف يكون انفاقها ؟ . اتعلمه فيكون في الاعلان تشجيع للخير وبث للامل والتفاؤل في نفوس البائسين ؟ . أم تخفيه عن أعين الناس ليكون أقرب الى الاخلاص وابعد عن الرياء ! . كلا الامرين خير ولكن الاخفاء خيز من الاعلان حتى يتمحض الله خالصا من كل شائبة تكدر صفوه وتجعل للنفس فيه حظا غير محمود ، والله لا تخفى عليه خافية من عمل العبد وانفاقه . ورضا الله وحده هو المقصود بعمل الخير والبر والرحمة فليترك ذلك الله وحده يطلع عليه فيثيبه ، ويأخذ ويخلف خيرا منه ، ويستقرضه فيرده أضعافا مضاعفة « وما انفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من انصار » ان تبذلوا الصدقات فنعمنا هي وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير (٢) » .

١٢ - فاذا عزم على الانفاق مخلصا لله مبتغيا وجهه فلمن يكون الانفاق ؟ ان في المحتاجين البر وانفاق ، وفيهم القريب والبعيد ، وفيهم العامل المجاهد الذي وهب للخير نفسه فلم يسلك لجمع المال سبيلا ، وفيهم من أخذ يضرب في الارض ليكتسب لسد ما يكفيه فلم يكن في كسبه ما يكفيه فلائى هؤلاء يعطى ؟

اما العدالة فهو أن يسوى بين المحتاجين برهم وفاجرهم عاملهم ومقصرهم . . فليس مجال العقوبة على المعصية والتقصير أن يمنح حق الحياة في العيش الكريم ، وليس الناس هم الذين يزعمون لانفسهم حق العقوبة على المعصية والتقصير ، انما الله وحده هو الذي يملك هنا الحق وقد يكل الى المجتمع عقوبة التأديب والمواخظة الا أن ذلك لن يكون بالتضييق في العيش والحرام من ضرورات الحياة . . وفائدة الانفاق الخالص لوجه الله تعود على المنفق نفسه ويوفى اليه وحده الاجر ، فما يبالي أين يضع صدقته ما دام ذلك لله وفي عباد الله « ليس عليك هدام ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوفى لكم وانتم لا تعلمون (٣) » .

١٣ - وأما ما فوق العدالة فهو أن يتوخى بالانفاق أكثر الطبقات المحتاجة نفعا للمجتمع واستمسكا بعرى الفضل والحياء والكرامة فلا يسألون الناس مع حاجتهم ، كهؤلاء الذين يتفرغون للعمل العام ولخدمة المجتمع وللدفاع عن كرامته وسيادته ، ثم يلوذون بحمي متبع من العفة والحياء .

« للفقراء الذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الارض

(٢) البقرة : ٢٧٠ ، ٢٧١

(١) البقرة : ٢٦٩

(٣) البقرة ٢٧٢

يحبسهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس
الحافا وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم (١) » .

١٤ - الى هنا بلغ القرآن غايته في تشويق المؤمن للانفاق وحثه
على السخاء وتخليص انفاقه من شوائب المن والاذى والرياء وعلمه كيف
ينفق وكيف يضيع النفقة في مواضعها ، ورغبه في ذلك ترغيبا يجعله يؤثر
رضى الله ومغفرته وثوابه والبر بأخوانه وأبناء قومه على كل ما في الحياة
من لذة ومال وشهوة . لا جرم بعد ذلك أن تصبح نفس المؤمن متفتحة
للخير من جميع أبوابه ، مندفعة الى الايثار الى منتهى غاياته ، لا جرم أن
تصبح نفسه مستعدة لان تتلقى بكل رضى وأطمئنان ومبادرة الى الطاعة
والتنفيذ ، قول الله تعالى يطلب الانفاق في كل حالة من حالات الانسان .
ليله ونهاره سره وعلايته « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا
وعلانية فهم أجروهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٢) » .

١٥ - وبعد أن أعطى القرآن الصورة الواضحة للانفاق الذي يحبه
الله وينتفع به المجتمع ، ذكر صورة أخرى تقابل تلك الصورة كما هو
شأن القرآن في مثل هذه المناسبات - ليكمل الاقتناع والحث على الانفاق
والترغيب فيه . تلك هي صورة المرابين الذين يأخذون من المجتمع
ولا يعطونه ، يأخذون من الفقير الذي يحتاج للاخذ ، ومن المضطر الذي
يحتاج للون . صورة كريمة بغيضة ، صورة « الذي يتخبطه الشيطان
من المس (٣) » .

صورة يقترب بها الوعي به والتهديد كما اقترن بالانفاق الترغيب
والتشويق ، تهديد من الله ورسوله بحرب المرابي الى أن يرد الى الناس
كل ما أخذ منهم .

هذا مثل من أمثلة المؤيدات الاخلاقية يدلنا على أسلوب القرآن البالغ
الذي يؤدي من غير شك الى بذل المال للفتات التي تحتاج اليه .

٣ - وقد سلك القرآن مسلكا آخر يؤدي الى تلك الغاية ذاتها ، ذلك
هو مسلك القصص الذي استعمله القرآن للترغيب فيما يدمو اليه ،
وللترهيب عما ينهى عنه ، ولتنضرب لذلك بعض الامثلة :

لقد جاء في سورة القلم قصة قصيرة تصور نتيجة الامسباك عن
الفقراء وحرمانهم من حقوقهم في أموال الاغنياء ، صورة مؤثرة ترتد لها
فرائص المؤمنين المومنين .

انها قصة رجل يملك جنة وارفة الظلال ، موقرة بالفواكه والثمار .
كان قد اعتاد عند جذاها وقطافها أن يعطي الفقراء والمساكين - في كل
موسم - نصيبا منها ، ثم مات الرجل ورأى اولاده بعد وفاته أن يمنعوا
أولئك الفقراء والمحتاجين نصيبهم الذي كانوا يأخذونه في كل موسم .
مبررين ذلك بينهم وبين انفسهم بما يبرر به كل بخيل وظالم بخله

وشجحه ، من أن هؤلاء الفقراء لا حق لهم في مال لم يتعبوا بجمعه ولا يغيرسه وزراعته . كذلك أجمعوا على حرمان أولئك من نصيبهم في البستان إلا أخالهم وسطا في عمره بينهم نهاهم عن ذلك ، فأصروا على الظلم ، وبيتوا أمرهم على أن يقطعوا الثمار عند منبج الصبح قبل أن يتعائم الفقراء بذلك ويحضروا لاخذ نصيبهم ، ولكن الله كان أبر بالمحتاجين من أن يتركهم لعنت الظالمين وشجهم ، فأرسل إلى جنتهم بلاء في غمرات الظلام ، فاقطع أشجارها ، وأطاح بها فغدت قاعا صقفا كان لم تكن بالامس .

وينهب الاخوة في صباحهم مبكرين إلى حديقتهن حتى إذا وصلوا إلى مكانها لم يروا لها أثرا ، فالتبس عليهم الامر وظنوا انهم قد ضلوا الطريق إليها ، فلقد تركوها بالامس خضراء دائية القطوف والظلال ، فاین هي ؟ وأین أشجارها وثمارها ؟ وأین میاهها وأنهارها ؟

وفی وسط هذه الحيرة يرددهم أخوهم إلى رشدهم ، ويؤكد لهم انها هي جنتهم ولكن الله حرّمهم منها منذ عزموا على حرمان الفقراء والبائسين من نصيبهم المعتاد فيها ، وأرادوا أن يلقي بعضهم اللوم على بعض فيما قرروه من حرمان الفقراء ، ثم اعترفوا بذنبيهم وطفئناهم وأنابوا إلى ربهم ، وسألوه أن يعوضهم خيرا منها ، ويعقب القرآن على ذلك بأن هذا هو عذاب الباغين المانعين لحقوق الفقراء ، ولعذاب الآخرة أكبر ، ولتوب الله للمتقين اعظم ، وأن هذا هو العذل الذي لا حيف معه .

واليكم القصة كما وردت في القرآن الكريم :
« انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة اذ اقسوا ليصر منها »
« ليقطعنها » مصبحين ولا يستثنون ، فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فاصبحت كالصريم ، فتنادوا مصبحين ، ان اغدوا على حرتكم ان كنتم صافرين ، فانطلقوا وهم يتخافتون ان لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وغلبوا على حرد (أى منع) قادرين ، فلما راوها قالوا انا الضالون بل نحن محرومون . قال اوسطهم ألم اقل لكم لولا تسبحون ، قالوا سبحان ربنا انا كنا ظالمين فاقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، قالوا يا ويلتنا انا كنا طاغين ، عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها انا إلى ربنا راغبون ، كذلك وللعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ، ان لم تتقن عند ربهم جنات التميم ، افنحصل المسلمين كالجرمين ؟ ما لكم كيف تحكمون ؟ (١) » .

واليكم قصة أخرى :

انها قصة قارون الذي بغى على قومه بسبب غنائه ففتن به بعض الناس وتمنوا أن لو كان لهم مثل غناه ، ولكن أهل العلم بيتوا لهم ان الايمان والعمل الصالح الذي يثيب الله عليه خير عقبى للصابرين ، ثم خسف الله به الارض وجعله عبرة ، واليك آيات هذه القصة من كتاب الله الكريم :

« ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه تشبه بالعضبة اولى القوة ، اذ قال له قومه : لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين ، وابتهج فيها آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا واحسن كما احسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الارض ان الله لا يحب المفسدين ، قال انما اوتيته على علم عننى او لم يعلم ان الله قد اهلك من قبله من القرون من هو اشد منه قوة واكثر جمعا ولايسال عن ذنوبهم المجرمون ، فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما اوتى قارون انه לנו حظه عظيم ! وقال الذين اوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها الا الصابرون ، فخصفنا به وبداره الارض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ، واصبح الذين تمنوا مكانه بالامس يقولون ويكان الله ييسر للرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا ان من الله علينا لخسف بنا ، ويكانه لا يفلح الكافرون ، تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين (١) » .

ونجد مثل هذه القصص فى قصة أصحاب السفينة وقصة التيمين صاحبي الجدار ، الواردتين فى سورة الكهف (٢) ، وكثير غيرها من القصص .

٤ ويشبه ذلك مسلك القرآن فى الامثال التى ضربها للناس حول معانى الانفاق والبخل ، وقد قدمنا فى آيات الانفاق بعض الامثال التى ضربها الله لذلك .

واليكم مثلا آخر يضربه الله للاغنياء الذين نسوا نعمة الله عليهم فنبهوا وطمخوا وتجبروا على عباد الله .

قال تعالى فى سورة الكهف (٣) ايضا :

« واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لاحدهما جنتين من اعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا ، كلنا الجنتين آتت اكلها ولم تغلم منه شيئا وفجرا خلالهما نهرا ، وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره : انا اكثر منك مالا واعز نفرا ، ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال : ما اظن ان تبديله هذه ابدا وما اظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربي لاجبن خيرا منها متقلبا ، قال له صاحبه وهو يحاوره : اكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ؟ لكننا (لكن انا) هو الله ربى ولا اشرك بربى احدا ، ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله ! لا قوة الا بالله ان ترن انا اقل منك مالا ووزنا فصلى ربي ان يؤتى خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا ، او يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا ، واحيط بشمره ! فاصبح يقلب كفيه على ما انفق فيها وهى خاوية على عروشها ، ويقول : يا ليتنى لم اشرك بربى احدا ! ولم

(٢) سورة الكهف - ٧١ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٢ .

(١) سورة القصص - ٧١ - ٨٧ .

(٣) سورة الكهف - ٣٢ - ٤٤ .

تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا ، هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا » .

٥ - رغب في التساوان وحذر من التخاذل « وتعاونوا على البر والتقوى » (١) وأوجب أن يهتم الإنسان بشئون اخوانه « من أصبح لإيهم بأمر المسلمين فليس منهم » (٢) ورغب في تفريج كربة البائسين ومعد يد العون للمحتاجين « من فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة » (٣) .

٦ - اعتبر كل انسان مسئولا عما تحت يده ، ومسئولا عن شئون المجتمع واستقامة أمره « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته : الإمام راع وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيته ، والولد راع في مال أبيه ومسؤول عن رعيته ، والخدام راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته ، وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » (٤) .

٧ - أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمعروف هو كل ما جاءت به الشريعة واستحسنته المروءات ، والمنكر هو كل ما أنكرته الشريعة من ظلم وبغى وتخل عن الواجب ومنع للحقوق ، وهو ما تنكره المروءات من قسوة وبخل ظلم « وتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » (٥) .

« من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فقلبه وذلك أضعف الأيمان » (٦) وأعظم أنواع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما كان تجاه الطغاة والحكام الذين لا ينفذون شرائع الله ، فيأكلون أموال الشعب ، ولا يعدلون بين الرعية « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » (٧) واعتبر عدم القيام بهذا الواجب نذيرا بانحدار المجتمع وسوء العاقبة وغضب الله وشمول العذاب لمن كان منحرفا ولن كان سابقا عن الانحراف .

« واتقوا فتنة الذين ظلموا منكم خاصة » (٨) « لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » (٩) .

(ج) المؤيدات المادية :

من سنن الحياة أن لا تؤثر المواعظ والمرغبات في كثير من النفوس الشريرة بل لا يردعها عن الشر إلا خوفها من العقوبة ، وجزعها من الألم ، ولذلك لم يكتف الإسلام بما سبق من مؤيدات اعتقادية وأخلاقية ، بل

(٢) رواه الطبراني

(٤) رواه البيهقي ومسلم

(٦) رواه مسلم وأحمد

(٨) الاقبال : ٢٥

(١) المائدة : ٢

(٣) رواه البخاري ومسلم

(٥) آل عمران : ٦٠

(٧) رواه أبو حنيفة والترمذي

(٩) المائدة : ٧٨ ، ٧٩

شرع مؤبدات مادية ترهب المعتدين . وتكف من غلوائهم ، وهذه المؤبدات .
أربعة أقسام :

١ - الحسبة وهى ، أمر بالمعروف اذا ظهر تركه ونهى عن المنكر اذا ظهر فعله (١) وقد كان يقوم بها رجال أمناء موثوق بهم أشداء فى الحق لا يخافون فى الله لومة لائم ، ويمينون من قبل الحكومة فى غالب الاحيان ، وقد قسم القاضي أبو يعلى فى كتابه « الاحكام السلطانية » عمل المحتسب فى الامر بالمعروف الى اقسام ثلاثة : ما يتعلق بحقوق الله تعالى ، وما يتعلق بحقوق الأديمين ، وما كان مشتركا بينهما ، وقال فيما يتعلق بحقوق الأديمين انه ضربان : عام وخاص ، أما العام كائىل اذا تعطل شربه أو استهمل سوره ، فان كان فى بيت المال مال لم يلزم أهل البلد اصلاح شربهم وبناء سورهم لانها حقوق تلزم بيت المال وكذلك لو استهملت جوامعهم ، وان لم يكن فى بيت المال مال ، كان الامر ببناء السور واصلاح الشرب وعمارة المساجد ومراعاة بنى السبيل « المسافرين » متوجها الى كافة ذوى المكانة « اليسار » منهم ، فان شرعوا فى اقامة ذلك سقط عن المحتسب حق الامر به ، والا أعلم المحتسب السلطان ورغب أهل المكانة فى عمله اذا كان يضرهم تركه . وأما الخاص كالحقوق اذا مطلّت والديون اذا أخذت فللمحتسب أن يأمر بدفعها اذا استعداه أصحاب الحقوق ، وكذلك له أن يأمر بنفقات الاقارب اذا حكم بها حاكم ، وكذلك كفالة لمن تجب كفالته من الصغار ، وأما ما كان مشتركا بين حقوق الله والعباد فمن ذلك أن يأخذ السادة بحقوق العبيد والاماء ، وأن لا يكلفهم من الاعمال مالا يطيقون ، وكذلك أرباب البهائم بأخذهم « بعلفها » اذا قصرُوا وأن لا يستعملوها فيما لا يطيق ، ومن أخذ لقيطا وقصر فى كفالته أمره أن يقوم بحقوق التقاطه من التزام الكفالة أو تسليمه الى من يلتزمها ويقوم بها . ثم قسم المنكر أيضا الى ثلاثة أقسام : ما كان فى حقوق الله ، وما كان فى حقوق الأديمين ، وما كان مشتركا بين الحقين . فمما يتعلق بالمنكر فى حق من حقوق الله ، الامتناع عن اخراج الزكاة ، فان كان من الاموال الظاهرة أخذها العامل (الموظف لقبض الزكاة) منه قهرا ، وان كان من الاموال الباطنة احتمل أن يكون المحتسب أولى بالانكار عليه من عامل الصدقة ، وان رأى رجلا يتعرض لسؤال الناس وهو ذو جلد وقوة على العمل أمره أن يتعرض للاحتراف بعمل ، فان أصر على أسؤال عزره حتى يقطع ، وان وجد من يتصدى للعلم وليس من أهله أنكر عليه ومنعه وأظهر للناس أمره كيلا يفتروا به ، وكل ما منع الشرع من العقود الفاسدة فعل الى الحسبة انكاره والمنع منه ، ومن ذلك غش المبيعات وتدليس الاثمان « تزيف النقود » فينكره ويمنع منه ويؤدب عليه بحسب الحال فيه . ومما يتأكد على المحتسب فعله ، المنع من التططيف والبخس فى الكاكيل والموازين ، واذا استرأب بموازين السوكة ومكايلهم اختبرها وعابرها وختمها بطابع خاص بحيث لا يزنون أو يكيلون الا بها ، فان فعلوا أنكر عليهم وأدبهم ، ومما يتعلق بالمنكر فى حقوق الأديمين ، منع الرجل من التعسدى على جاره أو حريم جاره ، ومن ذلك منع المستأجرين من التعسدى على حقوق الاجراء « العمال » فاذا تعدى مستأجر على أجره فـ

نقصان أجره أو امتزادة عمل كفه عن تعديه وأنكر عليه بحسب حالة العدوان ، ولو قصر الاجر في حق المساجر فنقصه من العمل أو استزاد في الاجر منعه منه ، وإذا قصر الطبيب فأدى تقصيره الى تلف أو سقم منعه من ذلك ، ويراعى حال الصاغة والحاکة « النساجين » والقصابين والصباغين وأمثالهم في الامانة والخيانة لانهم ربما هربوا بأموال الناس ويراعى المحتسب على العموم فساد العمل وردائه وإن لم يتقدم أحد بالشكوى ، ومما يتعلق بما ينكر من الحقوق المشتركة بين الله والناس منع التعدي على أهل الذمة ، ومنع السادة من أساءة معاملة عبيدهم أو تكليفهم ما لا يطيقون ، وقد نص أحمد على أن حق المملوك هو أن يشبع ويكتسى ولا يكلف ما لا يطيق ولا يسهر ولا يشق عليه العمل وإن يزوجه حين البلوغ ويمتنع أرباب المواشي من استعمالها فيما لا تطيق (١) .

وذكر الشيرازي في « نهاية الرتبة في طلب الحسبة » أمورا أخرى كلها ترجع الى منع الاضرار بالناس في أسواقهم وصنائعهم ، كمنع التجار من الاحتكار والزاهم ببيع البضائع المحتكرة بأسعارها المعتدلة جبرا عنهم ومنع التفرير بالمنتجين من أهل الارياق كيلا يبيعوا بأسعار أرخص مما هي في الاسواق ، ومنع أحمال الحطب والتبن وأنشوك وكل ذي راحة كرهية من الدخول الى الاسواق كيلا يضر بلباس الناس ، وبمراقبنة الخبازين والطباخين وأرباب الصناعات كالصيادلة والعطارين والنساجين من غش الناس في طعمتهم وحوادثهم « (٢) » .

وقد نص ابن الاخوة في « معالم القرية » على ما يجب على المحتسب عمله من مراقبة الصناعات والتجارات ما يعتبر غاية في الطرافة والدفاع عن حقوق المواطنين وضمان أموالهم .

ونختم الكلام عن الحسبة ببعض نصوص منها من كلام شيخ الاسلام ابن تيمية رضى الله عنه في كتابه القيم « الحسبة » .

قال : وأما المحتسب فله الامر بالمعروف والنهي عن المنكر مما ليس من خصائص الولاة والقضاة وأهل الديوان ونحوهم ، وكثير من الامور الدينية هو مشترك بين ولاة الامور ، فمن أدى الواجب وجب طاعته فيسه .

ثم اخذ يعدد واجبات المحتسب ، ومما قاله :

« ويأمر المحتسب بالجمعة والجماعات ويصدق الحديث وأداء الامانات ، وينهى عن المنكرات من الكذب والخيانة وما يدخل في ذلك من تطبيق الكيال والميزان والغش في الصناعات والبياعات والديانات ونحو ذلك »

« ويدخل في المنكرات ما نهى الله عنه ورسوله عنه من العقود المحرمة الخ . . . »

(١) من كتاب الاحكام السلطانية لاى . يمل مع اختصار وتلخيص - ٣٦٨ - ٢٩٢

(٢) نهاية الرتبة : ١٣ - ٢٢ - ٢٤ - ٣٢ - ٣٤ - ٤٨ - ٦٥ - ٧٤

ومثل ذلك : الاحتكار لما يحتاج اليه الناس ، لما روى مسسليم في صحيحه عن معمر بن عبد الله ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يحتكر الا خاطيء » فان المحتكر هو الذى يعتمد الى شراء ما يحتاج اليه الناس من الطعام فيحبسه عنهم ويريد اعلاؤه عليهم وهو ظالم للخلق المشتريين . ولهذا كان لولى الامر أن يكره الناس على بيع ما عندهم بقيمة المثل عند ضرورة الناس اليه ، مثل من عنده طعام لا يحتاج اليه والناس في مخمصة فانه يجبر على بيعه للناس بقيمة المثل .

ولهذا قال الفقهاء من اضطر الى طعام الغير أخذه منه بغير اختياره بقيمة مثله ، ولو امتنع من بيعه الا بأكثر من سعره لم يستحق الاسعره .

ومن هنا يتبين أن السعر « أى التسعير » منه ما هو ظلم لا يجوز . ومنه ما هو عدل جائز .

فاذا تضمن ظلم الناس واکرامهم بغير حق على البيع بثمن لا يرضونه او منعهم مما أباحه الله لهم فهو حرام .

واذا تضمن العدل بين الناس مثل اكرامهم على ما يجب عليهم من المعاضة بثمن المثل ومنعهم مما يحرم عليهم من أخذ زيادة على عوض المثل فهو جائز بل واجب .

فاما الاول فيمثل ما روى أنس قال : غلا السعر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله لو سمرت فقال « ان الله هو القاضى الباسط الرازق المسعر وانى لارجو أن ألقى الله ولا يطلبنى أحد بظلمة ظلمتها اياه فى دم ولا مال » (١) .

فاذا كان الناس يبيعون سلعهم على الوجه المعروف من غير ظلم منهم وقد ارتفع السعر اما لقلة الشيء واما لكثرة الخلق (٢) فهذا الى الله ، فالزام الخلق أن يبيعوا بقيمة بعينها اكرام بغير حق .

وأما الثانى فمثل أن يمتنع أرباب السلع من بيعها مع ضرورة الناس اليها الا بزيادة على القيمة المعروفة ، فهنا يجب عليهم بيعها بقيمة المثل ، ولا معنى للتسعير الا الزامهم بقيمة المشتل فيجب أن يلتزموا بما ألزمهم الله به .

وأبلغ من هذا ان يكون الناس قد التزموا أن لا يبيع الطعام او غيره الا ناس معروفون أن لا تباع تلك السلع الا لهم ثم يبيعونها هم . فلو باع غيرهم ذلك منع ، اما طلبا لوظيفة تؤخذ من البائع ، او غير ظلم لما فى ذلك من الفساد ، فهنا يجب التسعير عليهم بحيث لا يبيعون الا بقيمة المثل ولا يشترون أموال الناس الا بقيمة المثل ، بلا تردد فى ذلك عند أحد من العلماء لانه اذا كان قد منع غيرهم أن يبيع ذلك النوع أو يشتريه ، فلو سوغ لهم أن يبيعوا بما اختاروا أو يشتروا بما اختاروا كان ذلك ظلما للخلق من وجهين ، ظلما للبائعين الذين يريدون بيع تلك الاموال وظلما للمشتريين منهم .

(١) رواه ابو داود والترمذى وصححه

(٢) هذا يقتضى مع أحداث الإراء الاقتصادية قانون العرض والطلب .

والواجب اذا لم يمكن دفع جميع الظلم ان يدفع الممكن منه ، فالتسجير في هذا واجب بلا نزاع ، وحقيقة الزامهم أن لا يبيعوا أو لا يشتروا الا بثمن المثل ، وهذا واجب في مواضع كثيرة من الشريعة ، فانه كما ان الاكراه على البيع لا يجوز الا بحق ، يجوز الاكراه على البيع بحق في مواضع ، مثل بيع المال لقضاء الدين الواجب والنفقة الواجبة ، والاكراه على أن لا يبيع الا بثمن المثل لا يجوز الا بحق .

ويجوز في مواضع مثل المضطر الى طعام الغير ومثل الغرس والبناء الذي في ملك الغير ، فان لرب الارض أن يأخذ بقيمة المثل لا بأكثر ، ونظائره كثيرة .

وكذلك فيما يجب عليه من طعام أو كسوة لمن عليه نفقته اذا وجد الطعام واللباس الذي يصلح له في العرف بثمن المثل ، لم يكن له أن ينتقل الى ما هو دونه حتى يبذل له ذلك بثمن يختاره ونظائره كثيرة .

ولهذا منع غير واحد من العلماء كابى حنيفة وأصحابه القسام الذين يقتسمون العقار وغيره بالاجر أن يشتروا (١) فانهم اذا اشتروا والناس محتاجون اليهم أغلوا عليهم الاجر ، فمنع البائعين الذين تواطوا على أن لا يبيعوا الا بثمن قدره أولى ، وكذلك منع المشتريين اذا تواطوا على أن يشتروا فيما يشتره أحدهم حتى يهضموا سلع الناس أولى .

وايضا اذا كانت الطائفة التي تشتري نوعا من السلع أو تبيعها قد تواطوا على أن يهضموا ما يشترونه فيشترونه بدون ثمن المثل المعروف ، ويزيدون ما يبيعونه بأكثر من الثمن المعروف ، وينموا ما يشترونه ، كان هذا أعظم عدوانا من تلقى السلع ، ومن بيع الحاضر للبادي ، ومن النجش ويكونون قد اتفقوا على ظلم الناس حتى يضطروا الى بيع سلعهم وشراؤها بأكثر من ثمن المثل ، والناس يحتاجون الى بيع ذلك وشرائه ، وما احتاج الى بيعه وشرائه عموم الناس ، فانه يجب أن لا يباع الا بثمن المثل اذا كانت الحاجة الى بيعه وشرائه عامة .

ومن ذلك أن يحتاج الناس الى صناعة ناس مثل حاجة الناس الى الفلاحة والنساجة والبنابة ، فان الناس لا بد لهم من طعام يأكلونه، وثياب يلبسونها ، ومسكن يسكنونها ، فاذا لم يجلب لهم من الثياب ما يكفيهم احتاجوا الى من ينسج لهم الثياب ، ولا بد لهم من طعام اما معلوب من غير بلدهم واما من زرع بلدهم وهذا هو الغالب ، وكذلك لا بد لهم من مسكن يسكنونها فيحتاجون الى البناء ، فلهذا قال غير واحد من الفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمد بن حنبل ، وغيرهم كابى حامد الغزالي وأبي الفرج بن الجوزي وغيرهما ان هذه الصناعات فرض على الكفاية فانه لا تتم مصلحة الناس الا بها كما ان الجهاد فرض على الكفاية الا أن ينعين

(١) أي إن يعملوا منهم كتابة لتحديد الاجرة وتكون لجهة القسمة لهم نصيبا مشتركين ولا يسمح لواحد منهم أن يعمل لنفسه

فيكون فرضا على الاعيان مثل أن يقصد العدو بلدا أو مثل أن يستغفر
الإمام أحدا ، ١ هـ (١) .

هذا هو نظام الحسبة ، وهو كما ترى ضمان مادي لنظم التكافل
الاجتماعي التي أقرها الاسلام ، وهو نظام فريد لم يسبق المسلمين اليه
أمة من الامم ، وقد كان مما أخذته الصليبيون عن المسلمين أثناء حكمهم في
فلسطين كما ثبت ذلك من كتاب « النظم القضائية ببيت المقدس » وهو
مطبوع بالفرنسية في باريس في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية (٢)
ثم نقلوا هذا النظام الى بلادهم في الغرب ، فلما تطورت الحياة السياسية
والاجتماعية منذ عصر النهضة وزعت مهام الحسبة على وزارات الصحة
والاسعاف والمعارف والعدل والشئون الاجتماعية ودوائر البلدية ، وقد
أخذناها عن الغربيين في نهضتنا الحديثة وهي بضاعتنا ردت إلينا .

٢ - الحدود والقصاص فمن حرم انسانا حق الحياة حرم الحياة
ومن حرم انسانا حق الكرامة بأن اعتدى على عرض غيره عوقب عقوبة
الزنا ، ومن اتهم انسانا في شرفه وعرضه عوقب عقوبة القذف ، ومن
اعتدى على حق انسان في التملك عوقب عقوبة السرقة ومن اعتدى على
عقله وهو وسيلة العلم عوقب عقوبة السكر ، ومن اعتدى على حق الناس
في حريتهم في أوطانهم وطبائنتهم وكرامتهم وأموالهم ، فقطع الطرقات
وأخاف السابلة ، عوقب عقوبة المحاربن الخارجين على النظام .

« انما جزاء الذين يعاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا
أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من
الارض (٣) » .

٣ - التعزير وهو العقوبة على ارتكاب كل منكر أو إبداء للغير بفعل
أو قول أو إشارة ، وقد ترك الاسلام تقدير هذه العقوبات للدولة تشرع
من الاحكام القضائية بشأنها ما يكون أصلح للزجر وأبلغ في ردع الناس
من العدوان وللتعزير أحكام مفصلة في كتب الفقه (٤) .

٤ - الجهاد ، وهو في الاسلام مشروع لغرضين : دفع العدوان على
حرية الامة في وطنها ودينها « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين
للله (٥) » وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب
المعتدين (٦) » واستنقاذ الضعفاء المضطهدين من سلطة الظالمين « اذن

(١) من مواضع متفرقة من رسالة الحسبة ونريد ان نلفت النظر هنا الى هذه الرسالة
القيمة ووجوب الاطلاع عليها

(٢) انظر الملحق الثالث لكتاب نهاية الاربعة ص ١٢٧

(٣) لقائمة : ٣٣

(٤) من اجمع ما ألف في هذا البحث كتاب التعزير في الشريعة الاسلامية . للدكتور عبد

المزين عامر القاضي بالمحكمة الوطنية

(٥) البقرة : ١٩٣

(٦) البقرة : ٦٩

للمدين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله (١) » وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان (٢) » .

والجهاد لهذه الغرضين جهاد في سبيل الله ، لأن سبيل الله أى طريقه هو الحق إذ هو لا يأمر إلا بالحق والخير ، وهو جهاد لاعلاء كلمة الله ، لأن كلمة الله هى شريعته وهى أحكامه التى أمر بها أو نهى عنها ، ومما أمر به إيتاء الحقوق الى أصحابها ، ومما نهى عنه ظلم الناس بعضهم لبعض ، ذلك إذا هو سبيل الله وتلك هى كلمته ، وهذا هو الجهاد فى الاسلام : اعلان لكلمة الحق ورفع منار العدل « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت (٣) » أى فى سبيل الاستعلاء والظلم . وقد نص القرآن على ثمره الجهاد فى الاسلام بقوله « الذين ان مكناهم فى الارض أقاموا الصلاة » وهذا رمز لنشر السمو الروحى فى العالم « وآتوا الزكاة » وهذا اقامة للتكافل الاجتماعى فى المجتمع « وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر (٤) » وهذا دعم للحقوق الطبيعية الخمسة التى قررها الاسلام لكل انسان (٥) .

(د) المؤيدات التشريعية

وهى نوعان : ١ - مصادر تشريعية - ٢ - قواعد تشريعية .

١ - المصادر التشريعية

وأهمها فى هذا الباب ثلاثة :

١ - الاستحسان ، وهو ترك العمل بالقياس الظاهر لدليل آخر أقوى منه ، هذا الدليل الآخر اما القياس ، أى أن يترك القياس الظاهر لقياس آخر أدق مسلكا وأقوى شسبها ، وأما الضرورة أى أن يترك القياس لضرورة عامة يترتب على ترك اعتبارها مفسدة ، وهذا القسم الثانى هو الذى يفيدنا فى هذا البحث ، فإن أبا حنيفة وهو أشهر القائلين بالاستحسان ، ترك العمل بمقتضى القياس فى كثير من الحالات لما يترتب على القياس من ضرر ومفسدة ، ومن هنا عرف ابن رشد الاستحسان بقوله : « انه الالتفات الى المصلحة واحمل (٦) » وما دامت الشريعة تقول على رعاية المصلحة وتحقيق العدالة ، فإن الاستحسان باب عظيم من الابواب التى تسمح بوضع النظم الكفيلة بتحقيق « التكافل الاجتماعى » وفق المبادئ التى ذكرناها وتحقيقا للحقوق الطبيعية الخمسة التى هى أساس نظرية « الاشتراكية الاسلامية » .

٢ - الاستصلاح ، وهو العمل بالمصالح المرسلة ، وذلك ان مصالح الناس تنقسم الى ثلاثة أقسام :

(١) الحج : ٣٩ ، ٤٠

(٢) النساء : ٧٥

(٣) النساء : ٧٦

(٤) الحج : ١ ، ٤

(٥) انظر نظام السلم والحرب فى الاسلام للمؤلف

(٦) انظر بحث الاستحسان فى المجلد الثانى من كتاب « التوفيق » ١٠٥/٤٨

(الطبعة الخامسة)

١ - مصالح اعتبرتها الشريعة وأقرتها ، وأصدرت التشريع اللازم لصيانتها ، كمصلحة الناس في حفظ عقائدهم ودمائهم وعقولهم وأموالهم وأعراضهم ، ومصالحهم في ضمان حقوقهم الطبيعية الخمسة التي ذكرناها

٢ - مصالح لم تعترف بها الشريعة ، كمصلحة بائع الخمر في الربح ، ومصلحة المتجسس للعدو في قبض المال لذلك ، ومصلحة المراهب في التعامل بالربا أو غير ذلك من المصالح التي يلزم من اعتبارها مفسدة عامة واضرار بالمجتمع ، وعدوان على حقوق الآخرين .

٣ - مصالح جديدة لم تكن في عهد النبوة ، فلم ينص عليها بذاتها كتاب ولا سنة ، ولكن الشريعة راعتها واعتبرتها ضمن المبادئ العامة التي وضعتها في التشريع .

فأما انقسم الاول من المصالح فيجب العمل بها باجماع العلماء . أما القسم الثاني فلا يجوز العمل بها قولا واحدا ، وأما القسم الثالث فقد ذهب جمهور العلماء الى اعتبارها وجوب العمل بها ، ومن أشهر من قال بها علماء المالكية ، وغيرهم من الفقهاء يدخلون العمل بها تحت أصل تشريعي من الأصول المتفق عليها ، وهي : الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، وأيا ما كان فالكل متفقون على اعتبارها في التشريع ، وعمل بها الصحابة والتابعون ، وضرب الشاطبي (١) لذلك كثيرا من الأمثلة . كجمع القرآن في مصحف واحد ، وتدوين الأدوية وتنظيم دوائر الدولة في عهد عمر وما بعده ، وبذلك منع عمر كبار الصحابة من مغادرة المدينة في عهد خلافته ل حاجته اليهم في التشريع واستشارتهم في قضايا الدولة ، وما فعله من مقاسمة الولاة نصف أموالهم كما هو معروف .

يقول الغزالي : « ان مقصود اشرع من الخلق خمسة وهو ان يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم ، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة ، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة » (٢) .

ويقول الشاطبي : « انا وجدنا الشارع قاصدا لمصالح العباد ، والاحكام العادية (أى التشريع المدني والجنائي والدولي وغيره) تصور معه حيثما دار ، فترى الشيء الواحد يمنع في حال لا تكون فيه مصلحة ، فإذا كان فيه مصلحة جاز » (٣) .

ويقول ابن القيم : « ان الله أرسل رسوله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ، وهو العدل الذي قامت به السموات والارض ، فإذا ظهرت امارات الحق وأدلت به بآى طريق فذلك من شرع الله ودينه ورضاه وأمره » (٤)

(١) انظر « الاعتصام » للإمام الشاطبي : ١٩ - ٢٠ - ٢١ - ٢٢ - ٢٣ - ٢٤ - ٢٥ - ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ - ٣٠ - ٣١ - ٣٢ - ٣٣ - ٣٤ - ٣٥ - ٣٦ - ٣٧ - ٣٨ - ٣٩ - ٤٠ - ٤١ - ٤٢ - ٤٣ - ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٤٧ - ٤٨ - ٤٩ - ٥٠ - ٥١ - ٥٢ - ٥٣ - ٥٤ - ٥٥ - ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ - ٥٩ - ٦٠ - ٦١ - ٦٢ - ٦٣ - ٦٤ - ٦٥ - ٦٦ - ٦٧ - ٦٨ - ٦٩ - ٧٠ - ٧١ - ٧٢ - ٧٣ - ٧٤ - ٧٥ - ٧٦ - ٧٧ - ٧٨ - ٧٩ - ٨٠ - ٨١ - ٨٢ - ٨٣ - ٨٤ - ٨٥ - ٨٦ - ٨٧ - ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ - ٩١ - ٩٢ - ٩٣ - ٩٤ - ٩٥ - ٩٦ - ٩٧ - ٩٨ - ٩٩ - ١٠٠ - ١٠١ - ١٠٢ - ١٠٣ - ١٠٤ - ١٠٥ - ١٠٦ - ١٠٧ - ١٠٨ - ١٠٩ - ١١٠ - ١١١ - ١١٢ - ١١٣ - ١١٤ - ١١٥ - ١١٦ - ١١٧ - ١١٨ - ١١٩ - ١٢٠ - ١٢١ - ١٢٢ - ١٢٣ - ١٢٤ - ١٢٥ - ١٢٦ - ١٢٧ - ١٢٨ - ١٢٩ - ١٣٠ - ١٣١ - ١٣٢ - ١٣٣ - ١٣٤ - ١٣٥ - ١٣٦ - ١٣٧ - ١٣٨ - ١٣٩ - ١٤٠ - ١٤١ - ١٤٢ - ١٤٣ - ١٤٤ - ١٤٥ - ١٤٦ - ١٤٧ - ١٤٨ - ١٤٩ - ١٥٠ - ١٥١ - ١٥٢ - ١٥٣ - ١٥٤ - ١٥٥ - ١٥٦ - ١٥٧ - ١٥٨ - ١٥٩ - ١٦٠ - ١٦١ - ١٦٢ - ١٦٣ - ١٦٤ - ١٦٥ - ١٦٦ - ١٦٧ - ١٦٨ - ١٦٩ - ١٧٠ - ١٧١ - ١٧٢ - ١٧٣ - ١٧٤ - ١٧٥ - ١٧٦ - ١٧٧ - ١٧٨ - ١٧٩ - ١٨٠ - ١٨١ - ١٨٢ - ١٨٣ - ١٨٤ - ١٨٥ - ١٨٦ - ١٨٧ - ١٨٨ - ١٨٩ - ١٩٠ - ١٩١ - ١٩٢ - ١٩٣ - ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٦ - ١٩٧ - ١٩٨ - ١٩٩ - ٢٠٠ - ٢٠١ - ٢٠٢ - ٢٠٣ - ٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢٠٦ - ٢٠٧ - ٢٠٨ - ٢٠٩ - ٢١٠ - ٢١١ - ٢١٢ - ٢١٣ - ٢١٤ - ٢١٥ - ٢١٦ - ٢١٧ - ٢١٨ - ٢١٩ - ٢٢٠ - ٢٢١ - ٢٢٢ - ٢٢٣ - ٢٢٤ - ٢٢٥ - ٢٢٦ - ٢٢٧ - ٢٢٨ - ٢٢٩ - ٢٣٠ - ٢٣١ - ٢٣٢ - ٢٣٣ - ٢٣٤ - ٢٣٥ - ٢٣٦ - ٢٣٧ - ٢٣٨ - ٢٣٩ - ٢٤٠ - ٢٤١ - ٢٤٢ - ٢٤٣ - ٢٤٤ - ٢٤٥ - ٢٤٦ - ٢٤٧ - ٢٤٨ - ٢٤٩ - ٢٥٠ - ٢٥١ - ٢٥٢ - ٢٥٣ - ٢٥٤ - ٢٥٥ - ٢٥٦ - ٢٥٧ - ٢٥٨ - ٢٥٩ - ٢٦٠ - ٢٦١ - ٢٦٢ - ٢٦٣ - ٢٦٤ - ٢٦٥ - ٢٦٦ - ٢٦٧ - ٢٦٨ - ٢٦٩ - ٢٧٠ - ٢٧١ - ٢٧٢ - ٢٧٣ - ٢٧٤ - ٢٧٥ - ٢٧٦ - ٢٧٧ - ٢٧٨ - ٢٧٩ - ٢٨٠ - ٢٨١ - ٢٨٢ - ٢٨٣ - ٢٨٤ - ٢٨٥ - ٢٨٦ - ٢٨٧ - ٢٨٨ - ٢٨٩ - ٢٩٠ - ٢٩١ - ٢٩٢ - ٢٩٣ - ٢٩٤ - ٢٩٥ - ٢٩٦ - ٢٩٧ - ٢٩٨ - ٢٩٩ - ٣٠٠ - ٣٠١ - ٣٠٢ - ٣٠٣ - ٣٠٤ - ٣٠٥ - ٣٠٦ - ٣٠٧ - ٣٠٨ - ٣٠٩ - ٣١٠ - ٣١١ - ٣١٢ - ٣١٣ - ٣١٤ - ٣١٥ - ٣١٦ - ٣١٧ - ٣١٨ - ٣١٩ - ٣٢٠ - ٣٢١ - ٣٢٢ - ٣٢٣ - ٣٢٤ - ٣٢٥ - ٣٢٦ - ٣٢٧ - ٣٢٨ - ٣٢٩ - ٣٣٠ - ٣٣١ - ٣٣٢ - ٣٣٣ - ٣٣٤ - ٣٣٥ - ٣٣٦ - ٣٣٧ - ٣٣٨ - ٣٣٩ - ٣٤٠ - ٣٤١ - ٣٤٢ - ٣٤٣ - ٣٤٤ - ٣٤٥ - ٣٤٦ - ٣٤٧ - ٣٤٨ - ٣٤٩ - ٣٥٠ - ٣٥١ - ٣٥٢ - ٣٥٣ - ٣٥٤ - ٣٥٥ - ٣٥٦ - ٣٥٧ - ٣٥٨ - ٣٥٩ - ٣٦٠ - ٣٦١ - ٣٦٢ - ٣٦٣ - ٣٦٤ - ٣٦٥ - ٣٦٦ - ٣٦٧ - ٣٦٨ - ٣٦٩ - ٣٧٠ - ٣٧١ - ٣٧٢ - ٣٧٣ - ٣٧٤ - ٣٧٥ - ٣٧٦ - ٣٧٧ - ٣٧٨ - ٣٧٩ - ٣٨٠ - ٣٨١ - ٣٨٢ - ٣٨٣ - ٣٨٤ - ٣٨٥ - ٣٨٦ - ٣٨٧ - ٣٨٨ - ٣٨٩ - ٣٩٠ - ٣٩١ - ٣٩٢ - ٣٩٣ - ٣٩٤ - ٣٩٥ - ٣٩٦ - ٣٩٧ - ٣٩٨ - ٣٩٩ - ٤٠٠ - ٤٠١ - ٤٠٢ - ٤٠٣ - ٤٠٤ - ٤٠٥ - ٤٠٦ - ٤٠٧ - ٤٠٨ - ٤٠٩ - ٤١٠ - ٤١١ - ٤١٢ - ٤١٣ - ٤١٤ - ٤١٥ - ٤١٦ - ٤١٧ - ٤١٨ - ٤١٩ - ٤٢٠ - ٤٢١ - ٤٢٢ - ٤٢٣ - ٤٢٤ - ٤٢٥ - ٤٢٦ - ٤٢٧ - ٤٢٨ - ٤٢٩ - ٤٣٠ - ٤٣١ - ٤٣٢ - ٤٣٣ - ٤٣٤ - ٤٣٥ - ٤٣٦ - ٤٣٧ - ٤٣٨ - ٤٣٩ - ٤٤٠ - ٤٤١ - ٤٤٢ - ٤٤٣ - ٤٤٤ - ٤٤٥ - ٤٤٦ - ٤٤٧ - ٤٤٨ - ٤٤٩ - ٤٥٠ - ٤٥١ - ٤٥٢ - ٤٥٣ - ٤٥٤ - ٤٥٥ - ٤٥٦ - ٤٥٧ - ٤٥٨ - ٤٥٩ - ٤٦٠ - ٤٦١ - ٤٦٢ - ٤٦٣ - ٤٦٤ - ٤٦٥ - ٤٦٦ - ٤٦٧ - ٤٦٨ - ٤٦٩ - ٤٧٠ - ٤٧١ - ٤٧٢ - ٤٧٣ - ٤٧٤ - ٤٧٥ - ٤٧٦ - ٤٧٧ - ٤٧٨ - ٤٧٩ - ٤٨٠ - ٤٨١ - ٤٨٢ - ٤٨٣ - ٤٨٤ - ٤٨٥ - ٤٨٦ - ٤٨٧ - ٤٨٨ - ٤٨٩ - ٤٩٠ - ٤٩١ - ٤٩٢ - ٤٩٣ - ٤٩٤ - ٤٩٥ - ٤٩٦ - ٤٩٧ - ٤٩٨ - ٤٩٩ - ٥٠٠ - ٥٠١ - ٥٠٢ - ٥٠٣ - ٥٠٤ - ٥٠٥ - ٥٠٦ - ٥٠٧ - ٥٠٨ - ٥٠٩ - ٥١٠ - ٥١١ - ٥١٢ - ٥١٣ - ٥١٤ - ٥١٥ - ٥١٦ - ٥١٧ - ٥١٨ - ٥١٩ - ٥٢٠ - ٥٢١ - ٥٢٢ - ٥٢٣ - ٥٢٤ - ٥٢٥ - ٥٢٦ - ٥٢٧ - ٥٢٨ - ٥٢٩ - ٥٣٠ - ٥٣١ - ٥٣٢ - ٥٣٣ - ٥٣٤ - ٥٣٥ - ٥٣٦ - ٥٣٧ - ٥٣٨ - ٥٣٩ - ٥٤٠ - ٥٤١ - ٥٤٢ - ٥٤٣ - ٥٤٤ - ٥٤٥ - ٥٤٦ - ٥٤٧ - ٥٤٨ - ٥٤٩ - ٥٥٠ - ٥٥١ - ٥٥٢ - ٥٥٣ - ٥٥٤ - ٥٥٥ - ٥٥٦ - ٥٥٧ - ٥٥٨ - ٥٥٩ - ٥٦٠ - ٥٦١ - ٥٦٢ - ٥٦٣ - ٥٦٤ - ٥٦٥ - ٥٦٦ - ٥٦٧ - ٥٦٨ - ٥٦٩ - ٥٧٠ - ٥٧١ - ٥٧٢ - ٥٧٣ - ٥٧٤ - ٥٧٥ - ٥٧٦ - ٥٧٧ - ٥٧٨ - ٥٧٩ - ٥٨٠ - ٥٨١ - ٥٨٢ - ٥٨٣ - ٥٨٤ - ٥٨٥ - ٥٨٦ - ٥٨٧ - ٥٨٨ - ٥٨٩ - ٥٩٠ - ٥٩١ - ٥٩٢ - ٥٩٣ - ٥٩٤ - ٥٩٥ - ٥٩٦ - ٥٩٧ - ٥٩٨ - ٥٩٩ - ٦٠٠ - ٦٠١ - ٦٠٢ - ٦٠٣ - ٦٠٤ - ٦٠٥ - ٦٠٦ - ٦٠٧ - ٦٠٨ - ٦٠٩ - ٦١٠ - ٦١١ - ٦١٢ - ٦١٣ - ٦١٤ - ٦١٥ - ٦١٦ - ٦١٧ - ٦١٨ - ٦١٩ - ٦٢٠ - ٦٢١ - ٦٢٢ - ٦٢٣ - ٦٢٤ - ٦٢٥ - ٦٢٦ - ٦٢٧ - ٦٢٨ - ٦٢٩ - ٦٣٠ - ٦٣١ - ٦٣٢ - ٦٣٣ - ٦٣٤ - ٦٣٥ - ٦٣٦ - ٦٣٧ - ٦٣٨ - ٦٣٩ - ٦٤٠ - ٦٤١ - ٦٤٢ - ٦٤٣ - ٦٤٤ - ٦٤٥ - ٦٤٦ - ٦٤٧ - ٦٤٨ - ٦٤٩ - ٦٥٠ - ٦٥١ - ٦٥٢ - ٦٥٣ - ٦٥٤ - ٦٥٥ - ٦٥٦ - ٦٥٧ - ٦٥٨ - ٦٥٩ - ٦٦٠ - ٦٦١ - ٦٦٢ - ٦٦٣ - ٦٦٤ - ٦٦٥ - ٦٦٦ - ٦٦٧ - ٦٦٨ - ٦٦٩ - ٦٧٠ - ٦٧١ - ٦٧٢ - ٦٧٣ - ٦٧٤ - ٦٧٥ - ٦٧٦ - ٦٧٧ - ٦٧٨ - ٦٧٩ - ٦٨٠ - ٦٨١ - ٦٨٢ - ٦٨٣ - ٦٨٤ - ٦٨٥ - ٦٨٦ - ٦٨٧ - ٦٨٨ - ٦٨٩ - ٦٩٠ - ٦٩١ - ٦٩٢ - ٦٩٣ - ٦٩٤ - ٦٩٥ - ٦٩٦ - ٦٩٧ - ٦٩٨ - ٦٩٩ - ٧٠٠ - ٧٠١ - ٧٠٢ - ٧٠٣ - ٧٠٤ - ٧٠٥ - ٧٠٦ - ٧٠٧ - ٧٠٨ - ٧٠٩ - ٧١٠ - ٧١١ - ٧١٢ - ٧١٣ - ٧١٤ - ٧١٥ - ٧١٦ - ٧١٧ - ٧١٨ - ٧١٩ - ٧٢٠ - ٧٢١ - ٧٢٢ - ٧٢٣ - ٧٢٤ - ٧٢٥ - ٧٢٦ - ٧٢٧ - ٧٢٨ - ٧٢٩ - ٧٣٠ - ٧٣١ - ٧٣٢ - ٧٣٣ - ٧٣٤ - ٧٣٥ - ٧٣٦ - ٧٣٧ - ٧٣٨ - ٧٣٩ - ٧٤٠ - ٧٤١ - ٧٤٢ - ٧٤٣ - ٧٤٤ - ٧٤٥ - ٧٤٦ - ٧٤٧ - ٧٤٨ - ٧٤٩ - ٧٥٠ - ٧٥١ - ٧٥٢ - ٧٥٣ - ٧٥٤ - ٧٥٥ - ٧٥٦ - ٧٥٧ - ٧٥٨ - ٧٥٩ - ٧٦٠ - ٧٦١ - ٧٦٢ - ٧٦٣ - ٧٦٤ - ٧٦٥ - ٧٦٦ - ٧٦٧ - ٧٦٨ - ٧٦٩ - ٧٧٠ - ٧٧١ - ٧٧٢ - ٧٧٣ - ٧٧٤ - ٧٧٥ - ٧٧٦ - ٧٧٧ - ٧٧٨ - ٧٧٩ - ٧٨٠ - ٧٨١ - ٧٨٢ - ٧٨٣ - ٧٨٤ - ٧٨٥ - ٧٨٦ - ٧٨٧ - ٧٨٨ - ٧٨٩ - ٧٩٠ - ٧٩١ - ٧٩٢ - ٧٩٣ - ٧٩٤ - ٧٩٥ - ٧٩٦ - ٧٩٧ - ٧٩٨ - ٧٩٩ - ٨٠٠ - ٨٠١ - ٨٠٢ - ٨٠٣ - ٨٠٤ - ٨٠٥ - ٨٠٦ - ٨٠٧ - ٨٠٨ - ٨٠٩ - ٨١٠ - ٨١١ - ٨١٢ - ٨١٣ - ٨١٤ - ٨١٥ - ٨١٦ - ٨١٧ - ٨١٨ - ٨١٩ - ٨٢٠ - ٨٢١ - ٨٢٢ - ٨٢٣ - ٨٢٤ - ٨٢٥ - ٨٢٦ - ٨٢٧ - ٨٢٨ - ٨٢٩ - ٨٣٠ - ٨٣١ - ٨٣٢ - ٨٣٣ - ٨٣٤ - ٨٣٥ - ٨٣٦ - ٨٣٧ - ٨٣٨ - ٨٣٩ - ٨٤٠ - ٨٤١ - ٨٤٢ - ٨٤٣ - ٨٤٤ - ٨٤٥ - ٨٤٦ - ٨٤٧ - ٨٤٨ - ٨٤٩ - ٨٥٠ - ٨٥١ - ٨٥٢ - ٨٥٣ - ٨٥٤ - ٨٥٥ - ٨٥٦ - ٨٥٧ - ٨٥٨ - ٨٥٩ - ٨٦٠ - ٨٦١ - ٨٦٢ - ٨٦٣ - ٨٦٤ - ٨٦٥ - ٨٦٦ - ٨٦٧ - ٨٦٨ - ٨٦٩ - ٨٧٠ - ٨٧١ - ٨٧٢ - ٨٧٣ - ٨٧٤ - ٨٧٥ - ٨٧٦ - ٨٧٧ - ٨٧٨ - ٨٧٩ - ٨٨٠ - ٨٨١ - ٨٨٢ - ٨٨٣ - ٨٨٤ - ٨٨٥ - ٨٨٦ - ٨٨٧ - ٨٨٨ - ٨٨٩ - ٨٩٠ - ٨٩١ - ٨٩٢ - ٨٩٣ - ٨٩٤ - ٨٩٥ - ٨٩٦ - ٨٩٧ - ٨٩٨ - ٨٩٩ - ٩٠٠ - ٩٠١ - ٩٠٢ - ٩٠٣ - ٩٠٤ - ٩٠٥ - ٩٠٦ - ٩٠٧ - ٩٠٨ - ٩٠٩ - ٩١٠ - ٩١١ - ٩١٢ - ٩١٣ - ٩١٤ - ٩١٥ - ٩١٦ - ٩١٧ - ٩١٨ - ٩١٩ - ٩٢٠ - ٩٢١ - ٩٢٢ - ٩٢٣ - ٩٢٤ - ٩٢٥ - ٩٢٦ - ٩٢٧ - ٩٢٨ - ٩٢٩ - ٩٣٠ - ٩٣١ - ٩٣٢ - ٩٣٣ - ٩٣٤ - ٩٣٥ - ٩٣٦ - ٩٣٧ - ٩٣٨ - ٩٣٩ - ٩٤٠ - ٩٤١ - ٩٤٢ - ٩٤٣ - ٩٤٤ - ٩٤٥ - ٩٤٦ - ٩٤٧ - ٩٤٨ - ٩٤٩ - ٩٥٠ - ٩٥١ - ٩٥٢ - ٩٥٣ - ٩٥٤ - ٩٥٥ - ٩٥٦ - ٩٥٧ - ٩٥٨ - ٩٥٩ - ٩٦٠ - ٩٦١ - ٩٦٢ - ٩٦٣ - ٩٦٤ - ٩٦٥ - ٩٦٦ - ٩٦٧ - ٩٦٨ - ٩٦٩ - ٩٧٠ - ٩٧١ - ٩٧٢ - ٩٧٣ - ٩٧٤ - ٩٧٥ - ٩٧٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨ - ٩٧٩ - ٩٨٠ - ٩٨١ - ٩٨٢ - ٩٨٣ - ٩٨٤ - ٩٨٥ - ٩٨٦ - ٩٨٧ - ٩٨٨ - ٩٨٩ - ٩٩٠ - ٩٩١ - ٩٩٢ - ٩٩٣ - ٩٩٤ - ٩٩٥ - ٩٩٦ - ٩٩٧ - ٩٩٨ - ٩٩٩ - ١٠٠٠ - ١٠٠١ - ١٠٠٢ - ١٠٠٣ - ١٠٠٤ - ١٠٠٥ - ١٠٠٦ - ١٠٠٧ - ١٠٠٨ - ١٠٠٩ - ١٠١٠ - ١٠١١ - ١٠١٢ - ١٠١٣ - ١٠١٤ - ١٠١٥ - ١٠١٦ - ١٠١٧ - ١٠١٨ - ١٠١٩ - ١٠٢٠ - ١٠٢١ - ١٠٢٢ - ١٠٢٣ - ١٠٢٤ - ١٠٢٥ - ١٠٢٦ - ١٠٢٧ - ١٠٢٨ - ١٠٢٩ - ١٠٣٠ - ١٠٣١ - ١٠٣٢ - ١٠٣٣ - ١٠٣٤ - ١٠٣٥ - ١٠٣٦ - ١٠٣٧ - ١٠٣٨ - ١٠٣٩ - ١٠٤٠ - ١٠٤١ - ١٠٤٢ - ١٠٤٣ - ١٠٤٤ - ١٠٤٥ - ١٠٤٦ - ١٠٤٧ - ١٠٤٨ - ١٠٤٩ - ١٠٥٠ - ١٠٥١ - ١٠٥٢ - ١٠٥٣ - ١٠٥٤ - ١٠٥٥ - ١٠٥٦ - ١٠٥٧ - ١٠٥٨ - ١٠٥٩ - ١٠٦٠ - ١٠٦١ - ١٠٦٢ - ١٠٦٣ - ١٠٦٤ - ١٠٦٥ - ١٠٦٦ - ١٠٦٧ - ١٠٦٨ - ١٠٦٩ - ١٠٧٠ - ١٠٧١ - ١٠٧٢ - ١٠٧٣ - ١٠٧٤ - ١٠٧٥ - ١٠٧٦ - ١٠٧٧ - ١٠٧٨ - ١٠٧٩ - ١٠٨٠ - ١٠٨١ - ١٠٨٢ - ١٠٨٣ - ١٠٨٤ - ١٠٨٥ - ١٠٨٦ - ١٠٨٧ - ١٠٨٨ - ١٠٨٩ - ١٠٩٠ - ١٠٩١ - ١٠٩٢ - ١٠٩٣ - ١٠٩٤ - ١٠٩٥ - ١٠٩٦ - ١٠٩٧ - ١٠٩٨ - ١٠٩٩ - ١١٠٠ - ١١٠١ - ١١٠٢ - ١١٠٣ - ١١٠٤ - ١١٠٥ - ١١٠٦ - ١١٠٧ - ١١٠٨ - ١١٠٩ - ١١١٠ - ١١١١ - ١١١٢ - ١١١٣ - ١١١٤ - ١١١٥ - ١١١٦ - ١١١٧ - ١١١٨ - ١١١٩ - ١١٢٠ - ١١٢١ - ١١٢٢ - ١١٢٣ - ١١٢٤ - ١١٢٥ - ١١٢٦ - ١١٢٧ - ١١٢٨ - ١١٢٩ - ١١٣٠ - ١١٣١ - ١١٣٢ - ١١٣٣ - ١١٣٤ - ١١٣٥ - ١١٣٦ - ١١٣٧ - ١١٣٨ - ١١٣٩ - ١١٤٠ - ١١٤١ - ١١٤٢ - ١١٤٣ - ١١٤٤ - ١١٤٥ - ١١٤٦ - ١١٤٧ - ١١٤٨ - ١١٤٩ - ١١٥٠ - ١١٥١ - ١١٥٢ - ١١٥٣ - ١١٥٤ - ١١٥٥ - ١١٥٦ - ١١٥٧ - ١١٥٨ - ١١٥٩ - ١١٦٠ - ١١٦١ - ١١٦٢ - ١١٦٣ - ١١٦٤ - ١١٦٥ - ١١٦٦ - ١١٦٧ - ١١٦٨ - ١١٦٩ - ١١٧٠ - ١١٧١ - ١١٧٢ - ١١٧٣ - ١١٧٤ - ١١٧٥ - ١١٧٦ - ١١٧٧ - ١١٧٨ - ١١٧٩ - ١١٨٠ - ١١٨١ - ١١٨٢ - ١١٨٣ - ١١٨٤ - ١١٨٥ - ١١٨٦ - ١١٨٧ - ١١٨٨ - ١١٨٩ - ١١٩٠ - ١١٩١ - ١١٩٢ - ١١٩٣ - ١١٩٤ - ١١٩٥ - ١١٩٦ - ١١٩٧ - ١١٩٨ - ١١٩٩ - ١٢٠٠ - ١٢٠١ - ١٢٠٢ - ١٢٠٣ - ١٢٠٤ - ١٢٠٥ - ١٢٠٦ - ١٢٠٧ - ١٢٠٨ - ١٢٠٩ - ١٢١٠ - ١٢١١ - ١٢١٢ - ١٢١٣ - ١٢١٤ - ١٢١٥ - ١٢١٦ - ١٢١٧ - ١٢١٨ - ١٢١٩ - ١٢٢٠ - ١٢٢١ - ١٢٢٢ - ١٢٢٣ - ١٢٢٤ - ١٢٢٥ - ١٢٢٦ - ١٢٢٧ - ١٢٢٨ - ١٢٢٩ - ١٢٣٠ - ١٢٣١ - ١٢٣٢ - ١٢٣٣ - ١٢٣٤ - ١٢٣٥ - ١٢٣٦ - ١٢٣٧ - ١٢٣٨ - ١٢٣٩ - ١٢٤٠ - ١٢٤١ - ١٢٤٢ - ١٢٤٣ - ١٢٤٤ - ١٢٤٥ - ١٢٤٦ - ١٢٤٧ - ١٢٤٨ - ١٢٤٩ - ١٢٥٠ - ١٢٥١ - ١٢٥٢ - ١٢٥٣ - ١٢٥٤ - ١٢٥٥ - ١٢٥٦ - ١٢٥٧ - ١٢٥٨ - ١٢٥٩ - ١٢٦٠ - ١٢٦١ - ١٢٦٢ - ١٢٦٣ - ١٢٦٤ - ١٢٦٥ - ١٢٦٦ - ١٢٦٧ - ١٢٦٨ - ١٢٦٩ - ١٢٧٠ - ١٢٧١ - ١٢٧٢ - ١٢٧٣ - ١٢٧٤ - ١٢٧٥ - ١٢٧٦ - ١٢٧٧ - ١٢٧٨ - ١٢٧٩ - ١٢٨٠ - ١٢٨١ - ١٢٨٢ - ١٢٨٣ - ١٢٨٤ - ١٢٨٥ - ١٢٨٦ - ١٢٨٧ - ١٢٨٨ - ١٢٨٩ - ١٢٩٠ - ١٢٩١ - ١٢٩٢ - ١٢٩٣ - ١٢٩٤ - ١٢٩٥ - ١٢٩٦ - ١٢٩٧ - ١٢٩٨ - ١٢٩٩ - ١٣٠٠ - ١٣٠١ - ١٣٠٢ - ١٣٠٣ - ١٣٠٤ - ١٣٠٥ - ١٣٠٦ - ١٣٠٧ - ١٣٠٨ - ١٣٠٩ - ١٣١٠ - ١٣١١ - ١٣١٢ - ١٣١٣ - ١٣١٤ - ١٣١٥ - ١٣١٦ - ١٣١٧ - ١٣١٨ - ١٣١٩ - ١٣٢٠ - ١٣٢١ - ١٣٢٢ - ١٣٢٣ - ١٣٢٤ - ١٣٢٥ - ١٣٢٦ - ١٣٢٧ - ١٣٢٨ - ١٣٢٩ - ١٣٣٠ - ١٣٣١ - ١٣٣٢ - ١٣٣٣ - ١٣٣٤ - ١٣٣٥ - ١٣٣٦ - ١٣٣٧ - ١٣٣٨ - ١٣٣٩ - ١٣٤٠ - ١٣٤١ - ١٣٤٢ - ١٣٤٣ - ١٣٤٤ - ١٣٤٥ - ١٣٤٦ - ١٣٤٧ - ١٣٤٨ - ١٣٤٩ - ١٣٥٠ - ١٣٥١ - ١٣٥٢ - ١٣٥٣ - ١٣٥٤ - ١٣٥٥ - ١٣٥٦ - ١٣٥٧ - ١٣٥٨ - ١٣٥٩ - ١٣٦٠ - ١٣٦١ - ١٣٦٢ - ١٣٦٣ - ١٣٦٤ - ١٣٦٥ - ١٣٦٦ - ١٣٦٧ - ١٣٦٨ - ١٣٦٩ - ١٣٧٠ - ١٣٧١ - ١٣٧٢ - ١٣٧٣ - ١٣٧٤ - ١٣٧٥ - ١٣٧٦ - ١٣٧٧ - ١٣٧٨ - ١٣٧٩ - ١٣٨٠ - ١٣٨١ - ١٣٨٢ - ١٣٨٣ - ١٣

ويقول الأئمة : ان الاحكام انما شرعت لمقاصد العباد (أي مصالحهم) لان الاجماع قائم على أن احكام الله لا تخلو عن حكمة ومقصد ، وليس ذلك لمنفعة عائدة الى الله تعالى ، بل لمنفعة الناس ، وقد قال الله تعالى : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين (١) » وقال : « ورحمتى وسعت كل شيء (٢) » فلو خلت الاحكام عن حكمة عائدة الى الناس لكانت تقمة لا زخمة ، وقال عليه الصلاة والسلام : « لا ضرر ولا ضرار (٣) » فلو لم يكن التكليف قائما على مصالح تعود الى العباد لكان ضرا محضاً (٤) .

وهكذا يكون العمل بالمصالح المرسل (الاستصلاح) مصدرا تشريعا عظيما لوضع النظم والقوانين الكفيلة بتحقيق مقاصد الشريعة في تحقيق العدالة الاجتماعية والتكافل الاجتماعى .

٣ - العرف

وهو ايضا ثلاثة أنواع :

- ١ - ما أقره الشارع فهذا يجب العمل به قولاً واحداً
- ٢ - ما ألفاه الشارع كالاعراف السيئة التي كانت في الجاهلية وألفاها الاسلام ، فهذه باطلة لا يجوز اعتبارها قولاً واحداً .

٣ - ما جدد للناس بعد عصر النبوة وكانت لهم فيه مصلحة ولا يتنافى مع نص من نصوص الشريعة أو مقصد من مقاصدها ، فهذا معتبر وخاصة في المعاملات ، وقد بنيت عليه أحكام كثيرة في الفقه الاسلامى ، واعتبر مصدرا من مصادر التشريع ، وقد نصوا على أن « المعروف كالمشروط » وأن تعامل الناس حجة يجب العمل بها وغير ذلك من القواعد التي تعتبر العرف مصدرا للتشريع (٥) .

ولا شك ان الناس لا يتفقون على عرف يتراضون العمل به الا لما فيه من رفق بهم وتيسير لمعاملتهم وضمان لحقوقهم ومصالحهم المشروعة وبذلك يكون مصدرا عظيما لسن القوانين المحققة للتكافل الاجتماعى .

(ب) القواعد التشريعية

وهناك قواعد تشريعية عامة يمكن أن يستند اليها في وضع التشريعات اللازمة لتحقيق التكافل الاجتماعى وضمان الحقوق الطبيعية الخمسة ، وهي اما مأخوذة من القرآن أو السنة ، أو مستنبطة من مجموع الاحكام الشرعية نذكر منها على سبيل المثال القواعد التالية :

(١) الانبياء : ١٠٧

(٢) الاعراف : ١٥٦

(٣) رواد احمد وابن ماجه

(٤) الاحكام : ٣ - ٥٤ باختصار وكليش

(٥) جاء في مقدمة مجلة الاحكام المدلية كثير من المواد المتعلقة بالعرف ، وانظر بحث العرف في المدخل الفقهي العام للاستاذ الزرقا : ٨٢٣ - ٩٣٠ (الطبعة الخامسة)

- ١ - لقد كرمنا بني آدم « آية »
- ٢ - ليس للانسان الا ما سعى « آية »
- ٣ - ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى « آية »
- ٤ - وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى « آية »
- ٥ - لا يكلف الله نفسا الا وسعها « آية »
- ٦ - لا تبخسوا الناس أشياءهم « آية »
- ٧ - لا ضرر ولا ضرار « حديث »
- ٨ - ان لجسمك عليك حقا « حديث »
- ٩ - ان لزوجك عليك حقا « حديث »
- ١٠ - ليس لمرق ظالم حق « حديث »
- ١١ - ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب « قاعدة »
- ١٢ - ما يؤدي الى الحرام فهو حرام « قاعدة »
- ١٣ - درء المفاسد مقدم على جلب المصالح « قاعدة »
- ١٤ - الضرورات تبيح المحظورات « قاعدة »
- ١٥ - يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام « قاعدة (١) »
- ١٦ - يتحمل الضرر الأدنى لدفع الأعلى « قاعدة »
- ١٧ - المشقة تجلب التيسير « قاعدة »
- ١٨ - التصرف على الرعية منوط بالمصلحة « قاعدة (٢) »
- ١٩ - لا ينكر تغير الاحكام بتغير الأزمان « قاعدة (٣) »
- ٢٠ - الامور بمقاصدها « قاعدة »
- ٢١ - الغرم بالغرم أو الخراج بالضمان « قاعدة »
- ٢٢ - درء المفاسد مقدم على جلب المصالح « قاعدة »

(١) ومنها قال ابو حنيفة : يجب الحجز على المفتى للماجن والطبيب الجاهل والمكاري
 القلس لان الاول يفسد على الناس اديانهم والثاني يفسد عليهم ابدانهم والثالث يفسد
 عليهم اموالهم (انظر : المبسوط للرخسى ٢٤ : ١٧٥)

(٢) هي الاحكام التي شرعت لى الاصل لتحقيق مصلحة او بناء على عرف مشروع ،
 ثم زالت المصلحة او تغير العرف

(٣) انظر شرح هذه الفروع وغيرها لدى الممثل الفقهي العام للاستاذ الموقر ١٣٢ -
 ١٠٧٥ (الطبعة الخامسة)

الاحظـات

تكتفى بإبداء الملاحظات التالية على نظرية « الاشتراكية الإسلامية » وقوانينها ، نظراً لضيق المجال الآن .

١ - أن اشتراكية الإسلام ليست اشتراكية الدرواش والزهاد كـ بعض الصوفية وفقراء الهنود الذين ينغرون من المال وأتلك جينا منهم عن تحمل أعباء الحياة ومسئولياتها ، وإنما هي اشتراكية حضارية إيجابية بناءة تقيم أكمل مجتمع حضارى متمدن .

٢ - أن اشتراكية الإسلام في تقريرها لحقوق الطبيعة الخمسة وما وضعت من قوانين التكافل الاجتماعى تحارب الفقر والمرض والجهل والخوف والمهانة .

٣ - أن مستوى المعيشة في اشتراكية الإسلام مرتفع ، فقد رأينا أن من الحاجات الأصلية التى لا تعتبر من يملكها غنياً يجب عليه الزكاة : دور السكنى ونفقات العائلة لسنة كاملة ، وأدوات الركوب والانتقال ، والسلاح ، وكتب العلم ، وآلات المهنة .

٤ - أن اشتراكية الإسلام تطبق على جميع المواطنين في الدولة مسلمين أو غير مسلمين ، لأن مبادئها وحقوقها عامة لم تستثن أحداً وسنرى كيف تمتنع أهل الإذمة منذ عهد عمر بحقوق التكافل الاجتماعى كالمسلمين سواء بسواء .

٥ - أن اشتراكية الإسلام تشرك الشعب مع الدولة في تحقيق التكافل الاجتماعى كما في نظام نفقات الإغراب ، ولذلك فوائده الكثيرة : منها تخفيف العبء عن ميزانية الدولة ، وإبقاء عواطف المحبة والود وصلة القربى بين الناس .

٦ - أن مبادئ اشتراكية الإسلام مرنة يمكن تطبيقها في كل عصر بما يتفق مع تطور المجتمع وتقدم الحضارة

٧ - أنها تحارب الترف والبلذخ في السلم والحرب ، لا كما تفعل جميع المذاهب والدول الحديثة إذ تلزم الشعب بالبصد عن الترف واللهو المأجن خلال أيام الحرب فقط .

٨ - أنها تخضع الحكومة والحاكمين لإرادة الشعب ، لا كما تفعل الاشتراكية الشيوعية حين تخضع الشعب لإرادة فئة من الحاكمين .

٩ - أن التكافل الاجتماعى فيها أوسع دائرة من نطاق التكافل الاجتماعى في غيرها - كما رأيت في بحث التكافل الاجتماعى - فهى أضمن لكرامة الإنسان وسعادته في مجتمعه .

١٠ - إنها لم تكن نظرية فحسب ، كما كانت الديانات السابقة ، ولا عاطفية تعتمد على استدراء « شفقة » الأغنياء كما كانت المذاهب الاشتراكية في عصر النهضة الأوروبية قبل الماركسية ، بل هى عملية مقرونة بالتشريع الذى يطبق على الناس جميعاً بقبية قوانين الدولة .

١١ - ولم تكن كذلك فحسب ، بل كانت جزءاً أساسياً من أعمال الدولة الإسلامية منذ قيامها في القرن السابع .

المقارنات

١ - مع الرأسمالية

لا أريد أن أقارن الآن بين اشتراكية الاسلام وبين الرأسمالية ، إذ لا لقاء بينهما - كمنهج اقتصادي - إلا في إعطاء الفرد حق التملك وفسح المجال للتنافس في ميدان الإنتاج .

ولكن حق التملك في اشتراكية الاسلام يخضع لمصلحة الجماعة . وحق التملك في النظام الرأسمالي يخضع لمصلحة رأس المال . والتنافس الذي تفسح الاشتراكية الإسلامية مجاله للأفراد ، من شأنه أن يشيع الحب والتعاون والهدوء في المجتمع ، بينما التنافس الذي تفسح الرأسمالية مجاله للأفراد من شأنه أن يشيع العداء والخلاف والاضطراب في المجتمع .

ولا لقاء بين اشتراكية الاسلام وبين الرأسمالية - كواقع سياسي لأن الرأسمالية الغربية ملوثة بماء الشعوب ، وهي الباعث الأول للاستعمار ، تفوح من أرائدها روائح الاستبعاد واللصوصية والاستغلال .

فلا لقاء بين الاشتراكية الإسلامية وبين الرأسمالية في مجال ما ، لا في مذهبيها الاقتصادي ولا في واقعها السياسي !

ب - مع الشيوعية

ولا أريد أيضا أن أتوسع الآن فيما تتميز به اشتراكية الاسلام عن المذاهب الاشتراكية عامة ، والشيوعية خاصة ، ولكنني أكتفي بذكر بعض هذه المميزات التي أعطت اشتراكية الاسلام طابعها الخاص ، وجنبتها أسوأ الشيوعية وغيرها من المذاهب الاشتراكية ، وبها كانت أقدر على إسعاد الناس ، وتقوية عوامل الخير والحب والتعاون فيما بينهم .

١ - أن اشتراكية الاسلام تنسجم مع الطبيعة الإنسانية وضرورات الحياة في إباحتها للملكية الشخصية ، وهذا ما أنكرته الشيوعية - النظرية - كما وضعها ماركس وأنجلز ، زاعمة أن التملك ليس أصيلا في النفس الإنسانية ، وعدا عما تشعر به النفوس والعقول بداهة من بطلان هذا الزعم ، فإن في اعتراف الشيوعية - التطبيقية - أخيرا للملكية الشخصية ولو في حدود ضيقة تأكيداً لبطلان زعمها النظري .

جاء في الدستور السوفيتي (١) ما يلي :

(١) نقلا عن النسخة العربية المطبوعة في موسكو عام ١٩٤٣ للترجمة عن النسخة الروسية للطبوعة في موسكو عام ١٩٤١

- 177 -

راض ، ومواطن متعاون ، وفئة تحب الأخرى وسترى في الواقع التاريخي أمثلة رائعة لهذا الحب والتعاون ، أما الشيوعية فأساس دعوتها إثارة الفئات بعضها على بعض ، وملء قلوب بعضها بالحققد على بعض ، وشتان ما بين هذا وذاك .

٤ - ان اشتراكية الاسلام تقوى تكبر صرح في بناء الحضارات منذ عرف تاريخ الانسان ، ذلك هو الايمان بالله خالق الحياة ، رب العالمين العادل الرحيم ، الحكيم العليم ، الذى لا ينظم الناس مثقال ذرة ، ولا يشرع لعباده الا الخير ، فمن أطاع شرعه أحياء حياة طيبة ، وإدخله في الآخرة جنات تجري من تحتها الأنهار ، ومن عصى شرعه ابتلاه بالنكبات ثم رده في الآخرة الى نار تطفى لا يصلاحها الا الاشقى الذى كذب وتولى ، يوم يحاسب الناس على أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، هذه العقيدة هى التى توقظ ضمير وتهذب النفس ، وتكبح من جماح أهوائها وشهواتها ، وتجعل الانسان دائما امام محكمة ضميره ومراقبة ربه ، فى علاقته بجيرانه ، وعلاقته بأهله ، وعلاقته بمجتمعه ويوم تتخلى الامة عن هذه العقيدة كما تريد الشيوعية ، فقد سمحت للشرا أن يستفحل فى صفوفها ، لقد سمحت لنفسها أن تنتحر انتحارا جماعيا ، وأن تكون وباء عالميا يهدم القيم العالية ويزيل الثقة والاستقرار . ان اشتراكية الاسلام حين تقوى فى نفوس الناس الايمان بالله ومراقبته ، انما تحكم صمام الامان فى النفس الانسانية بينما ترفع الشيوعية - بانكارها الله - هذا الصمام ، فلابقى فى النفس الانسانية شر الا انطلق ، ولا قوة الا اندفعت للتدمير .

٥ - ان اشتراكية الاسلام تعتمد على الاخلاق الكريمة ، وتجعلها جزءا من عقيدتها ، وتحمل الانسان على أن يتحلى باكملها ، والشيوعية لا تؤمن بالقيم الاخلاقية العاطفية كالحب والرحمة ، والاجتماعية كالصدق والوفاء ، ولا تنظر اليها الا فى اطار المصلحة الشيوعية ، فلا ثقة لك بحديث شيوعى ولا بعهد ، انك لا تدري متى يصدق ومتى يكذب ومتى يفي ومتى يفلس ، الا اذا عرفت أين تكون مصلحته ! ومصلحة الشيوعى ان كان يعيش فى مجتمع شيوعى فمصلحته مصلحة طافية خادمة لمصلحة حزبه فى التحكم والاستبداد وخنق كل معارضة ، والشيوعى يستخدم المثل العليا التى يؤمن بها الناس فى الدعاية لمبادئه للتضليل والتخريب ، فهو يدعو الى الديمقراطية فى مجتمع غير شيوعى - كمجتمعنا العربى مثلا - ليتخذ من ذلك وسيلة الى الدعايات المضللة بينما هو يكفر بالديمقراطية فى مجتمع شيوعى لانها تعطى الجماهير حرية مناقشتها للقادة الشيوعيين وهذا ما يحاربته الحكم الشيوعى بكل قوة ، والشيوعى يدعو الى الحرية فى مجتمع غير شيوعى ليتخذ منها وسيلة لاثارة لعمال والطلاب والجماهير ضد الحكم القائم ولكنه يكفر بالحرية فى مجتمعه الشيوعى ، فلا اضراب ولا مظاهرات ولا انقياد لحاكم ، ولا حرية فى تفكير خارج اطار التفكير الشيوعى ، وفى موقف الاتحاد السوفيتى من الكاتب الروسى الذى نال جائزة نوبل للسلام أحدث برهان على هذا .

ان الاخلاق انى تعارف عليها الناس ، ونادت بهما الديانات وايدھا المصلحون في جميع الامم وفي جميع العصور ، ھى محل سخريۃ لدى الشيعوي ، لانھا في رايه من صنع الدين ادعوا لانفسھم النبوة والحكمة خدمة لمصالح الاغنياء والاقطاعيين . ان المؤمن يمنع عن الخداع او الكذب خوفا من الله وحسابه في اليوم الآخر ، اما الشيعوي فسادا يمنعه من ذلك ؟ الله لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يبالي بسخط الناس ، ولا ضمير له يؤنبه على ما فعل ، لانه لا يعتبر نفسه قد ارتكب جريمة ! فعم يقلق ؟ ومم يخجل ؟ الا انها اكبر كارثة تصيب الانسانية وترد الانسان اليھا وراء صفوف الحيوان !

٦ - ان اشتراكية الاسلام تعلن نعتھا بالانسان ، وبغرائز الخير والنبل فيه ، وانه الى الخير اقرب منه الى الشر « كل مولود يولد على الفطرة » (١) وفي قصة خلق آدم كما وردت في القرآن الكريم اشارة واضحة الى هذا

« واذا قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض « خليفة » قالوا اجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال انى اعلم ما لا تعلمون ، وعالم آدم الاسماء كلها ثم عرضھم على الملائكة فقال اتووني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم .. واذا قلنا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا الا ابليس ابى واستكبر وكان من الكافرين (٢) » فالانسان كما تدل عليه ھذه القصة خلق ليكون « خليفة » من الله في الارض يعمرها ويملؤها بالمعرفة والخير ، ولم يمنعه ما فيه من غرائز الشر من ان يستحق ھذه « الخلافة » ومن ان يسخر الله له جميع القوى ويخضع له جميع المخلوقات .

ان الانسان اھل لان يعمل الخير اذا اتبع شرائع الله وامثال لامرہ ..

« فاما ياتينكم منى ھدى فمن اتبع ھدای فلا خوف علیھم ولا ھم يحزنون (٣) » .

ولهذا يعمل الاسلام على ان يقوى في الانسان دينه ويھذب نفسه ويصفي روحه ، ثم ھو يكله بعد ذلك الى ضميره في تنفيذ مبادئه اكثر مما يجبره على ذلك بقوة الدولة وھبة السلطان .

ولكن الشيعوية لاتثق بالانسان ، لان تاريخه كله من اوله الى آخره تسلط وقتال من اجل الاكل والمال .. انها لاتثق بدينه لانه يؤمن بخرافة ولا تثق بضميره لان القيم التي يؤمن بها الضمير قيم باطله ! انها لا تثق بغرائز الخير فيه ، وانما تثق بغرائزه الجشعة ، ورغبته في الاستئثار والطفیان ، ولذلك فهي لاتسلمه المال لانه يستعمله في استغلال الكادحين ولا تطلق له الإرادة لانه ينزع الى التحكم والاستبداد ، ولا تعطيه الحرية لانه لا يحسن استعمالھا ، وقد اثبت الحكم الشيعوي ان الشيعوية لا تثق بالمواطن الشيعوي ، فهي لاتعطيه حرية اختيار الحاكم وشكل الحكم،

(٢) البقرة ٣٠ ، ٢٤

(١) رواء البخارى ومسلم وغيرها

(٣) البقرة : ٢٨

لانه لا يهتدى الى ذلك سبيلا ، وانما تهتدى اليه القيادة الشيوعية العليا ، وان الشيوعية لا تثق بالموظف الشيوعي لانه ثبت لها أن كبار موظفي الدولة والحزب الشيوعي في روسيا قد استغلوا فرصة انشغال دولتهم بالحرب الأخيرة (١٩٣٩ - ١٩٤٥) فجمعوا الاموال واقتنوا الاراضى ، وقد اذاع ذلك ستالين في منشور له بعد انتهاء الحرب ، عممه على جميع ابناء الشعب ، يندد فيه بالوثك الذين انتهزوا فرصة الحرب فخانوا مبادئ الثورة الاشتراكية !

وانتبت تاريخ الحكم الشيوعي أيضا أن الشيوعية لا تثق بالرئيس الشيوعي لانها تجربته حين ينفرد بالحكم فرائه سفاكا للدماء - أى دماء الشيوعيين طبعاً - غدارا بالاعوان والاصدقاء .. لقد قال ذلك السيد خروشوف في حق زعيمه ستالين بعد موته !

اذا فالشيوعية لا تثق بالانسان المتدين لانه رجعى ! ولا بالفنى لانه استغلالي ! ولا بغير شيوعى ولو كان فقيرا لانه بورجوازى . ولا بالمواطن الشيوعي لانه غبى ! ولا بالموظف الشيوعي لانه انتهازى ! ولا بالرئيس الشيوعي لانه اراهبى !

ويظهر أن « ابليس » ايضا لا يثق بالانسان ولذلك لم يخضع له كما خضعت الملائكة .. فهل أستعملت الشيوعية فكرتها عن الانسان من ابليس ؟ ! ..

أن الشيوعية لا تثق بالانسان ، فمن حق الانسان أن لا يثق بالشيوعية !

٧ - ان اشتراكية الاسلام تقوى في الانسان كل جانب من جوانبه الانسانية : تقوى روحه وقلبه وعقله وخلقه وجسمه لانه هو كل ذلك . اما الشيوعية فهي تقوى فيه بطنه على الجوانب الأخرى فيه ، انها تجعل الانسان اشبه ما يكون بشخص له بطن كبير و صدر ضيق ورأس صغير كرأس العصفور وعينان مطبومتان . والاذنان مسدودتان ويدان قصيرتان ورجلان هزيلتان ! هل تتصورون أقيح في مرأى العيون من هذا الشخص ؟ ان الانسان - كما تريده الشيوعية - أقيح منظرا من ذاك في مرأى القلب والعقل .

والشيوعية تعتبر مأساة الانسانية كلها من أقدم التاريخ الى اليوم مأساة بطن جائع .. ومن ثمة فهي تنادى بأنه لاسبيل للسلام والسعادة الا بنظامها الذى يسلب من الناس أموالهم ويملا بطونهم ، ومعنى ذلك أنه ليس في الانسان رذيلة الا حب التسلط على مال الآخرين وانتزاع خبز الآخرين ، ومعنى ذلك أن الشيوعية تجزم بأنه لن ينشأ في العالم شر بعد القضاء على رأس المال ، وهذا تصوير للمشكلة الانسانية يدعو الى الضحك والاشفاق على عقول الشيوعيين .

لنتصور - يا سادة - اننا انتقلنا الآن بطرفة عين على بساط الريح الى الاتحاد السوفيتى ، وهو الدولة الشيوعية الاولى في العالم فهل نتصور اننا سنرى الشيوعيين هناك وقد انتزعت من أيديهم رؤوس الاموال واصاب كل منهم نصيبه من الغذاء والكساء والدواء ، هل

تصور أنهم يعيشون ملائكة ليس فيهم من يحقد ولا يحسد ، ولا يعتدى شيوعى على آخر فى نفسه أو كرامته أو سمعته ، أو ينفس على غيره مكانته الاجتماعية ومواجهه الفكرية ؟ ان هذا غير واقع ولا يدعيه الشيوعيون انفسهم ، فهم بين امرين : اما ان يزعموا ان الحق والصدق والعدوان ومثالها فضائل ، وعندئذ ينقطع ما بينهم وبين الناس من صلة الانسانية .. واما ان يعترفوا بانها رذائل ، وهنا نتساءل : لماذا يعالجون امراض النفس الانسانية ، وامراض المجتمع الاخلاقية وقد حاربوا الدين وهو اقوى ما تحارب به هذه الرذائل ، وانكروا مبادئ الاخلاق التى تعارفت على احترامها جميع الشعوب ؟!

ان لهم العبرة فى تاريخهم فى روسيا ، فقد كان سبيلين رأس الشيوعية ولم يكن يملك مالا ، ولم يكن رأسماليا ولا برجوازية ومع ذلك فقد كانت حياته فى الحكم مليئة بالشعور كما اذاغ ذلك الحزب الشيوعى السوفيتى بعد وفاته ، وطبعاً لقد كانوا يعرفون فيه هذه الشرور وهو على قيد الحياة ، فماذا استطاعوا ان يفعلوه لتخليص المجتمع الشيوعى من شروره ؟ انهم لم يستطيعوا ان يفعلوا الا شيئاً واحداً .. هو انهم انتظروه حتى يموت .. ثم شتموه !

لقد تفادت الاشتراكية الاسلامية هذا الخطأ ، فعالجت شرور الانسان الداخلية فى نفس الوقت الذى عالجت فيه شرور رأس المال وطفئانه ، وبهذا نجحت فى تجنيب المجتمع جميع شرور الانسان لا شراً واحداً فيه .

٨ - ولخيراً فان اشتراكية الاسلام تجد مأمناً وحماها فى النفس المسلمة المتمسكة باسلامها ، فيندفع المسلم الى تطبيقها بوازع من دينه واسلامه قبل اى وازع ، وفى ذلك من الفائدة للدولة انها لا تضطر الى تنفيذها بقوة الحراب وجو الارهاب ، بل تجد من الشعب المسلم استجابة وتأييداً ، وفيه من الفائدة للمجتمع ان هذه الاشتراكية تظل تعمل عملها فى التقريب بين الطبقات ، وفى انصاف المظلومين من الظالمين ، وفى تحقيق التكافل الاجتماعى لأربابه ، حين يضعف سلطان الدولة أو تهمل تطبيق تلك الاشتراكية ، ان اشتراكية الاسلام نابعة من ضمير الشعب مرتبطة بعقيدته ، فهى لا تزول من المجتمع ولو زالت الدولة وسنرى فى الواقع التاريخى الأدلة القاطعة على هذا .

اما الشيوعية فانها منبثة الجذور من أعماق النفس الانسانية ، لا تستند الى دين ولا الى فطرة ولا اقتناع ، فهى لا تنفذ الا بقوة الدولة وجو الارهاب ، ولذلك كان من لوازم الحكم الشيوعى ، الدكتاتورية والارهاب والتطهير الدموى فى جو الحزب الشيوعى نفسه وفى داخل المجتمع ، وليست فى الدنيا قوة تستمر فى ارهاب الناس أمداً طويلاً ، وليس فى التاريخ دولة لم تضعف بعد قوة ، فحين تزول القوة التى تحمى الشيوعية وتكره الناس على تنفيذها ، فسيكون الشعب الحكوم لها أول الخارجين عليها والهادمين لبنيناتها من القواعد ، وفيما فعله الموظفون الروس خلال الحرب العالمية الثانية - كما ذكرنا آنفاً - دليل لمن يشك فى هذه الحقيقة ، وافحام لمن يجادل فى مستقبل الشيوعية بعد انهيار سلطتها .

آراء الغربيين

من العسير أن نذكر هنا كل ما قاله الباحثون الغربيون عن مبادئ الإسلام والاشتراكية ، وأيضاً فإن ملامح هذه الاشتراكية كما كشفناها عنها في هذا البحث وبالشكل المنظم الذي أوردناه ليست معروفة ولا تلك الباحثين كما نعتقد ، وإنما يعرفون من هذه الملامح جزءاً قليلاً منها كنظام الزكاة والمساواة . ومع ذلك فلنسمع إلى مايقوله بعضهم عن ذلك :

يقول المستشرق « جيب المعروف » :

ما زال الإسلام يحفظ التوازن بين الاتجاهين المتقابلين في دنيا الغرب ، فهو يساوم ويوائم بين الاشتراكية القومية والأوربية وبين شيوعية روسيا ، فلم يهو بالجانب الاقتصادي من الحياة إلى ذلك النطاق الضيق الذي أصبح من مميزات أوروبا في الوقت الحالي ، والذي هو اليوم من مميزات روسيا أيضاً (١) .

ويقول المستشرق المعروف « ماسينيون » :

« أن لدى الإسلام من الكفاية ما يجعله يتشدد في تحقيق فكرة المساواة ، وذلك بفرض الزكاة التي يدفعها كل فرد لبيت المال ، وهو يناهض الديون الربوية ، والضرائب غير المباشرة التي تفرض على الحاجات الأولية الضرورية ، ويقف في نفس الوقت إلى جانب الملكية الفردية ورأس المال التجارى ، وبذا يحل الإسلام مرة أخرى مكاناً وسطاً بين نظريات الرأسمالية والبورجوازية ، ونظريات البلشفية الشيوعية » إلى أن يقول « وللإسلام ماضٍ بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها ، وليس من مجتمع آخر له مثل للإسلام من ماضٍ كلل بالنجاح في جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة في الحقوق والواجبات (٢) » .

ويقول « ليو دوروش »

ولقد وجدت في الإسلام حل المشكلتين اللتين تشغلان العالم طراً : الأولى قول القرآن : « إنما المؤمنون أخوة » فهذا أجمل مبادئ الاشتراكية . والثانية فرض الزكاة على كل ذى مال (٣) .

ويقول « ماركس (٤) » في نظام الزكاة :

« وكانت هذه الضريبة فرضاً دينياً يتحتم على الجميع أدائه ، فضلاً عن هذه الصفة الدينية فالزكاة نظام اجتماعى عام ، ومصدر تدخل به الدولة المحمدية ما تمد به الفقراء وتعينهم ، وذلك على طريقة نظامية قوية لا استبدادية تحكمية ولا غرضية طارئة . وهذا النظام البديع كان الإسلام أول من وضع أساسه في تاريخ البشرية عامة ، فضرية .

(١) الإسلام والنظام العالى الجديد لولانا محمد على : ٤٥

(٢) الإسلام والنظام الجديد لولانا محمد على : ٤٥

(٣) الإسلام والحضارة العربية لكرد على : ٢٧٤/١

(٤) ليس هو كارل ماركس الشيوعى كما ظن بعض الناس فإنا نجزم بأنه لم يتج له أن يطالع على شيء من الإسلام لا قليلاً ولا كثيراً ، ولكننا نرجح أنه العالم اللينى الإنسانى (ماركس ولهم)

لركاة التي كانت تجبر طبقات الملاك والتجار والاغنياء على دفعها لنصرفها الدولة على المعوزين والعاجزين من افرادها هدمت السيلج الذي كان يفصل بين جماعات الدولة الواحدة ، ووحلت الامة في دائرة اجتماعية عادلة ، وبذلك برهن هذا النظام الاسلامى على انه لا يقوم على اساس الاثرة البغيضة (١) .

وهناك آراء للغريين تشيد بنظام الاسلام بوجه عام نذكر بعضها فيما يلى :

قال المؤرخ المعاصر : ه.ج. ويلز (٢) فى كتابه فى معالم تاريخ الانسانية :

« كان الاسلام منذ البداية قوى المقاومة الى حد بعيد لعمليات الصقل والتفاصيل اللاهوتية التى اُريت المسيحية ، وكان مليئا بروح الرفق والسماحة والاخوة ، وكان عقيدة سهلة يسيرة الفهم . . . كان غريزة مجسدة تحوى عواطف الفروسية فى الصحراء . ولم تكن كتلة الناس الذين جاءتهم دعوة الاسلام يهتمون الا بشئ واحد هو ان ذلك الرب (الله) الذى كان يبشر به الرسول ، كان بشهادة الضمير المنطوية عليه قلوبهم ، رب صلاح وبر ، وان القبول الشريف لمبادئه وطريقته يفتح الباب على مصراعيه فى عالم تفتقل وخيانة وانقسامات لا تسامح فيها - على اخوة عظيمة متزايدة من رجال جديرين بالثقة فى الارض .

ان الاسلام ساد لانه كان خير نظام اجتماعى وسياسى ، استطاعت الايام تقديمه ، وهو قد انتشر لانه كان يجد فى كل مكان شعوبا تسلب وتظلم وتخوف ولا تعلم ولا تنظم ، كذلك وجد حكومات اناثية سقيمة لا اتصال بينها وبين اى شعب اصالة ، كان (الاسلام) اوسع وأحدث وانظف فكرة سياسية اتخذت سمة النشاط الفعلى فى العالم حتى ذلك اليوم ، وكان يهب بنى الانسان نظاما افضل من اى نظام آخر وكان النظام الراسمالى الاسترقاقى فى الامبراطورية الرومانية ، والادب والثقافة والتقاليد الاجتماعية فى أوروبا ، وقد انحطت انحلالا تاما ، وانهارت قبل ان ينشأ الاسلام ، ولم يحدث ان دب ديبب الانحلال فى الاسلام ايضا الا عندما ضاعت ثقة البشرية فى ممثلها (٣) »

ويقول فى مكان آخر فى الحديث عن الحضارة الاسلامية : « ان روح

(١) المصدر السابق : ٧٥/١

(٢) لهذا المؤرخ اعطاء كبيرة فى راية الشخصى بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو لا يخرج بذلك عن كل غريب يريد ان يفهم محمدا صلوات الله عليه كما هو وهوى طبائمه وغرائزه الغربية ومقاييسه الخيالية التى لم يطبقها الغربى نفسه على حياته لحظة واحدة من لحظات التاريخ

(٣) المجلد الثالث ص ٦٤٣ ، ٤٦٩ تعريب عبد العزيز جلويش

الاسلام ظلت بضمة قرون تحتفظ للناس عامة بقدر من الاستقامة وضبط النفس وراء آثار القصور والمعسكرات ومنافستها (١) .

ويقول مؤلف « قصة الحضارة » (بول ديوانري) :

« وإذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من اثر في الناس قلنا : أن محمدا كان من اعظم عظماء التاريخ ، فقد اخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والاخلاقي لشعب الوقت به في دياجير الهمجية حرارة الجو وجذب الصحراء (يقصد بذلك العرب) مع أن دعوة الرسول نجحت في رفع المستوى الاخلاقي والروحي والاجتماعي للعرب وغيرهم كما يعترف المؤلف نفسه في آخر كلامه عن الحضارة الاسلامية وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحا لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله ، وقل أن نجد انسانا غيره حقق كل ما كان يحلم به ، وقد وصل الى ما كان يبتغيه عن طريق الدين (٢) » .

وقال في موضع آخر (٣) :

« ولسنانجدي التاريخ كله مصلحا فرض على الاغنياء من الضرائب ما فرضه عليهم محمد (صلى الله عليه وسلم) لاعانة الفقراء ، وكان يحض كل موص بأن يخصص من ماله جزءا للفقراء ، وإذا مات رجل ولم يترك وصية فرض على ورثته أن يخصصوا بعض ما يرثون لاعمال البر (٤) .

ويقول في مكان آخر (٥) .

« والقرآن يبعث في النفوس الساذجة (البريئة السليمة الفطرة) اسهل العقائد واقلها غموضا ، وابعدها عن التقيد بالمراسم والطقوس وأكثرها تحررا من الوثنية والكهنوتية ، وقد كان له أكبر الفضل في رفع مستوى المسلمين الاخلاقي والثقافي ، وهو الذي أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعي والوحدة الاجتماعية وحضهم على اتباع القواعد الصحيحة وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والالوهام ومن الظلم والتقسوة ، وحسن أحوال الأرقاء ، وبعث في نفوس الأذلاء الكرامة والعزة ، وأوجد بين المسلمين (إذا استثنينا ما كلن يقرئه بعض الخلفاء المتأخرين) درجة من الاعتدال والبعد عن الشهوات لم يوجد لها نظير في أمة بقصة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض ، ولقد علم الاسلام الناس أن يواجهوا صعاب الحياة ، ويتحملوا قيودها ، بلا شكوى ولا ملل ، وبعثهم الى التوسع توسعا كان لعجب ما شهدته التاريخ كله ، وقد عرف الدين وحدده تحديدا لا يجد المسيحي ولا اليهودي الصحيح العقيدة ما يمنعه

(٢) قصة الحضارة : ٢٧/١٣

(٣) سورة النساء : ٨ ، أ .

(١) المصدر السابق ص ٦٦٧

(٢) المصدر السابق : ٥٩/١٣

(٥) قصة الحضارة : ٦٨/١٣

من قبله ، ثم ذكر آية البر التي ذكرها في بحث التكافل الاجتماعي « ليس البر أن تولوا وجوهكم .. » الخ الآية .

وقد قال خلال بحثه عن الحضارة الإسلامية في الاندلس :

« كان حكم العرب نعمة وبركة قصيرة الاجل على الزراع من اهل البلاد ، ذلك ان الفاتحين لم يبقوا على الضياع التي كبرت فوق ما يجب والتي كان يملكها القوط الغربيون ، وحرروا رقيق الارض من عبودية الاقطاع (١) .

ويختتم المؤلف حديثه عن الحضارة الإسلامية بقوله :

« لقد ظل الاسلام خمسة قرون (على الاقل) من عام ٧٠٠ م الى ١٢٠٠ م يتزعم العالم كله في القوة ، والنظام ، وبسطة الملك ، وجميل الطباع والأخلاق ، وفي ارتفاع مستوى الحياة ، وفي التشريع الانساني الرحيم ، والتسامح الديني ، والاداب ، والبحث العلمي ، والعلوم ، والطب ، والفلسفة الخ (٢) .

وقالت الدكتورة لورا فيشيا فاغليري وهي تتحدث عن الفتوحات الإسلامية وآثارها :

« لقد قوضت حضارتان وزعزع دينان ، فاذا بفيض جديد من حياة عارمة يتدفق في عروق تلك الشعوب الخائرة القوى . لقد تحلى أملام عيون العالم المندهش دين جديد بسيط سهل ، يخاطب القلب والعقل جميعا . واقم شكل جديد من اشكال الحكومة كان اسمى الى حد بعيد - في خصائصه ومبادئه الاخلاقية - من تلك المعروفة في ذلك العصر .

وبدا الذهب الذي كان مخبوءا في صناديق السراة ينتقل الى أيدي الفقراء ، مستهلا نظاما من التداول السليم كرة اخرى ، وفي ظل من حكومة تسيرها مثل عليا ديمقراطية أمينة وجد الرجال المثقفون البارعون الاذكياء تشجيعا من النظام الجديد ، فاستطاعوا أن يلبفوا أسمى المناصب العامة .

ومن الممكن القول في اطمئنان ، ان البلاد المفتوحة عرفت - على الرغم من بعض الحالات المحتومة النادرة التي تجاوز فيها الجند حدودهم أثناء الفتح - عهدا من الرخاء والازدهار ، وشهدت غنى لم تشهدده أسيا منذ قرون طويلة ، والى هذا فقد نعمت حياة الشعوب المغلوبة وحقوقها المدنية واموالها بدرجة من الحماية تقارب تلك التي نعم بها المسلمون أنفسهم (٣) .

(١) المصدر السابق : ٢٦٣ وفي هذا رد على المجادل الذي زعم ان الاسلام ايد الانقطاع :

(٢) دفاع عن الاسلام : ٢٧ ، ٢٨

(٣) أيضا : ٣٨٢

الواقع التاريخي

ماهو الواقع التاريخي لاشتراكية الاسلام كما ذكرناها ؟
هل طبقت ونفذت ونعم بها المجتمع الاسلامي في حضارته الزاهرة ؟
ام بقيت تعاليم جميلة وأحلاما عذبا لم يكتب لها التطبيق ؟
يقول بعض الناس لهما طبقت ، ويقول آخرون : لا ولا في عهد
الظفء الراشدين !

فما هو الحق في هذه المسألة ؟

ان الحكم في ذلك هو التاريخ ، فماذا يقول ؟
لاشك ان معرفة ذلك من كتب التاريخ المعروفة بين ايدينا صعب
التمال ، ذلك لان تاريخنا كتب وعليه طابعان بارزان :
الاول : الطابع الشخصي للملوك والامراء والقواد الحربيين ، ولم
يكتب لمعرفة اخبار الجماهير وتطورها واوضاعها الاجتماعية والحضارية
في مختلف العصور .

الثاني : الطابع السياسي ، فقد كتب ليؤرخ فيه تاريخ الامويين
والعباسيين ثم الدول الاسلامية الاخرى من حيث قيامها أو سقوطها .
ومن هنا لابد من ان يلاقى الباحث صعوبات جمة حتى يتصرف
على الاوضاع الاجتماعية معرفة تفصيلية في مختلف العصور .

ولا يستثنى من هذا الا العصر النبوي أولا ثم عصر الخلفاء
الراشدين . ثانيا ، فقد اسعفتنا كتب الحديث الصحيحة التي اعتمدها
الجمهور بعد النقل والتمحيص العلميين بكثير من المعلومات عن الاوضاع
الاجتماعية بعد حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم في حياة خلفائه
الراشدين .

وكان لعناية المسلمين بحديث الرسول وكل ما يتصل بحياته العامة
والخاصة فضل في حفظ هذا التراث وتنقيته من دس
الكائدين وتحريف المحرفين .

اما العصور الاخرى وخاصة عصور الامويين فقد تأخر تاريخ
تدوين اخبارها واختلط الصحيح بالكذب منها ، وعملت الدعاية
العباسية والباطنية في طمس كثير من معالم الحقيقة وطغت ثقلاتها
واخبارها السياسية على كل ما عداها .

ومع هذا فلا يفقد الباحث اللاب امله من الوصول الى اخبار
سحيحة وافية عن الحالة الاجتماعية في ذلك العصر والعصور التي
تلتها .

ولهذا فنحن سنتحدث بالتفصيل عن مدى تطبيق مبادئ اشتراكية
الاسلام في عصر الرسول وصحابته وبالأجمال عن تطبيقها في العصور
التي تليه واعدن ان نتابع البحث واللاب حتى نظفر بالضلالة
المنشودة .

ولا يشك كل من اطلع على الاحاديث والآثار والاخبار الصحيحة التي وردت عن عصر الرسول وصحابته ، وعصر خلفائه الراشدين ، في ان المبادئ التي اعلنها الاسلام لاشتراكيته السمحة الواقعية كما ذكرناها في هذا الكتاب ، قد طبقت تطبيقاً صحيحاً في ذلك العصر ، وانها نجحت في ايجاد :

١ - دولة اشتراكية من الطراز الذي لا يعرفه التاريخ القديم .

٢ - دولة اشتراكية لم تبلغ ذروة نبليها دولة اشتراكية ما في عصرنا الحديث .

٣ - مجتمع اشتراكي تحقق به حلم الفلاسفة وامال الانبياء الذين سبقوا محمداً صلى الله عليه وسلم ولكنه عليه الصلاة والسلام نجح في ايجاد هذا المجتمع بأروع مما كان يحلم به اولئك الفلاسفة والانبياء .

٤ - اجيال من الاشتراكيين الانسانيين الربانيين الذين جمعوا بين العمل للدنيا والعمل للآخرة ، وحب الكسب مع حب الانفاق ، واكل الطيبات مع تحمل الجوع وشظف العيش ، والانغماس في الدنيا مع علم التلوث بها .

ان مثل هذه الاجيال لم تنقطع من عهده صلى الله عليه وسلم حتى اليوم ، ولن تنقطع ما دام رسول الله قدوة كل مسلم ، ولكن أروع هذه الاجيال وانقاها وأصفها وأكثرها تأثيراً في تاريخ العالم وحضارته ، هو الجيل الذي رباه محمد صلى الله عليه وسلم بيده وصنعه الله على عينه ! ..

وهذا وحده يكفي في وائنا برهانا - لا يرد - على نجاح الاسلام في اشتراكيته المثالية الواقعية ، مما لم يحصل مثله لدين ولا لدعوة ولا لحركة اصلاحية في تاريخ الانسانية قديمها وحديثها .

ونحن فيما يلي سندكر امثلة لآثر هذه الاشتراكية الاسلامية في ايجاد الدولة الاسلامية الاشتراكية ، وايجاد المجتمع الاسلامي الاشتراكي ، وايجاد الفرد لمسلم الاشتراكي ، ولسنا نستقصي ، ولكننا نضرب الامثال ، وفي ميدان التاريخ أبعيد عن الاهواء والعصبيات متسع لكل من أراد المزيد والتأكد من هذه الحقائق .

ولا ريب عندنا في ان نجاح اشتراكية الاسلام في اقامة الدولة الاشتراكية الاولى والمجتمع الاشتراكي الاول والجيل الاشتراكي الفدائي التاريخي مدين في ذلك الى شخصية محمد صلى الله عليه وسلم الذي كان في قيادته ورئاسته المثل الاعلى للمجتمع الاشتراكي المسلم ، وفي معيشته مع اصحابه ، المثل الاعلى للمجتمع الاشتراكي المسلم ، وفي سلوكه وخلقه المثل الاعلى للفرد الاشتراكي المسلم .

يقول الله تعالى مخاطباً المسلمين : « لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر (١) » .

ولذلك - حين ضعفت الدولة الاشتراكية الاسلامية ، وضعف المجتمع الاشتراكي الاسلامي - استمرت النماذج الانسانية الرفيعة تترى بلا انقطاع في كل العصور الاسلامية - قلة أو كثرة - لان شخصية الرسول كانت وما تزال النموذج الاعلى للانسان الكامل يحاول احتذاءها كل مسلم ما وسعه الجهد وامكنته القدرة .
ومن هنا كان لا بد لنا من ذكر كلمة عن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم لنتبين أثرها في الواقع التاريخي للاشتراكية الاسلامية .
سواء كان في الدولة الاشتراكية الاسلامية ، أو في المجتمع الاشتراكي الاسلامي ، أو في الفرد الاشتراكي المسلم .

شخصية الرسول وأثره

ان محمدا عبد الله ورسوله ..

أما محمد الرسول - صلى الله عليه وسلم - فلن يفكر أحد ان يكون مثله أو قريبا منه ، في إشراق روحه ، واتصاله بالمالأ الأعلى ، يتلقى الوحي ، ويتنزل عليه الهدى آيات بينات ! لن يصل أحد الى هذا ولألى قريب منه ، لان الله ختم بنبوته النبوات ، وبشريعته الشرائع ..

وأما محمد الانسان ، فهو هو الذي يحرس كل مسلم على أن يكون ظله في الأرض ، يتخلق بإخلقه ، ويهتدى بهديه ، ويأتسى به في صبره وجهاده ، وزهده وعبادته ، وتضحيته وإيثاره ، ومأكله وملبسه ، وما اعتقد أن الله أكرم رسوله الانسان بمدح أعلى من هذا المدح (وأنتك لعلى خلق عظيم (١) » .

تعال بنا لتخطى اسوار الزمن الى عتبة «محمد الرسول الانسان» فنرى روح الحياة السارية المشرقة في مجتمع فاض بالبطولات والمروءات حتى كاد تاريخه يلتحق بالاساطير ، لولا أنه حق لامرية فيه وصدق لاكذب معه .

١ - أوصافه الخفية

قالوا في أوصافه عليه الصلاة والسلام (٢) أنه كان : ظاهراً الوضأة مبتليج الوجه ، له نور يملوه ، اذا زال قلما ، يخطو تكفياً ، ويمشي هونا ، ذريح المشية كأنما ينحط من صيب ، خافض الطرف ، نظره الى الأرض أطول من نظره الى السماء ، جل نظره الملاحظة ، يمشي وراء أصحابه ، ويبدل من لقي بالسلام دائم الاحزان ، متواصل الفكرة ، ليست له راحة ، طويل السكت ، لا يتكلم في غير حاجة ، يفتح الكلام ويختمه باسم الله ، واذا تكلم أعاد الكلام ثلاثا ليفهم عنه ، كلامه فصل لا فضول ولا تقصير ، أوتى جوامع الكلم، واختصرت له الحكمة اختصاراً ، ليس بالجافي ولا المهين ، يعظم النعمة وأن دقت ، لا يذم منها شيئاً ، غير أنه لم يكن يذم ذواقاً (طعاماً) قط ولا يمدحه ، ولا تفضيه الدنيا ولا ماكان لها ، فاذا تعدى الحق لم يقم لفضيه شيء حتى ينتصر له ، ولا يقضب لنفسه، ولا ينتصر لها ، واذا غضب أعرض وإشاح ، واذا فرح فض طرفه ، جل ضحكه التبسم ، اذا نطق فعليه البهاء ، واذا صمت فعليه الوقار ، أزين الناس منظراً ، وأحسنهم وجهة ، وأجودهم ،

(١) : القلم

(٢) أخذنا هذه الاوصاف من كتاب السنة الصحيحة وكتب الشئائل النبوية وخاصة

شمائل الامام أبي عيسى الترمذى رحمه الله

واسخاهم نفسا ، يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ، وما سئل عن شيء قط فقال : لا . وما خير بين امرين الا اختار اليسرهما مالم يكن اثما ..

تقول عائشة رضى الله عنها في مجامع خلقه : كان خلقه القرآن . ويقول على رضى الله عنه في وصف شخصيته : من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه .

٢ معيشته في نفسه

كان لا يتكلف في لباس ولا طعام ، يلبس ما يتيسر ، وأكثر لبسه المعتاد من لباس الناس ، وكان يلبس جيد الثياب اذا اقتضى الامر لمقابلة وفود أو لمناسبة عيد ، وكان يأكل ما يجده ، فان وجد اللحم والحلوى أكل ، وان لم يجد الا الخبز والزيت أو الخل أكل ، وان لم يجد ما يأكله بات طاولا ، وربما شد على بطنه الحجر من شدة الجوع .

وكان ينام على فراش من جلد حشوه ليف ، ويجلس على الحصير وينام عليها كثيرا .

٣ معيشته في بيته

كان حلو المعاشرة لزوجاته كثير المسامرة لهن ، متحملا لاختلافهن وخاصة غيرتهن ، وكان يقول : « خيركم خيركم لاهله (١) » . وكان نساؤه يتحملن منه شدة الحال وخشونة العيش ، وكان يسره ذلك منهن ، فلما فكرن يوما ان يطلبن منه التوسعة والزينة والطعم ، شق ذلك عليه وهجرهن شهرا لا يكلمهن ، ثم نزل قوله تعالى :

« يا ايها النبي قل لازواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين ائتمكن واسرحكن سراحا جميلا ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان ائتمن للمسنات منكن اجرا عظيما (٢) » .

فلما نزلت هاتان الآيتان خسر نساءه وبدأ بعائشة وقال لها : « ما أحب أن تختارى حتى تستامرى أبويك » ثم تلا عليها الآيات وفيها التخيير بين أن تبقى عنده على شظف العيش وخشونة الحياة ، وبين أن يفارقها ويمتعها متاعا جميلا ، فكان جوابها على الفور : أفيك استأمر أبوي ؟ بل اختار الله ورسوله والدار الآخرة ! وكذلك فعل بكل واحدة من نساائه على انفراد فكان جوابها كجواب عائشة وهى لا تعلم بما أجابت غيرها (٣) .

وظل هكذا شأنه مع نساائه من التقشف وخشونة العيش حتى توفاه الله .

تقول السيدة عائشة رضى الله عنها : « ما شيع آل محمد يومين من

(٢) سورة الاحزاب : ٢٨ ، ٢٩

(١) رواه الترمذى وابن ماجه

(٣) تفسير الطبري : ٩٩/٢١

خبز البر ، ولقد كنا نمكث الشهر والشهرين لا يوقد في بيتنا نار ، وما كان طعامنا ، لا التمر والماء ، ولقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما في بيتنا شيء يأكله ذو كبد إلا كسرة خبز من شمعير على رف لى (١) .

وقال أنس : دهن النبي صلى الله عليه وسلم درعا له على شمعير يأخذه لطعام أهله (٢) .

٤ - عمله في بيته

سئلت عائشة رضي الله عنها ماذا كان يعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في البيت ؟ فقالت : كان يشرأ من البشر ، يخصف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويحلب شاته ، ويعمل ما يعمل الرجل في بيته ، فإذا حضرت الصلاة خرج (٣) .

٥ - معاملته لأصحابه

١ - يقول أنس خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم : خدمت النبي عشر سنين فما قال لى : أف . قط ، ولا قال لشيء صنعته : لم صنعته ، ولا لشيء تركته : لم تركته ؟ وكان لا يظلم أحدا أجره (٤) .

٢ - وقالت عائشة رضي الله عنها : ما ضرب شيئا قط ، ولا ضرب امرأة ولا خادما (٥) .

٣ - وقال أبو هريرة رضي الله عنه : دخلت السوق مع رسول الله ليشتري سراويل ، فوثب البائع الى يد النبي صلى الله عليه وسلم ليقبلها ، فجذب يده ، ومنعه قائلا له : « هذا ماتفعله الإعاجم بملوكها ، ولست بملك ، إنما أنا رجل منكم » ثم أخذ السراويل فأردت أن أحملها فأبى وقال : « صاحب الشيء أحق بأن يحمله » .

٤ - وكان عليه الصلاة والسلام مرة في سفر مع جماعة فلما حان موعد الطعام ، مزموا على أعداد شاة يأكلونها ، فقال أحدهم : على ذبيحها ، وقال الآخر : على سلخها ، وقال الثالث : على طبخها ، فقال النبي عليه السلام : وعلى جمع الحطب ! فقالوا : يا رسول الله نحن تكفيك العمل ، فقال : علمت أنكم تكفوننى ولكنى أكره أن أتميز عليكم ، وأن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه مجيزا بين أصحابه (٦) .

٥ - جاء رجل من الانصار يكتى أبنا شعييب فقال لفلان له قصاب : اجعل لى طعاما يكفى خمسة ، فأتى أريد أن أدعو النبي صلى الله عليه وسلم وخمس خمسة ، فأتى قد عرفت في وجهه الجوع ، فقدمهم فجاء

(١) رواه البخارى ومسلم وغيرهما (٢) رواه البخارى

(٣) رواه البخارى فى الادب المفرد (٤) رواه البخارى

(٥) الزرقانى فى شرح المواهب : ٢٨٧/٤ (٦) الزرقانى فى شرح المواهب : ٢٦٥/٤

معهم رجل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لصاحب الدعوة : ان هذا قد تبعنا فان شئت ان تأذن له فأذن له ، وان شئت أن يرجع رجع ، فقال الانصارى : لا بل أذن له (١) .

٦ - وكان من عاداته صلى الله عليه وسلم مع أصحابه أن يقبل معذرة المئذ ولا يجابه أحدا بما يكره ، وإذا جلفه عن أحد شيء يكرهه ، نبه على الخطأ بقوله : « ما بال أقوام يفعلون كذا » دون أن يذكر اسمه .

٧ - ولم يكن يحب أن يقوم له أحد ، وكان يجلس حيث انتهى به المجلس ، وينزل إلى أسواقهم فيرشدهم إلى الأمانة وينهاهم عن الخداع والغش في المعاملات .

٨ - وكان من عاداته أن يبش إلى كل من يجلس إليه حتى يظن أنه أحب أصحابه إلى قلبه .

٩ - ويقرب إليه ذوى السبق في الإسلام والجهاد ولو كانوا من غمار الناس .

١٠ - ويستشير أولى الراى فيما هو من شؤون السياسة أو الحرب أو أمور الدنيا ، وينزل عند آرائهم ولو خالفت رأيه كما حصل في معركة بدر وغيرها .

٦ خشيته وعبادته

كان صلى الله عليه وسلم كثير المراقبة لله عز وجل وأوسع الخشية منه عظيم العبادة له ، يقوم في الليل متهجدا راکعا ساجدا حتى تتورم قدماه ، وتفيض عيناه بالدمع من خشية الله حتى يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء ، فتقول له في ذلك السيدة عائشة رضى الله عنها : أتفعل ذلك يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فيجيبها : أفلا أكون عبدا شكورا ؟ .

وكان كثير اللهج باسم الله عز وجل فإذا أكل أو شرب أو قام أو قعد أو ابتدأ شيئا أو فعل أمرا بدأ ذلك كله باسم الله الرحمن الرحيم وإذا اختتمه بالحمد لله رب العالمين .

وكان لا يفتقر من الدعاء لربه ومن دعائه عليه الصلاة والسلام :
اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع ، وعمل لا يرفع ، ودعاء لا يسمع (٢) .

اللهم انى أسألك من الخير كله ما علمت منه وما لم أعلم وأعوذ بك من الشر كله ما علمت منه وما لم أعلم (٣) .

(١) رواه البخارى

(٢) رواه احمد والحاكم وغيرهما

(٣) رواه ابو داود والطبري

اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا
وجميع سخطك (٢) .

اللهم انى أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك وفجأة نعمتك
وجميع سخطك (٢) .

اللهم انى للهوذ بك من منكرات الاخلاق والإعمال والاهواء
والادواء (٣) .

ولما كذبتة ثقيف في الطائف وآذته وأغرت به سفاهة يرحمونه
بالاحجار حتى دميت قدماء ، اتجه الى الله خالقه بهذا الدعاء الرهيب:

اللهم انى أشكو اليك ضعف قوتى وهوانى على الناس ، يا ارحم
الراحمين ، الى من تكلنى ؟ الى عدو يتجهمنى ؟ أم الى قريب ملكته
أمرى ؟ ان لم تكن ساعطى على فلا أبالى ، غير أن عافيتك أوسع لى ،
أعوذ بنور وجهك الذى أضاءت له السموات والأرض وأشرقت له
الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن تحل علي غضبك ، أو
تنزل على سخطك ، ولك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا
قوة الا بك (٤) .

٧ - رياضته ونظافته

ومع هذه العبادة وذلك التضرع والبكاء ، كان طيب النفس ،
مفتحا للحياة ، يتسابق مع عائشة ، ويتصارع مع ركانة ، ويشهد لعب
الحبشة في أعيادهم ، ويعنى بلباسه ونظافته ، فهو كثير الاستئصال
كثير الادهان بالطيب ، اذا مر من طريق يعرف الناس انه قد مر به لما
يجدون من طيبه ، واذا صافحه المصافح يظل يجد أثر الطيب في يده
ثلاثة أيام ، وكان لا يفارقه في حضره وسفره ، مشطه ومقصه ومرآته
ومكحلثه ..

وبهذا يفترق الامر كثيرا عن معنى الدين والتعبد في الديانات
الاخرى ، اذ يعتبرون من مآثر القديس عندهم أنه لم يقرب جسمه
الماء طيلة حياته ! .

كما يفترق عن عادة الغربيين في هذه الايام اذ رأيناهم يصيبون على
الرجل أن يدهن بالطيب فتفوح رائحته الطيبة منه ، والله في خلقه
شؤون ! ..

٨ - مزاحه ودعابته

ومما يتصل بطيب النفس ، حب الدعابة البريئة ، والمزاح مع
الأصحاب والمتريدين عليه ، فقد كان صلى الله عليه وسلم يحب الدعابة
ويبتسم للبتكة اللطيفة ، ويمزح أصحابه ويلاعبهم بالنكات اللطيفة .

(١) رواه احمد والحاكم وغيرهما

(٢) رواه مسلم وابو داود والترمذى

(٣) رواه الترمذى والطبرى والحاكم

(٤) رواه الطبرانى

١ - جاءته امرأة عجوز تطلب إليه أن يدعو الله لها بدخول الجنة، فقال لها مداعبا: أو ما علمت أن الجنة لا تدخلها عجوز؟ .. فولت بكي فقال: ردوها، لما قرأت قوله تعالى: **أَنَا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنْسَاءً، فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا، عُرُبًا أَتْرَابًا (١)** .

٢ - وجاءته امرأة من الانصار تشكو اليه زوجها، فقال: ازوجك الذى فى عينه بياض؟ فجذعت اذ ظنت أن بعينه عيبا لم تطلع عليه، فافهمها أن كل انسان فى عينيه بياض حول القلّة .

٣ - وجاءه اعرابى يسأله أن يمنحه ناقة يركب عليها فى سفره، فقال له: انا حاملك على ولد ناقة . فقال: وما اصنع به يا رسول الله؟ فقال: وهل تلد الابل الا النوق؟ .

٩ - تواضعه وسماحته

قد رايت فيما مر معك من معاملته لاصحابه انها معاملة نبي كريم، وزعيم محبوب متواضع، وانسان عظيم استمد عظمته من خصائصه لامن جاهه ولا من نفوذه .

ومما برع فى صورة رسول الله صلى الله عليه وسلم انه ظل هو هو الانسان المتواضع تواضع الانبياء العظماء فى مختلف مراحل دعوته، حين كان مضطهدا، وحين كان منتصرا، حين كان وحيدا، وحين كان فى أوج المجد والانتصار .. وما عهدنا بمثل هذا فى تاريخ العظماء .. وما كان محمد عظيما فحسب ولكنه رسول الله أيضا ..

يوم فتح الله له مكة وانهزمت امام جحافل جيوشه قريش الطاغية الباقية التى ناصبته العداء نحو من عشرين عاما، دخل مكة على جمل له مطاطىء الرأس خضوعا لله وشكرا .

وجاءه الرجال خائفين وفيهم رجل ترصد فرائضه، فقال له: هون عليك انما انا ابن امرأة من قريش كنت تاكل القديد (اللحم المقدد) .

وظل رسول الله يستمع الى العبد والعجوز والارملة والمسكين يقف فى الطريق لكل من يستوقفه، ويصافح كل من ياقاه فلا يترك يده حتى يكون الذى استوقفه هو الذى يترك يده، ويتفقد اصحابه، ويزور مرضاهم ويشهد جنازتهم، ويستمع الى مشاكلهم، ويششاركهم فى اجرائهم وافراحهم .

١٠ - رحمته وشفقته

كان صلى الله عليه وسلم واسع الرحمة بالاطفال والنساء والضعفاء .
سمع بكاء صبي وهو فى الصلاة فخفف صلاته كيلا تفتن امه التى كانت تضلى وراءه .

ومر بعد انتهاء إحدى المعارك بجثة امرأة مقتولة فغضب وقال
ألم أتهمكم عن قتل النساء ؟ ما كانت هذه لتقاتل !

وبلغت رحمته بالحيوان حداً عجيباً فقد أصفى الإناث إلى هرة
الرأت الشرب ..

وقام بنفسه على تمرير ديك مرض في بيته .

ورأى جملاً هزلاً فقال : اتقوا الله في هذه البهائم ، اطعموها
واركبوها صالحة ..

وبلغت معاملته للارقاء ووصاياه فيهم ، حداً لم يعرفه التاريخ .

وكل ذلك دليل على ما فاضت به نفسه الكبيرة من معاني الرحمة
والشفقة .

١١ - مشاركة لآلام الشعب

اشتكت إليه فاطمة بنته ما تلقاه من أعمال البيت من شدة وعناء ،
وطلبت إليه أن يخدمها خادماً ، فرفض عليه السلام ذلك وقال لها
لا أعطيك وأدع أهل الصفة - وهم جماعة من الفقراء - تطوى بطونهم
من الجوع (١) .

وذهبت أم الحكم بنت الزبير وأختها فاطمة يسألان النبي صلى
الله عليه وسلم معونة على أعمالهما البيتية فقال لهما : سبقتكما يتامى
بدر (٢) .

وأتى النبي صلى الله عليه وسلم بيت فاطمة ليزوره ، ثم عدل
فلم يدخل عليها ، فبعثت عليها لیسال الرسول عن سبب عدوله عن
زيارتها ، فأجابها الرسول أتى رأيت على بابها ستراً موشياً ! فعاد إلي
فاطمة فأخبرها الخبر ، فقالت فاطمة : ليأمرني فيه بما شاء ، فقال
عليه السلام : ترسلني به إلى فلان أهل بيت بهم حاجة (٣) .

وأراد زيارتها مرة أخرى فعاد كذلك دون أن يدخل عليها فأرسلت
تسأله عن سر ذلك أيضاً ، فأجابها : أتى وجدت في يديها سوارين
من فضة ، فلبفها ذلك فأرسلتهما إليه ، فباعهما النبي صلى الله عليه
وسلم بدرهمين ونصف وتصدق بهما على الفقراء .

يونس تمر هنا بيان أدب العربية الكبير المرحوم مصطفى صادق
الرافعي ليعلق على هذه الحادثة فيقول :

« يا نبي العظيم ! وأنت أيضاً لا يرضى لك أبوك حلية بدرهمين
ونصف وإن في المسلمين فقراء لا يملكون مثلاً ؟ »

أي رجل شعبي على الأرض كمحمد صلى الله عليه وسلم فيه

(٢) رواه أبو داود

(١) رواه الإمام أحمد

(٣) رواه البخاري

للأمة كلها غريزة الالب ، وفيه على كل أحواله اليقين الذي لا يتحول
وفيه الطبيعة التامة التي يكون بها الحقيقي هو الحقيقي .

يأبنت النبي العظيم ! ان زينة بدرهمين ونصف لا تكون زينة في
رأى الحق اذا أمكن ان تكون صدقة بدرهمين ونصف ! ان فيها حينئذ
معنى غير معناها ! فيها حق النفس غالبا على حق الجماعة ، وفيها
الايمان بالمنفعة حاكما على الايمان بالخير ، وفيها ماليس بضرورى قد
جاء على ما هو الضرورى ، وفيها خطأ من الكمال ، ان صح في حساب
الحلال والحرام ، لم يصح في حساب الثواب والرحمة .

تعالوا إليها الاشتراكيون فاعرفوا نبيكم الاعظم ! ان مذهبكم مالم
تحبه فضائل الاسلام وشرائعه - ان مذهبكم هذا كالشجرة الداللة
تصنقون عليها الاثمار تشدونها بالخيط ، كل يوم تحلون ، وكل يوم
تربطون ، ولا ثمرة في الطبيعة (١) .

ونحن ايضا نسأل : أى زعيم من زعماء الدول الاشتراكية في عصرنا
التحديث تؤثر عنه مثل هذه الحادثة وامثالها ؟!

١٢ - زهد في الغنى

دخل عليه عمر رضى الله عنه يوما فرآه على حصير قد اثر في جنبه ،
ورفع رأسه في البيت فلم يجد الا اهابا معلقا (الاهداب كيس من جلد)
وقبضة من شعير وحصيرا . تكاد تبلى فبكى عمر ، فقال له : ما يبكيك
يا ابن الخطاب ؟ قال عمر : يا نبي الله ! ومالى لا ابكى ، وهذا الحصير
قد اثر في جنبك ، وهذه خزائنك لا ارى فيها الا مالى ، وذلك كسرى
وقيصر ، في الثمر والانهار ، وانت نبى الله وصفوته ؟

فقال عليه السلام : انى شك انت يا ابن الخطاب ؟ اولئك قوم عجلت
لهم طيباتهم في الحياة الدنيا (٢) .

ودخل عليه ابن مسعود رضى الله عنه مرة فرآه على تلك الحال ،
فقال له : يا رسول الله الا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئا ؟
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مالى وللدنيا ؟ انما مثلى ومثل
الدنيا كراكب ظل تحت شجرة ثم راح وتركها» (٣) .

١٣ نفقته وصدقاته

وكان صلى الله عليه وسلم كثير للنفقات والصدقات ، لا يدخر مالا
ولا متاعا وكثيرا ما يستدين لينفق على بعض ذوى الحاجات . وهو
يعطى عطاء من لا يخشى الفقر كما قدمنا ، وقد توفى وليس عنده درهم
ولا دينار ، وقد أوقف كل أرض كانت قد صارت اليه من الفنائم ،

(١) وحى القلم : ٦٩/٢

(٢) رواه البخارى واحمد وابن ماجه بالفاظ متقاربة

(٣) رواه احمد واحمد وابن ماجه والترمذى

وفي ذلك يقول الحديث المشهور الذي خفي على بعض الطوائف سر روعته ودلالته على صدق نبوته وإخلاصه في رسالته : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » .

جاءه مرة مال كثير فأنفقه إلا بضع دربهات استبقاها إذ لم يجد لها طالبا ، فما عرف تلك الليلة النوم قلما مما بقي عنده ، وما كاد يصبح الصباح حتى سارع إلى إنفاقها ... وهكذا صح فيه قول صحابته « كان لجود من الرياح المرسلة » .

١٤ - عدله وشدته في الحق

وكان لا يعرفني الحق صديقا ولا قريبا فالكل عنده سواء ، والجميع مسئولون على أعمالهم أمام الله وأمام الشريعة .

سرق امرأة من بنى مخزوم حليا أو متاعا ، ورفع أمرها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاعترفت بالسرقة ، فخشي قومها أن ينفذ الرسول عقوبة السارق فيقتضحوا وجاعوا إلى السامة بن زيد وكان معروفا بحب النبي صلى الله عليه وسلم له ولأبيه زيد ، وكلموه في أن يشفع للمرأة ألا ينفذ فيها العقوبة ، وكلم رسول الله في ذلك ففضض عليه الصلاة والسلام وقال له : أتشفع في حد من حدود الله ؟ ثم جمع الناس فخطب فيهم فقال :

« يا أيها الناس .. إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم للشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم للضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها (١) . »

١٥ - شجاعته في الحروب

ومن كمال هذا الصورة العجيبة في اكتمالها شجاعته صلى الله عليه وسلم في الحرب ، فقد كان يقود الجيوش ويخوض المعارك ويحرض على القتال في سبيل الرسالة التي حملها وآمن بها ، ولم يعرف عنه تكوص في معركة ، ولا فرار في موقعة ، بل نجده في معركة أحد - وقد انهزم أكثر المسلمين - ثابتة الجنان يتلقى سهام الأعداء وهو واقف يقاوم ويناضل ، وفي معركة حنين إذ فر عنه أكثر الناس وقف على بقلته وهو يقول : أنا النبي لا كذب ، أنا بن عبد المطلب ، وفي شجاعته يقول على رضى الله عنه وهو البطل المقدام : كنا إذاً أحمررت الحديق وحمل الوطيس نلوذ برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه .

١٦ - حرصه على إتمام رسالته

لم يترك رسول الله وسيلة لتبليغ رسالته إلى الناس إلا سلكها ، ولم يترك خصومه وسيلة لحمله على ترك دعوته إلا سلكوها ، ولكنه ثبت

(١) رواه البيهقي ومسلم وغيرهما

ورغم كل اغراء وتهديد بالقتل والاغتيل وقال لعمه ابي طالب قولته المشهورة : « والله يا عم لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر حتى يظهره الله او اهلك دونه ما تركته ! » ولا شج وجهه صلى الله عليه وسلم في معركة « الجند » وكسرت رباعيته قيل له لو دعوت عليهم ؟ .. فقال : انى لم ابعث لعالم ولنكنى بعثت داعيا ورحمة ، اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون .

١٧ - الرسول الكامل

ذلك نمط من اخلاقه صلى الله عليه وسلم نلمح منها حقيقة شخصيته ولسنا نفيض في بقية اخلاقه ، من وفائه ، وامانته وحيائه ، واخلاصه ، وصدقه ، وعفافه ، وحسن سياسته ، وجميل جسواره ، وفصاحته . وغير ذلك مما فاضت به كتب السيرة والتاريخ فنحن هنا - كما قلت - نضرب الامثال ولا نستقصي ، ولكنى اختتم هذا الحديث بالإشارة الى ما كان لهديه في ارشاد قومه من اثر في توجيههم نحو الخير والحق والكرامة والسعادة .

١٨ - الرسول المعلم

حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كلها ارشاد وهداية وتعليم ، وخاصة ماكان من اقواله عليه الصلاة والسلام التى قصد بها التشريع والهداية ، ولذلك كانت خصائصه وصفاته التى ذكرنا طرفا منها آنفا مدرسة يتعلم فيها اصحابه طرازا جديدا من الحياة ، ومقياسا جديدا من المفاهيم كان له اكبر الاثر في قيام الدولة الاسلامية والمجتمع الاسلامى ونشوء الفرد المسلم في الجو الاشتراكى الذى اوضحنا معالنه في هذا الكتاب .

ونحن هنا نريد ان نذكر نموذجا من تعليمه لاصحابه نعلم منه كيف كان يوجه ذلك المجتمع الجديد العهد بالاسلام ، والقريب العهد بالجاهلية توجيها بناء ايجابيا نحو الحياة الاشتراكية العاملة العابدة المتعاونة البارة الكاملة .

١ - جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم يريد الجهاد ، فقال ، احي والدك ؟ قال : نعم ، فقال له الرسول : ففيها فجاهد (١) .

٢ - قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن بن على ، وعنده الاقرع بن حابس التميمي جالس ، فقال الاقرع : ان لى عشرة من الولد ما قبلت منهم احدا ، فنظر اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : من لا يرحم لا يرحم (٢) .

٣ - جاءت امرأة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ! انا لا تقدر عليك في مجلسك فواعدنا يوما لك فيه ، فقال :

« موعداكن بيت فلان » فجاءهم لذلك الوعد ، وكان فيما حدثهن : « ما
مكن امرأة يموت لها ثلاث من الولد فتحسبهم الا دخلت الجنة » .

فقالت امرأة : « واثنتان ؟ » قال : « واثنتان (١) »

٤ - كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة مع اصحابه فقال لهم :
انكم مال وارثه احب اليه من ماله ، قالوا : يا رسول الله ! ما لنا احد الا
ماله احب اليه من مال وارثه ، فقال صلى الله عليه وسلم : مالك ما قدمت ،
ومال وارثك ما اخرت (٢) .

٥ - عن ابي مسعود قال : كنت أضرب غلاما لى فسمعت من خلفي
صوتا : اعلم ابا مسعود ! الله أقدر عليك منك عليه ، فالتفت فاذا هو رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، قلت يا رسول الله ! هو حر لوجه الله ! فقال :
« أما ان لو لم تفعل لمستك النار » او لفحتك النار (٣) .

٦ - مر النبي صلى الله عليه وسلم بدابة قد وسم يدخن منخراها
فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لعن الله من فعل هذا ، لا يسب أحد
الوجه ولا يضربنه (٤) .

٧ - وقال عليه الصلاة والسلام : « اذا جاء أحدكم خادمه بطعام
فليجلسه معه فان لم يقبل فليتناوله منه (٥) » .

٨ - وقال أيضا : « لا يقل أحدكم : عبي ، أمتى ، كلكم عبيد الله
وكل نساكنكم ماء الله ، وليقل : غلامي ، جاريتى ، وفتاى ، وفتاى (٦) »

٩ - سئل النبي صلى الله عليه وسلم : أى الاعمال خير ؟ قال : إيمان
بالله وجهاد في سبيله ، قيل : فأى الرقاب أفضل ؟ (أى فى العتق) قال :
أفلاها ثمنا وانفسها عند أهلها ، قيل : أفرايت أن لم أستطع بعض العمل ؟
قال : فتمين صائما ، أو تصنع لآخرق (هو الذى لا يحسن صنعه) فقيل
له : أفرايت أن ضعفت ؟ قال : تدع الناس من الشر فانها صدقة تصدق
بها على نفسك (٧) .

١٠ - قال حرمة بن عبد الله : « جئت النبي صلى الله عليه وسلم ،
فقلت : ما تأمرنى بعمل ؟ فقال عليه السلام : أتت المعروف واجتنب المنكر ،
وانظر الذى تكرهه أن يقول لك القوم اذا قمت من عندهم فأجنبه » قال
حرمة : فلما رجعت تفكرت فاذا هما (أى أتت المعروف واجتنب المنكر)
لم يبق شيئا (٨) .

١١ - خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بالصحابة فقال :
« ايها الناس ! اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح
فان الشح أهلك من كان قبلكم وحملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا

(١) رواه البخارى ومسلم

(٢) رواه البخارى فى الادب المفرد

(٣) رواه البخارى فى الادب المفرد

(٤) رواه البخارى ومسلم وحفظ للبخارى فى الادب المفرد

(٥) رواه البخارى فى الادب المفرد

(٦) رواه البخارى ومسلم

محارمهم «وفى رواية أخرى زيادة:» وإياكم والفحش فإن الله لا يحب
الفاحش المتفحش (١) »

١٢ - عن عائشة بنت سعد أن أباهما قال : اشتكت بمكة شكوى
شديدة (مرضا شديدا) فجاء النبي صلى الله عليه وسلم يعودني ، فقلت
يا رسول الله ! انى أترك مالا ، وأنى لم أترك إلا ابنة واحدة ، فأوصى بثلاثي
مالي وأترك الثلث ؟ قال «لا» قال أوصى بالنصف وأترك لها النصف ؟
قال «لا» قال : فأوصى بالثلث وأترك الثلثين فقال : «الثلث والثلث كثير
أنك تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدمهم عائلة يتكفون الناس (٢) »

١٣ - وكان مما قاله لأبي ذر : أفرأيت من دلوك في دلو أخيك صدقة
وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وتبسمك في وجه أخيك صدقة
وأماطتك الحجر والشوك عن طريق الناس لك صدقة ، وهدايتك الرجل
في أرض الضالة صدقة (٣) .

١٤ - مر رجل على النبي صلى الله عليه وسلم ومعه بعض الصحابة
فراى أصحابه من جلده ونشاطه ما أعجبهم ، فقالوا : يا رسول الله ! لو
كان هذا في سبيل الله ! فقلنا عليه السلام : «ان خرج يسعى لكل ولده
صغارا فهو في سبيل الله ، وان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين
فهو في سبيل الله ، وان كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل
الله وان كان خرج يسعى رياء ومفاخره فهو في سبيل الشيطان (٤)»

١٥ - وجاء رجل الى رسول الله يسأله شيئا من المال وهو قوى
معافى فقال له الرسول : أما في بيتك شيء؟ قال بلى ! جلس (كساء غليظ
ممتلئ) ثياب بعضه ونسبط بعضه ، وقعب نشرب فيه من المساء ،
فقال الرسول : ائتني بهما فاتاه بهما ، فأخذهما رسول الله صلى الله
عليه وسلم بيده وقال : من يشتري هذين ؟ قال رجل : انا أخذهما
بدرهم قال الرسول : من يزيد على درهم (مرتين أو ثلاثا) قال رجل
انا أخذهما بدرهمين فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين فأعطاهما الانصارى
وقال له : اشتري أحدهما طعاما فانبذه لى أهلك ، واشتر بالآخر قدوما
فأئتني به ، فاتاه به فشد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حودا بيده
ثم قال ، اذهب فاحتطب ولا أرينك خمسة عشر يوما ، ففعل ، فجاء وقد
أصاب عشر دراهم ، فاشتري ببعضها ثوبا وبعضها طعاما ، فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، «هذا خير من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك
يوم القيامة ، ان المسألة لا تصلح إلا لثلاث : لذي فقر مدقع أو لذي غرم
مفطع أو لذي دم موجع (٥)»

١٦ - وسأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبى الإسلام خير
؟ فقال : تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف (٦)

(١) رواه مسلم والبخارى فى الادب المفرد (٢) رواه البخارى ومسلم وبقيت كتب السنة

(٣) رواه البخارى فى الادب المفرد وأخرجه الترمذى

(٤) رواه أبو داود والبيهقى والترمذى

(٥) رواه الطبرانى

(٦) رواه البخارى

١٧ - وبينما النبي في مجلس يحدث القوم جاءه اعرابي فقال له متى الساعة ؟ فاجابه : اذا ضيعت الامانة فانتظر الساعة ، قال كيف اضعائها ؟ قال : اذا وسد الامر الى غير اهله فانتظر الساعة (١) .

١٨ - جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ما القتال في سبيل الله ؟ فان احدثنا يقاتل غضبا ويقاتل حمية فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو سبيل الله عز وجل (٢) .

١٩ - عن أسماء بنت يزيد قالت : دخلت انا وخالتى على النبي صلى الله عليه وسلم وعلينا السورة من ذهب فقال لنا : اتعطين زكاته ؟ قالت قلنا : لا ، قال : اما تخافان ان يسوركما الله اسورة من نار ، اديا زكاته (٣) .

٢٠ جاء رجل الى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فلما نزل عن ناقته سأل الرسول : اطلق ناقتى واتوكل ؟ فقال عليه السلام : اعلقها (اى اربطها) وتوكل (٤) .

٢١ - عن ابي بشر قبيصة بن مخارق قال : تحملت حمالة (اصلح بين قوم فتحمل ديات قتلاهم) فاتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم اسأله فيها (اى يعطيه مايعينه عن أداء ديات القتلى) فقال الرسول : اقم حتى تأتين الصدقة فتأمر لك بها ، ثم قال : يا قبيصة ! ان المسألة لا تحل الا لاحد ثلاثة : رجل تحل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك ، ورجل اصابته جائحة اجتاحت ماله ، فحلت له المسألة حتى يصيبه قواما من عيش ، او قال سداد من عيش ، ورجل اصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوى الحيى من قومه : لقد اصابك فلانا فاقة : فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش ، فما سواه من المسألة يا قبيصة فسحت ياكلها صاحبها سحتا (٥) .

وبعد فهذه صورة خاطفة عن شخصية الرسول واخلاقه واسلوب تعليمه لاصحابه ، وهى صورة غير متكاملة ولا تامة ، ولكنى اجتزأت منها ما يدل على تمام الصورة وحقيقتها ، وتما هذه الصورة كما يبدو مما ذكرته كتب السيرة انه صلى الله عليه وسلم جمع في وقت واحد اسمى ما تكون عليه صلة رسول بربه واروع ما تكون سيرة زعيم بشعبه واكمل ما تكون علاقة مصلح بالعالم الانسانى كله .

أما الصلة فكانت تتجلى في عبادته ودعائه وحرصه على رضا الله ورجائه لثوابه .

وأما السيرة في الامة فهى سيرة من احبه لامته الخير ومنحها النصيح ، ودناها على الهدى ، وآثرها على نفسه واهله ، ولم يحتجز دونها مالا ولا اثانا ولا ريبا ، بل كان يعطيها ويحرم نفسه ، ويملا بيوتها بالنعمة وان

(١) رواه البخارى

(٢) رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن الاربعة

(٣) رواه الإمام احمد

(٤) رواه الترمذى وابن حبان والطبرانى

(٥) رواه مسلم وابو داود والنسائى

بيوت أزواجه ليلفحها حر الخسونة والاقلال وشظف العيش ، وهي
سيرة من لم يحل اتباعه على ترك الدنيا ليعيشوا فيها كالغنم الممتتقين
قطيع الذئب ! ولا حملهم على ركوب الدنيا فيكونوا فيها كالكلاب
المسورة ان لم تنهش اللحم فاتها تمزق الثياب ! أوقد فيهم جذوة
النعمل للحياة مع شعلة الايمان بالله ، وبث فيهم روح الثورة على الباطل ،
والتمرد على الظلم والترفع عن الدنيا ، وغرس فيهم - وهم في الحرب -
أرق شغائل الانسانية الرحيمة في السلم ، فكان في حربه أوسع صدرا
واكثر رحمة وأبر بالأسرى والضعفاء من كثير من زعماء الدول في سلمهم
وسياسستهم ورعايتهم للشعوب .

وأما الإصلاح للعالم الانساني فحسبه هذا النظام الذي تنجب العالم
وبلات المادية وضعف الروحانية السلبية ، وحسبه هذه القوانين التي
جاءت في اشتراكيتها نمطا فريدا خلا من عيوب المذاهب الاشتراكية كلها
وجمع محاسنها كلها .

حسبه من الإصلاح العالمي انه أنشأ أول دولة اشتراكية انسانية في
العالم ، وأول مجتمع اشتراكي انساني في التاريخ ، وأول جيل اشتراكي
عملي انساني يبنى اسمى الحضارات .

ذلكم هو محمد رسول الله !

محقق أول دولة !

ومنشئ أول مجتمع !

ومربي أول جيل !

في الدولة الإسلامية

كان العالم كله خارج الجزيرة العربية - يوم أعلن الإسلام تلك المبادئ والقوانين الاشتراكية ، يسوده نظام الاقطاع وتحكم الاغنياء بالجمهير ، ولم يكن للفقراء ولا للمهاجرين ما يستعينون به على ضعفهم وعجزهم أو يدفعون به عن أنفسهم غائلة الجوع والحاجة الا أن يستجدوا الناس ، وكانت المجتمعات تنظر الى هؤلاء على أنهم كمية مهمة لا قيمة لها في الحياة الاجتماعية ، بل هم عبء ثقيل على المجتمع لاسبيل الى رفعه ، لان الفقر في نظرهم قدر من السوء ، ينظر اليه بعضهم على أنه نعمة ، وينظر اليه آخرون على انه بلاء يعاقب الله به عباده كما يعاقبهم بالامراض والموت ..

فلما أن قامت للإسلام دولته الاولى في المدينة ، تكون اول مجتمع - لا في الجزيرة العربية فحسب - بل في تاريخ العالم كله ، تسوده روح التعاون والتناصح والشعور بالمسؤولية : مسؤولية المجتمع نحو ابنائه ، ومسؤولية كل فرد نحو اخوانه الآخرين .

١ - في عهد الرسول

كانت أول خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة ان قال :

أما بعد أيها الناس ، فقدموا لانفسكم ، تعلمن والله ليضعن احدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجب دونه : ألم يأتك رسولي فبلغك ، وأتيتك مالا وأفضلت عليك ؟ فما قدمت لنفسك ؟! فلينظرن يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع ان يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فانها تجزى الحسنة عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف والسلام عليكم ورحمة الله « (١) .

فهذا أول توجيه يصدره نبي الدعوة ورئيس الدولة محمد صلى الله عليه وسلم في عاصمتها الجديدة (المدينة) كأنه يبين للناس أن أبرز شعارات هذه الدعوة عمل الخير والانفاق في سبيله ، لا يستثنى من ذلك أحد ولو كان غير مؤسر ، اما المؤسر فبانفاق المال ، وأما غير المؤسر فبكلمات الخير والتناصح والبر ، ولا يستطيع أحد أن يزعم أنه عاجز عن هذا !

ثم كتب رسول الله كتابا (معاهدة) بين المهاجرين والانصار ، بين فيه دعائم الاخوة التي تقوم بينهم في مجتمعهم الجديد ، وأقر فيه اليهود على دينهم وأموالهم وعاهدتهم على الحماية والنصرة ما اخطصوا للدولة

الجديدة والنظام الجديد . واليك المبادئ التي تضمنتها هذه
المعاهدة (١) :

- ١ - وحدة الامة المسلمة من غير تفرقة بينها .
- ٢ - تساوى ابناء الامة جميعا في الحقوق والكرامة يجبر ادناهم على
اعلانهم .
- ٣ - تكاتف الامة كلها دون الظلم والاثم والعدوان والفساد
كائنا من كان الظالم والمفسد .
- ٤ - اشترك الامة في تقرير العلاقات مع اعدائها ، لا يسالم مؤمن دون
مؤمن .
- ٥ - تأسيس المجتمع على احسن النظم واهداه واقومها .
- ٦ - مكافحة الخارجين على الدولة ونظامها العام ، ووجوب الامتناع
عن نصرتهم .
- ٧ - حماية من اراد العيش مع المسلمين مسالما متعاوننا ، والامتناع
عن ظلمهم والبغى عليهم .
- ٨ - لغير المسلمين دينهم واموالهم ، لا يجبرون على دين المسلمين
ولا تؤخذ منهم اموالهم .
- ٩ - على غير المسلمين ان يساهموا في نفقات الدولة كما يساهم
المسلمون .
- ١٠ - على غير المسلمين - في الدولة الاسلامية - ان يتعاونوا معهم
لدرء الخطر عن كيان الدولة ضد كل عدوان .
- ١١ - وعليهم ان يشتركوا في نفقات القتال ما داموا محاربين .
- ١٢ - وعلى الدولة ان تنصر من يظلم منهم كما تنصر كل مسلم
يتمردى عليه .
- ١٣ - على المسلمين وغيرهم ان يمتنعوا عن حماية اعداء الدولة ومن
يناصرهم .
- ١٤ - اذا كانت مصلحة الامة في الصلح وجب على جميع ابنائها
مسلمين وغير مسلمين ان يقبلوا الصلح .
- ١٥ - لا يؤخذ من انسان بذنب غيره ولا يجنى جان الا على
نفسه .
- ١٦ - حرية الانتقال في داخل الدولة والى خارجها مصونة بحماية
الدولة .
- ١٧ - لا حماية لاثم ولا لظالم .

(١) انظر نصها الكامل في سيرة بن هشام : ١٤٧/٢ - ١٥٠ .

١٨ - المجتمع يقوم على أساس التعاون على البر والتقوى لا على الاثم والعدوان .

١٩ - هذه المبادئ تحميها قوتان : قوة معنوية وهى ايمان الشعب بالله ومراقبته ورعاية الله لمن بر ووفى ، وقوة مادية وهى رئاسة الدولة التى يمثلها محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم اخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تنفيذ هذه المعاهدة فوثق صلاته بيهود المدينة ، وأخى بين المهاجرين والانصار ، جعل لكل نصارى اخا مهاجرا يؤويه ويتعاون معه على العيش والحياة المشتركة ويرث كل واحد منهما صاحبه اذا مات ، وذهب كل انصارى بأخيه المهاجر يقسم بينه وبين أخيه ماله وداره وكل ما يملك ! .

وفى وسط رمال الجزيرة العربية عاشت فى الدنيا لأول مرة عاصمة دولة لاتعرف الحقد ولا الاستئثار ولا البغى ولا الفجور ولا القسوة ولا موت الضمير !

ثم تطورت الدولة بعد ذلك فأرسل الرسول الولاة الى جميع انحاء الجزيرة يجمعون الزكاة ويصرفونها فى مصارف التكافل الاجتماعى ، فلكل فقير حاجته ، ولكل متزوج اعانته ، ولكل أعمى قائده ، ولكل مقعد مساعده ، ولكل مدين سداد ديونه ، ولكل من يموت فقيرا حماية أسرته بعد وفاته ، وحققت اللماء ، وحفظت الأمراض ، وصيمنت الكرامات ، وتحرر الناس من الجهل والخوف والخرافة ، ونفذت مبادئ معاهدة المدينة كلها الا ما كان من علاقة المسلمين باليهود ، فقد نقض اليهود العهد ، وتآمروا مع قريش على حرب الرسول ، وملا الحسد قلوبهم من نجاح الدولة الجديد وما زالوا يدسون لها ويتآمرون عليها حتى أجلاهم الرسول عن المدينة وما حولها .

خطبة الوداع

واستمر الامر كذلك طيلة حياة الرسول عليه الصلاة والسلام وأمنت الجزيرة العربية كلها برسالة الاسلام حتى اذا كانت نجحة الوداع وكان ذلك فى السنة التاسعة او العاشرة من الهجرة ، خطب الرسول صلى الله عليه وسلم خطبته الشهيرة التى أكد فيها مبادئ الدولة التى أعلنها فى السنة الأولى من الهجرة وضمنها وصاياه الخالدة وقد جاء فيها :

أيها الناس !

اسمعوا قولى ! فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقوف أبدا .

أيها الناس !

ان دماءكم واموالكم عليكم حرام الى ان تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا ، وانكم ستلقون ربكم فيسألکم عن أعمالکم وقد بلغت !

ومن نت عنده امانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها .

وان كل ربا موضوع ، ولكم رؤوس اموالكم لاتظلمون ولا تظلمون ،
نفى الله انه لاربا ، وان ربا العباس بن عبد المطلب (عم الرسول)
موضوع كله .

وان كل دم كان في الجاهلية موضوع ، وان اول دمائكم اضاع دم
ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب .

اما بعد ايها الناس ؟

فان الشيطان قد يش من ان يعيد بارضكم هذه ابدا ، ولكنه ان
يطلع فيما سوى ذلك ، فقد رضى به مما تحقرون من اعمالكم ، فاحذروه
على دينكم .

اما بعد ايها الناس !

اتما النسء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلون عامما
ويحرمونه عامما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا
ما أحل الله ، وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات
والارض وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا ، منها اربعة
حرم ثلاثة منها متواليه ، ورجب مفرد الذي بين جمادى وشعبان .

ايها الناس ! اسمعوا قولي واعقلوه

فان لكم على نساءكم حقا ، ولهن عليكم حقا :

لكم عليهن الا يوطئن فراشكم احدا تكرهونه ، وعليهن الا ياتين بفاحشة
مبينة ، فان فعلن فان الله قد اذن لكم ان تهجروهن في المضاجع
وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فان انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن
بالمعروف .

واستوصوا بالنساء خيرا فانهم عندكم عوان لا يمكن لانفسهن شيئا
وانكم انما اخذتموهن بأمانة الله ، واستحلتم فروجهن بكلمات الله .

فاعقلوا ايها الناس قولي فاني قد بلغت !

وقد تركت فيكم ما ان اعتصمتم به فلن تضلوا ابدا ، امرا بينا كتاب
الله وسنة نبيه .

ايها الناس ! اسمعوا قولي واعقلوه .

تعلمن ان كل مسلم أخ للمسلم ، وان المسلمين أخوة فلا يحل
لامرئ من أخيه الا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم

الاهل بلغت ؟!

قالت لجاهير : اللهم نعم .

فقال الرسول : اللهم فاشهد ..

ويلاحظ ان الرسول صلى الله عليه وسلم اهدر جميع الديون الربوية ، وقد كانت يومئذ ديونا للاغنياء على الفقراء والمحتاجين الذين كانت تضطرهم الحاجة الى الاستدانة بالربا ، وهذا تمش مع المبادئ الاشتراكية الاسلامية .

٢ - في عهد الخلفاء الراشدين

ثم توفي الرسول صلوات الله وسلامه عليه وتولى الخلافة بعده ابو بكر ، وواجه حوادث الفتنة الداخلية التي سميت باسم (حروب الردة) وقد كانت القبائل التي قامت بتلك الفتنة ، منها من اتبع مسيلمة الكذاب والاسود الضنبي في دعوة النبوة ، ومنها من بقى على الاسلام والايمان بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنهم اعلنوا امتناعهم عن دفع « الزكاة » للدولة التي يرأسها ابو بكر ، وكيفما كان فقد كانت الفتنة « امتناعا » عن تأدية « الزكاة » ورفضاً لتنفيذ مبادئ الاشتراكية الاسلامية في التكافل الاجتماعي ، ووقف ابو بكر موقفا حازما من تلك الفتنة وقال قولته المشهورة والله لو منعوني عقلا « او عناقا » كانوا يؤذونه لرسول الله لقاتلهم عليه ، وخاضت الدولة الاسلامية معارك طاحنة انتهت بانهزام الفتنة ومقتل رؤوسها واسترداد الدولة الاسلامية حق « الزكاة » وتنفيذ مبادئ التكافل الاجتماعي ، ونعتقد ان هذه اول حرب في التاريخ تخوضها دولة مافي سبيل تنفيذ التكافل الاجتماعي وتمويل قوانينه ، وذلك مما ينبغي تسجيله والتنويه به في هذا المقام .

في عهد ابي بكر

اما ماعدا ذلك . فقد كان عهد ابي بكر امتدادا لعهد الرسول في تنفيذ التكافل الاجتماعي لجميع فئاته . حتى ان خالد بن الوليد حين كان يقود معارك الفتح في العراق أعلن في معاهدة الصلح مع اهل الحيرة - وكانوا مسيحيين - التأمين الاجتماعي ضد الشيخوخة والمرض والفقر : « وجعلت لهم ايما شيخ ضعف عن العمل او اصابته آفة من الآفات او كان غنيا فافتقر وصار اهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت خبريته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ما اقاموا بدار الاسلام (١) » .

وكان ابو بكر في حياته الخاصة قدوة للناس في عفته عن أموال دولة ومساواته نفسه بالناس في اعطياتهم ومعيشتهم .

في عهد عمر

وتولى عمر الخلافة من بعده ، واستمرت معارك فارس والروم الى نهايتها المظفرة وكان هو روحها المحركة وعقلها المفكر وقائدها الموفق،

(١) انظر المعاهدة بنصها الكامل في الخراج لابي يونس ١٤٤ .

ونظم الدولة تنظيمًا يتفق مع تطورها واتساع رقعتها ، وكان من أهم أعماله تدوينه الدواوين ، والدويان كان تسجيلًا لكل مصادر الدولة ومواردها تفيد فيه أسماء ذوى الأعمال والأصحاب الإعطيات والمحتاجين الذين يستحقون نفقتهم من بيت المال بمقتضى قوانين التكافل الاجتماعى ، وكان يعطى الرجل على حساب كفايته وبلائه فى خدمة الدولة وسابقه فى الجهاد وعلى قدر حاجته وكفايته ، وكان يفرض لكل مولود مائة درهم فإذا ترعرع زاده الى مائتين ، فإذا بلغ زاده كذلك (١) .

وقد طبق عمر نظام التكافل الاجتماعى على غير المسلمين كما طبق على المسلمين ، فقد مريوما بشيخ كبير يسأل الناس . فاسترعى ذلك انتباهه ، فسأله مانت ياشيخ ؟ قال دى (وكان يهوديا) يسأل الجزية والصدقة ، فقال له عمر : ما نصفناك! أكلنا شبيبك ثم نضعك فى هرمك ؟ ثم أخذه الى بيته فأعطاه ما وجده وأرسل الى خازن بيت المال يقول : انظر الى هذا وضربائه فأفرض لهم من بيت المال ما يكفيهم وعيالهم أنى وجدت الله يقول : إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، والفقراء هم المسلمون والمساكين هم أهل النمة ، وهذا منهم (٢) .

ومر - وهو فى طريقه الى الشام - بقوم مجذومين من النصارى ، فأمر بأن ينفق عليهم من بيت المال ، وبأن يجعل لكل واحد منهم من يخدمه ويقوم على شئونه (٣) .

فى عهد عثمان

وكذلك استمر الأمر فى عهد عثمان - رغم الاضطراب السياسى الذى بدأ منذ السنة السابعة من عهد خلافته - ولم يؤثر هذا الاضطراب فى قيام الدولة بجمع الزكاة وتنفيذ نظم التكافل الاجتماعى على أتمها . وقد كان أول كتاب كتبه الى عماله (ولاهه) :

أما بعد فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم اليهم بأمرهم أن يكونوا جباة . . ألا وأن العدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم ثم تثنوا بأهل النمة فتعطوهم الذى لهم وتأخذوهم بالذى عليهم (٤) .

وكتب الى عمال الخراج :

أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل الا الحق ، خلدوا الحق وأعطوا الحق والأمانة قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها .

(١) الاموال : ٢٣٧

(٢) الخراء لآبى يوسف : ١٢٦ وقد ظن بعض الفضلاء أننا نقول بدفع الزكاة الى غير المسلم استنادا الى هذا الاثر عن عمر ، أما الاثر فهو ثابت عنه فى كتب التفسير والحديث . . وأما إعطاء الزكاة لغير المسلم فنحن نرى فى ذلك رأى الجمهور من عدم الجواز . . أما صلة التطوع فهي جائزة

(٤) تاريخ الطبرى : ٣٦٠/٣

(٣) فتح البلدان للبلاذرى : ١٣٦

فتكونوا شركاء من بعدكم الى ما ما اكتسبتم ، والوفاء الوفاء . لا تظلموا
اليتيم ولا المعاهد فان الله خصم لمن ظلمهم (١) .

في عهد علي

ثم ولي الخلافة بعده علي رضي الله عنه وقد غطى الاضطراب
السياسي وجه التكافل الاجتماعي الذي استمر في عهده كما كان في عهد
من قبله ، وكان مما كتبه الى محمد بن ابي بكر عندما استعمله على
مصر انه امره بتقوى الله والطاعة في السر والعلانية وخوف الله عز وجل
في الخبيء والشهد وباللين على المسلم والغلظة على الفاجر وبالعدل على
اهل الدمة ، وبالانصاف للمظلوم وبالشدة على الظالم وبالعفو عن
الناس . وبالاحسان ما استطاع والله يجزي الحسينين .. وامره ان
يجبى خراج الارض على ما كان عليه من قبل ، لا ينقص منه ولا يبتدع
فيه ثم يقسمه بين اهله على ما كانوا يقسمون عليه من قبل وان يلين لهم
جناحه ، وان يحكم بين الناس بالحق .

٣ - في العهد الاموي :

واستمرت الدولة تقوم باوجبها في تنفيذ نظم التكافل الاجتماعي
من جباية الزكاة ورعاية الفقراء والحاجات الاجتماعية ، حتى ان يوسف
ابن عمر كان يخصص في ميزانية اقليمه كل سنة عشرة ملايين درهم
« للاحداث والبنات اللاتي لم يتزوجن (٢) » .

ولا شك في ان سياسة الامويين قد انحرفت عن سياسة الخلفاء
الراشدين من نواح عدة لظروف مختلفة ولكن تنفيذ التكافل الاجتماعي
ظل مستمرا كخطة من خطط الدولة العامة ، وبرز الخلفاء الامويين عمر
ابن عبد العزيز وهو اقربهم الى هدى الخلفاء الراشدين ، ولو طال
لاعاد الى المجتمع الاسلامي صفاءه المشرق في الجهود السابقة ، وحسبنا
ان يقول احد عماله « كنا نطوف بالزكاة على الناس لعلنا نجد من قبلها »
لنعلم اي عهد كان عهده ، واية عدالة اجتماعية كان ينعم بها الناس
في ظله !

٤ - في العهد الاخرى :

واستمرت الدولة او الدول الاسلامية تقوم بجمع الزكاة وانفاقها
على المستحقين حتى العصر العثماني ، ومما لا ريب فيه ان تنفيذ
نظام التكافل الاجتماعي قد اضطرب عن ذي قبل نتيجة للاضطراب
السياسي الذي كان يعيش فيه العالم الاسلامي في تلك العصور ، ولكن
الحق ان هذا الاضطراب «أضعف» تنفيذ نظم التكافل الاجتماعي ولم
«يلغ» بل ظلت الدول الاسلامية هي الدول الاشتراكية الوحيدة بين
دول العالم يومئذ رغم ما كان يشوب الحكم في الدول الاسلامية من
ظلم وفساد . وليس مرد ذلك الا الى ان «الاشتراكية الاسلامية» جزء
من عقيدة الاسلام كما ذكرنا من قبل .

في الحروب الإسلامية :

هذا ما يتعلق بتنفيذ الدولة الإسلامية لاشتراكية الإسلام في التكافل المعاشي وأما تنفيذها للحقوق الطبيعية الخمسة والتكافل الاجتماعي بمعناه الواسع فإن الحروب الإسلامية كانت في الواقع لتحقيق هذه المبادئ ، ولقد نعمت الشعوب التي اظلمها حكم الإسلام بتحرير انسانيتها وكرامتها وبحرية عقائدها وبتثقيف عقولها بانتشار العلم في ربوعها فذلك ما أصبح بدهيا لدى المنصفين من كتاب الغرب والشرق ، وليس هاهنا مجال البحث والتدليل على هذه الحقائق .

المال في المجتمع الاسلامي

لئن كان ثمر الدولة الاسلامية ما ذكرناه من تمسكها اول الامر بنظام الاسلام في التكافل الاجتماعي ، وتهاونها فيه آخر الامر ، فقد كان شأن المجتمع الاسلامي اقوى اثرا واشد تمسكا واطول عهدا واقل مدى في ضعف الاستمسك بذلك النظام .

لقد بدأ المجتمع الاسلامي في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كما وصفه القرآن بقوله :

للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ، والذين تبؤوا الدار والايمان من قبلهم (هم الانصار) يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (فقر) ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون (١) .

مجتمع كان فيه الفقر والغنى ، ولكنه لم تكن فيه المهانة والاستغلال ، وكان فيه الحاكم والمحكوم ، ولكنه لم يكن فيه الظالم ولا المظلوم ، قد وصفه الله بقوله : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار (أي الأعداء) رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا » (٢)

مجتمع كان فيه اغنياء لا يخافون حقد الفقراء ، لانهم لدوا اليهم حق الله في أموالهم ، وفقراء لا يخشون شح الاغنياء ، لانهم ما يربحوا في فيض غامر من برهم وسخائهم ، ولكن كانوا يتنافسون فيما بينهم ويتسابقون الى فعل الخير والحث عليه .

جاء الفقراء مرة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ذهب أهل الدثور (الاغنياء) بالاجور يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم ، قال : أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به ؟ أن لكم بكل تسبيحة صدقة وبكل تكبيرة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهى عن المنكر صدقة الف (٣) .

مظاهرة للفقراء من اقرب ما رواه التاريخ .. لم يحتشدوا فيها للاحتجاج على قسوة الاغنياء وظلمهم .. فذلك مالم يقع في ذلك المجتمع قط : ولم يحتشدوا فيها للمطالبة بحق مأخوذ وكرامة مسلوبة ، فذلك مالم يقع لهم قط .. ولكنما احتشدوا ليعربوا عن الامهم في تخلفهم عن الاغنياء في ميادين الخير والاحسان فكيف يفعلون ؟ انهم يريدون أن يكونوا مثلهم يفعلون الخير وقد ظنوا أن سبيله هو المال فحسب ، وهم

لا يملكون ما ينفقون ! وكان جواب الرسول اروع ما يمكن ان يوجه اليه أمثال هؤلاء ليكونوا بنائين في المجتمع غير هدامين ، ايجابيين لا سلبيين عاقلين لا عاطلين .. ان سبيل الخير ليست وفقا لى وجود المال .. بل ان لها سبلا كثيرة يجدها كل انسان ولو غير غنى ، فلا يحرم منها مواطن ، ولا يحال دونها فقير .. انه كف اللسان عن الثرثرة بذكر الله وتنسيبها ! والقيام بالاصلاح الاجتماعى عن طريق الموعظة الحسنة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر واماطة الاذى من طريق الناس ، واعانة من يحتاج الى العون وفى الاصلاح بين الشخصيين والتقريب بين المتباعدين ، وفى امداد المجتمع بالنسل الصالح .. هكذا يكون التوجيه الاجتماعى البناء فى ظل اشتراكية الاسلام من نبي الحكمة ورسول الخير والسلام .

واليك نماذج من اخلاق هذا المجتمع :

اخلاقهم فى المعاملات :

قال الشاطبى : « وتجدهم فى الاجارات والتجارات لا يأخذون الا باقل ما يكون من الربح أو الآخر ، حتى يكون ما حاول احدهم من ذلك كسبا لغيره لا له ، ولذلك بالقوا فى التصحية فوق ما يلزمهم لانهم كانوا وكلاء للناس لا لانفسهم : بل كانوا يرون المحابة لانفسهم — وان جازت — كالفش لغيرهم (١) »

اخلاقهم فى الجوار :

أخرج البخارى فى « الادب المفرد » عن محمد بن زياد قال : ادركت السلف وانهم ليكونون فى المنزل الواحد باهاليهم ، فربما نزل على بعضهم الضيف وقد أحدهم على النار ، فيأخذ صاحب الضيف لضيفه فيفتقد القدر صاحبها ، فيقول من أخذ القدر ؟ فيقول صاحب الضيف ، نحن أخذناها لضيفنا ، فيقول صاحب القدر : بارك الله لكم فيها (أو كلمة نحوها) قال ابن زياد ، والخبز اذا خبزوا مثل ذلك (٢) .

موقفهم من أموالهم :

قال الشاطبى ، لقد كانوا فى الاكتساب ماهرين ودائبين ومتابعين لانواع الاكتسابات لكن لا ليدخروا لانفسهم ، ولا ليحتجوا (أى يحتجوا) أموالهم ، بل لينفقوها فى سبيل الخيرات ومكارم الاخلاق وما لدب الشرع اليه وما حسنته العوائد الشرعية ، فكانوا فى أموالهم المولة على بيوت الاموال (٣) .

استجابتهم لدعوة الخمر :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعظ النبساء بعد صلاة العيد

(٢) الادب المفرد ص ٢٢٩

(١) المواقات : ١٩٥/٢

(٣) المواقات ١٨٨/٢

يحثهن على الصدقة و «بلال» يبسط ثوبه فيلقين اليه بما يتحطين به من خواتيم وغيرها (١) .

وثقة بعضهم بحديث بعض :

قال البراء بن عازب (الصحابي) : ليس كلنا كان يسمع حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، كانت لنا ضيعة واشغال ، ولكن الناس لم يكذبوا يكذبون فيحدث الشاهد الغائب .

وحدث أنس بن مالك مرة بحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال له رجل اسمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال نعم ، أو حدثني من لم يكذب ، والله ما كنا تكذب ولا كنا ندرى ما الكذب (٢) .

عنائتهم باليتامى والمساكين والجيران :

عن الحسن (البصري) قال : لقد عهدت المسلمين وإن الرجل منهم يصيح فيقول : يا أهليه يا أهليه ! يتيمكم ، يا أهليه ! مسكينكم ، مسكينكم ، يا أهليه ! يا أهليه ! جاركم ، جاركم (٣) .

اشترائيتهم في الأموال :

عن ابن عمر : لقد أتى علينا زمان - أو قال : حين - وما أحد أحق بدناره ودرهمه من أخيه المسلم (٤) .

إيثارهم وحرصهم على إخوانهم :

عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن الانصار قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : أقسم بيننا وبين إخواننا (المهاجرين) ما نملكه من النخل ، قال : «لا» فقالوا لإخوانهم المهاجرين : تكفوننا المؤونة ونشركم في الثمرة ، قالوا : سمعنا وأطعنا (٥) .

وأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يقطع لبغض الانصار أراضى موانا في البحرين ، فأبوا إلا أن يكتب لإخوانهم من المهاجرين بمثلها . فلم يفعل النبي ذلك . إذ لم تكن هناك أراض موات غير التي أراد إقطاعها للانصار (٦) .

عتقهم للرقيق إذا أساءوا إليه :

عن هلال بن يساف قال : كنا نبيع البز في دار سويد بن مقرن . فخرجت جارية فقالت لرجل شيئا . ومالنا إلا خادم . فلفظناها ذلك الرجل . فقال له سويد بن مقرن : لالظمت وجهها ؟ لقد رأيتني سابع

(٢) رواه البيهقي

(١) رواه البخاري ومسلم

(٤) و (٥) رواه البخاري في الادب المفرد

(٣) رواه البخاري في الادب المفرد

(٦) رواه البخاري في صحيحه

سبعة ومالنا الاخام . فلطمها بعضنا . فامرہ النبی صلی اللہ علیہ وسلم ان یمتقھا (۱) .

کثرة الفقهاء وکثرة المنفقين

قال ابن مسعود رضى الله عنه :

انکم فی زمان کثیر فقهاؤہ ، قليل خطبؤہ ، قليل سؤالہ ، کثیر معطوہ ، العمل فیہ قائد الهوی ، سیاتی علی الناس زمان . الخ (۲)

جمعهم بين الجسد والنسابة

قال بکر بن عبد الله : کان اصحاب النبی صلی اللہ علیہ وسلم يتبادحون بالبیطیخ (یترامون به) فاذا كانت الحقائق کانوا هم الرجال (۳)

خوفهم من النفاق في المقيضة

قال ابن ابی ملیکة : ادركت ثلاثين من اصحاب النبی صلی اللہ علیہ وسلم کلهم يخاف النفاق علی نفسه ما منهم احد یقول انه علی ایمان جبریل ومیکائیل (۴)

صبرهم على الجوع خوفا من النار

کان الرجل اذا خرج من بيته یقول له لعل بيته : اتق الله ولا تکسب حراما ، فاننا نصبر علی الجوع ولا نصیر علی جهنم (۵)
حرصهم على اخلاق الخدم

عن ابی العالیة : کنا تؤمر ان نختم (الصنادیق) علی الخنادم ، ونکیل ونعدها کراهية ان یتعودوا سوء خلق ، أو یظن أحدنا سوءا (۶)

اذا تزاوروا تجملوا

جاء عبد الکريم ابو العیة الی ابی العالیة وعلیه ثياب صوف ، فقال له ابو العالیة : انما هذه ثياب الرهبان ، ان کان المسلمون اذا تزاوروا تجملوا (۷)

یتعلمون العلم والعمل معا

قال عبد الله بن حبيب بن ربيعة السلمی (التابعی) : حدثنا الذين کانوا یقرؤننا (من الصحابة) انهم کانوا اذا تعلموا من النبی صلی اللہ علیہ وسلم عشر آیات لم یجاوزوها حتی یتعلموا ما فیها من «العلم» و«العمل» . قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم (۸) .

(۲) البخاری فی الادب المفرد

(۳) أخرجه البخاری تملقا فی کتاب الايمان

(۴) رواه البخاری فی الادب المفرد

(۵) الاکلیل لشیخ الاسلام ابن قیمية

(۱) البخاری فی الادب المفرد

(۲) البخاری فی الادب المفرد

(۳) النزالی فی الاحیاء

(۴) رواه البخاری فی الادب المفرد

أمانتهم وعفتهم في الحروب والفتن

لما انتهت معركة القادسية بهزيمة الفرس واستيلاء الجيش الاسلامي على مقر كسرى وخزائنه ، جمعت الفنائم ، وقسم الفء ، وتسلم سعد قائد الجيش الاخماس ، فلما رأى ما اجتمع امامه من ذلك هتف قائلاً : « والله أن الجيش لدو أمانة ، ولولا ما سبق لاهل بدر ، لقلت : انهم على فضل اهل بدر »

وقال جابر بن عبد الله : والله الذي لا اله الا هو ما اطلعنا على احد من اهل القادسية انه يريد الدنيا مع الآخرة ، لقد اتهمنا ثلاثة ، فما راينا كآمانتهم وزهدهم وهم : طليحة ، وعمر بن معد يكرب وقيس بن مكشوح .

واقبل رجل من الجيش الى صاحب الاقباض ، ودفع اليه امانات من حقوق بيت المال كان يحملها ، فسأله سائل :

هل اخذت منها شيئاً ؟ . .

فاجابه : والله لولا الله ما اتيتكم بها ! .

فقال له : من أنت ؟

فقال لهم : والله لا اخبركم فتحمدونى ، ولكنى الحمد لله واوضح بشوابه !

فسألوا عنه ، فاذا هو عامر بن عبد القيس .

وبعث سعد بالاخماس الى امير المؤمنين عمر - وفيها سيف كسرى ومنطقته وزبرجده - فلما رآه عمر قال : « ان قوما ادوا هذا لدوو أمانة (١) »

الاثار الباقية في المجتمع من اشتراكية الاسلام

لقد كانت مثل هذه الاخلاق قوية في العصور الاولى لقيام الاسلام
ثم اخلت في الضعف شيئا فشيئا ومع ذلك فهناك اشياء لم تنقطع في
المجتمع الاسلامي حتى اليوم ، نذكر منها :

اولا - اخراج الزكاة :

استمر المسلم المتدين في مختلف العصور ولا يزال حتى اليوم يخرج
زكاة ماله طائعا مختارا ، مع أن الدولة اعملت مطالبة الناس بها ،
ومع أن هذا المسلم المتدين يدفع للدولة انواعا متعددة من الضرائب ،
واستمرار اخراج الزكاة من الاغنياء المتدينين على مختلف العصور كان
له أثر كبير في سد حاجات التكافل الاجتماعي وهي ظاهرة لا نجد لها
مثيلا في التاريخ وهي دليل واضح على أثر اشتراكية الاسلام في المجتمع
الاسلامي .

ثانيا انكافل العائلي :

ومن الظواهر البارزة في المجتمع الاسلامي حتى اليوم ، تماسك
الاسرة وسيطره الروح التعاونية على اجوانها ، فالاب ينفق على ابيه
وعلى امه ويحتويهما في بيته ومع زوجته وأولاده ويقوم بخدمتهما
حتى يتوفاهما الله ، وهو يعتبر ذلك فرضا دينيا ، وعملا يتقرب به الى
الله . وكذلك ترى الاخ الكبير ينفق على اخوته الصغار ويربهم ويعلمهم
ويزوجهم وهو يرى أن ذلك حق لهم واجب لأمنة فيه ولا تفضل، وكذلك
يقوم بواجبه نحو اقربائه ، يقيهم شر العوز ، ويدفع عنهم حاجة السؤال
عند المعز او الفقر ، وهي ظاهرة تلفت النظر بجانب ما يراه الانسان
في المجتمع الغربي من تفكك الاسرة ، وتخلي الاب عن رعاية ابنه الكبير او
بنته الكبيرة ، وتخلي الاولاد عن اباؤهم عند المعز والشيخوخة ، وقل أن
ترى في الغرب رجلا يسكن مع ابيه او امه بجانب زوجته وأولاده الصغار
لقد تحققنا من ذلك بأنفسنا خلال رحلاتنا المتعددة الى أوروبا ، ولا شك
أن تميز المجتمع الاسلامي بهذه الظاهرة أثر من اثار اشتراكية الاسلام
وخاصة قانون النفقات على الاقرباء .

ثالثا - الوصايا :

لقد ظلت مستمرة منذ عصر النبوة حتى اليوم ، وقل أن يموت
مسلم دون أن يكون قد الوصى في حدود ثلث ماله للفقراء وجهات الخير
والاقرباء الذين لا يرثونه .

رابعا - التثون :

وهذا مما لا يزال بين جماهير المسلمين يفتح بابا للاتفاق على الفقراء
والمساكين وقل أن تجد مسلما يمرض أو يحج أو يكون له غائب أو تكون
له حاجة الا وينثر الله أن يشفاه الله من مرضه أو سلمه في حجه أو أقدم
له غائبه أو قضى له حاجته ليتصدقن بكذا وكذا .

خامساً - الأوقاف :

وهذا ما استمر وجوده منذ العصور الإسلامية الأولى حتى اليوم، والأوقاف نوعان : وقف ذرى (أهلى) ويقصد به حفظ ذرية الواقف من الفقر والفاقة ، ومن شروط صحته أن ينتهى الى جهة خير لا ينقطع عند انقراض الذرية . ووقف خيرى وهو ما كان لجهة من جهات الخير وقد فاضت المدن والقرى فى المجتمع بمثل هذه الأوقاف لجهات من الخير كبيرة النفع على المجتمع ، محققة لغايات التكافل الاجتماعى وغيره مما يكاد يكون طريقا ونادرا فى التاريخ .

ولست أستطيع أن أستقصى القول عن هذه الأوقاف فى مثل هذا الوقت ، ولكنى اكتفى بسرد أهم الأوقاف التى قامت فى المجتمع الإسلامى ولا يزال كثير منها باقيا حتى الآن ، وهى أوقاف للانفاق على

- ١ - المساجد .
- ٢ - المدارس .
- ٣ - المكتبات العامة .
- ٤ - المستشفيات .
- ٥ - الفنادق للمسافرين .
- ٦ - التكايا .
- ٧ - السقايات .
- ٨ - الآبار فى القنوات .
- ٩ - الرباطات للمجاهدين .
- ١٠ - السلاح والخيول للجهاد
- ١١ - تجهيز المقاتلين فى الجهاد بالمال وغيره .
- ١٢ - اصلاح الجسور والطرق العامة .
- ١٣ - المقابر .
- ١٤ - اللقطاء .
- ١٥ - الإيتام .
- ١٦ - المقعدين .
- ١٧ - المميان .
- ١٨ - العجزة .
- ١٩ - المساجين .
- ٢٠ - القرض الحسن للتجار وغيرهم

٢١ - البذار (مجلد) للفلاحين .

٢٢ - أدوات الزراعة .

٢٣ - دواب الزراعة .

٢٤ - أشجار مثمرة يأكل منها المارة .

٢٥ - أوقاف خيرية لجهات أخرى مثل قراءة القرآن ، ونفقات العلماء (ومنها وقف خاص في مصر لمداية شيخ الأزهر) ! ونعرا للاضاحي في عيد الاضحى ، واطعام الفقراء في رمضان وغير ذلك .

وهناك أوقاف غاية في الطرافة والدلالة على سمو العاطفة الانسانية في المجتمع الاسلامي ، ولا نعلم لها مثيلا في بلد من بلاد العالم ، من ذلك

٢٦ - أوقاف للطب النفسي :

في مدينة طرابلس (لبنان) وقف لتوظيف شخصين يمران كل يوم على المرضى في المستشفيات يكون عملهما هو أن يتحدثا بصوت خافت يسمعه المريض بحيث يوهماه أنهما يتكلمان بصوت عادي فيما بينهما ، يقول أحدهما للآخر : اني أرى اليوم فلانا أحسن منه بالامس ، فيقول الآخر : واني أرى اشراق وجهه وعينييه احسن مما كان يوم أمس وهكذا بحيث يسمع المريض ذلك فيعتقد صحة مايقولان . . وقد حدثني عن الوقف يطلب المعونة لذلك ، فيعطيه ماهو بحاجة اليه .

وكان في مستشفى السلطان قلاوون بالقاهرة فرقة خاصة للتمثيل الشعبي المضحك يقوم الممثلون بذلك أمام المرضى الذين تشتد آلامهم ويرتفع صراخهم ، فينسبون الالم ويأخذون في الضحك ، وكان فيه فرقة من المنشدين ذوى الاصوات الجميلة يرتلون الاناشيد في منتصف الليل من فوق مثانة المسجد بالمستشفى ليخففوا من آلام المرضى الذين يؤرقهم الالم ويمنعهم من النوم ، كما كانت فرقة للموسيقى ، وقصاص يقصون القصص الشعبي على المرضى .

٢٧ - أوقاف للتزويج :

أي تزويج الشباب والبنات حين يعجزون اوبعجز أبائهم عن القيام بنفقات العرس والمهر والجهاز فيتقدم الفتى أو الفتاة الى قيم الوقف يطلب المعونة لذلك ، فيعطيه ماهو بحاجة اليه .

٢٨ - وقف الزبادي :

وهو خاص لاسعاف الاولاد والخدم الذين يكسرون ما يحملونه من الزبادي في الطريق الى البيت ، يذهب الصبي أو الخادم الى قيم الوقف فيعرض عليه نموذجا مما كان يحمل فيعطيه عوضا عنها ويعود الى اهله وقد اتقى شر العقوبة ، وقد تحدث ابن بطوطة في رحلته عن هذا الوقف في دمشق .

٢٩ - نقطة الطيب :

كان مما اوقفه صلاح الدين الايوبي وقف لامداد الأمهات بالحبليب

اللازم لاطفالهن ، جعل في احد ابواب قلعة دمشق ميازبا يسيل منه الحليب وميازبا آخر يسيل منه الماء المذاب بالسكر ، تأتي الامهات يومين في كل اسبوع فيأخذن لاطفالهن ما يحتاجون اليه من الحليب والسكر .

٣٠ - وقف للحيوان :

وكان خاصا بابواء الحيوانات الاليفة في بيت واطعامها كوقف القطط الذي كان الى عهد قريب موجودا في (سوقساروجة) بدمشق وكانت فيه مايزيد على اربعمائة قطه من الفارشات السمان !!

٣١ - تطبيب الحيوان :

وكانت لعلاج الحيوانات المريضة وتطبيبها ومن ذلك وقف (المرج الاخضر) الذي يقوم عليه الملعب البلدى بدمشق حاليا ، فقد كان وقفا للخيل والحيوانات العاجزة ترضى فيه حتى تلاقى حتفها !.

وبعد فهذه فكرة موجزة عن الاوقاف واهدافها كما كانت - ولايزال كثير منها - في المجتمع الاسلامي وهي بلا ريب اثر من اثار اشتراكية الاسلام وتاثير المجتمع الاسلامي بها (١) .

(١) افضينا القول عن الاوقاف والمؤسسات الاجتماعية في كتابنا « من روائع حضارتنا » وقد طبع مؤخرا

في الفرد المسلم

ان الامثلة التي تقدمها الاشتراكية الاسلامية كدليل على نجاحها في ايجاد المسلم الاشتراكي الذي ربه روح محمد صلى الله عليه وسلم على مختلف العصور ، امثلة كثيرة تستحيل أن يحصيها العد ، لانها - كما قلت - لم تنقطع خلال أربعة عشر قرنا ، ولا تزال متصلة نرى من افرادها جيلا بعد جيل من يمثلون فضائلها وأخلاقها بسلوكهم ومعاملتهم افضل تمثيل .

ونجزيء بذكر بعض الامثلة منها ما عرفها الناس ، ومنها ما لم يعرفها الا القليل ، وعندنا من امثالها مئات ومئات في عصر واحد من حيث نجزم أن التاريخ لا يعرف لامة من الامم غيرنا عشرات امثالهم على مختلف العصور .

١ - كان لابي بكر رضى الله عنه شيء من المال حين أسلم يبلغ خمسين الف درهم أنفقه كله في سبيل الدعوة وشراء القرآن الذين أسلموا من اسيادهم المشركين بمكة ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان من آمن الناس على في صحبته أبو بكر ولو كنت متخذًا أحد خيلا لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخوة الاسلام (١) » .

وفي غرة (مؤنة) كانت الحاجة ماسة الى تجهيز الجيش لطول المسافة وبعد الطريق فحث الرسول المقتدرين من الصحابة على الاتفاق فجاء أبو بكر بكل ما يملك فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « ماذا أبقيت لاهلك يا أبا بكر ؟ » فأجاب أبقيت لهم الله ورسوله .

ولما ولي الخلافة ولم يفرض له ماينفق منه على أهله ، ذهب الى السوق ليتاجر كما يتاجر بقية الناس ، ففرضوا له العطاء ليتفرغ لشئون الدولة ، ولما توفي لم يترك مالا ولا متاعا ولا درهما ولا ديناراً .

٢ - وفي غزوة « تبوك » تقدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه بنصف ماله لتجهيز جيش العسرة ، ولما ولي عمر الخلافة لم يفرض في بيت المال لأولاده الا كما يفرض لاي ولد من أولاد المسلمين ، وقد فضل عائشة في العطاء على بناته ، وكان من زهده وعفته عن الاموال معافتح الله له من الدنيا مضرب الامثال .

وهو الذي قال له على رضى الله عنه لما اتى على عفة الجيش الاسلامي في معارك القادسية : « ياأمر المؤمنين ! عففت فعتت رعيتك » ولما توفي رضى الله عنه لم يوجد في بيته درهم ولا دينار وهو الذي ورث عرش كسرى وملك قيصر !

وأخبره في هذا الشأن مستفيضة لانجد من المناسب ذكرها هنا لشهرتها (٢) .

(١) رويته معظم كتب السنة

(٢) من خير ما كتب في اخبار عمر مستقصاه مرتبة هو كتب اخبار عمر ، للمسلم الاديب

الاسلام على العنقاوي جزء الله خيرا

٣ - وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم من الاغنياء الاسخياء ، بلغت نفقاته على جيش العسرة في غزوة تبوك حدا جعل الرسول يرفع يديه الى السماء ويقول : « اللهم ارض عن عثمان فاني عنه راض » .

وفي عام المجاعة في عهد عمر رضى الله عنه ، جاءته قافلة - للتجارة - من الشام تبلغ ألف بعير محملة بالسمن والقمح وما يحتاجه الناس فهرع اليه التجار ليشتروها منه ، فجرى بينه وبينهم الحوار التالي :

هو - بكم تشترون مني هذه القافلة ؟

هم - نعطيك عليها ربعا بالمائة خمسة .

هو - اتى وجدت من يعطينى أكثر .

هم - نعطيك عليه ربعا بالمائة خمسة .

هو - وجدت من يعطينى أكثر .

هم - ها نحن تجار المدينة ، والقافلة قد وصلت الآن ، فمن هم الذين أعطوك هذا الربح ؟

هو - انى وجدت الله يعطينى ربعا على الواحد عشرة الى سعمائة ضعف الى ماشاء الله ، أشهدكم انى بعثها لله وانها صدقة على المسلمين . وتبرع بها للشعب بما فيها . من اجمال وطعام وكسوة .

{ - وكان على رضى الله عنه قليل ذات اليد ، ومع ذلك فقد كان كثير الانفاق مما يستطيع ، ويقال انه هو الذى نزل فيه قوله تعالى « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا (١) » .

وذلك انه كان قد نذر هو وفاطمة وجارية لهم ان شفى الله ولديه الحسن والحسين ليصومن الله ، فشفاهما الله ولم يكن عندهم ما يفترون عليه ، فاستقرض على من بعض الناس ثلاثة أصوع من الشعير ليأكل منها هو وأولاده فطحنت فاطمة في اليوم الاول صاعا وخبزته وقربته الى على وأولادها ليأكلوا فإذا بمسكين يسأل ، فاعطوه ما خبزوه في ذلك اليوم ولم يأكلوا منه شيئا ، ولم يكن عندهم غيره الا الماء ، فباتوا جيعا . وحدث في اليوم الثاني مثله اذ جاء بسألهم يتيم فاعطوه ما خبزوه من الصاع الثاني ، وباتوا جيعا ، وجاء في اليوم الثالث أسير يسأل فاعطوه وباتوا جيعا فنزلت فيهم تلك الآية (٢) .

ه - وكانت عائشة رضى الله عنها كثيرة الصدقات .

تصدقة بتمرة بمائة ألف درهم وليس عليها الا غوب خلق ، وكانت صائمة ، فقالت لها خادمتها : لو أبقيت شيئا لتفطرى عليه ! فأجابتها : لو ذكرتنى لعلت .. تصدقت بمائة ألف وهى جائعة ، فنسيت نفسها وذكرت الناس !

(١) سورة الانسان : ٨

(٢) انظر تفسير مجمع البيان للطبري : ٤٠٤/١٠٠

، وتصدقّت مرة برغيف ليس عندها غيره وهي صائمة، فذكرتها خادمتها بذلك ، فقالت : ادفعي الرغيف وان يضيعنا الله ! فاهدى إليها في المساء شاة وطعام فقالت لخادمتها : كلي من هذا خير من قرصك (١) .

٦ - وكان عبد الرحمن بن عوف من التجار الميمونين القنوعين الذين بارك الله لهم في تجارتهم ، وكان كثير الصدقات ، تصدق بماله كله أكثر من مرة ، حتى أنه كان يكتب قائمة بتوزيع ما عنده من ثياب ومتاع على اخوانه المحتاجين قبل أن ينام ، فينفذ ذلك في صباح اليوم الثاني ، ثم ينزل الى السوق وليس له الا توبه الذي يلبسه .

٧ - ولما نزل قوله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » (٢)

جاء ابو طلحة الانصاري الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله : ان احب اموالي الى بئرحاء - وهي بئر طيبة الماء - وانها صدقة لله ارجو برها وذخرها عند الله تعالى فضعها يارسول الله حيث اراك الله ! فقال صلى الله عليه وسلم : بخ بخ . ذلك مال رابع ، ذلك مال رابع (٣) .. الخ .

٨ - ولما نزل قوله تعالى : « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له اضعافاً كثيرة » (٤) ؟ قال صحابي يسمى ابا الدحداح : او يستقرض الله من عبده يارسول الله ؟ قال : نعم : فقال : امدد يارسول الله بذلك ، فاشهده أنه تصدق ببستانه الذي لا يملك غيره . وكان فيه ستمائة نخلة مثمرة ، ثم عاد الى زوجه ، وكانت تقيم هي وأولادها في هذا البستان ، فناداها يالأم الدحداح ! قالت : ليك ! قال اخرجي فقد اقترضته ربى عزوجل ، فقالت : ربح بيعك يا ابا الدحداح !

٩ - وكانت أم شريك صحابية أنصارية عظيمة القدر عظيمة النفقة في سبيل الله ، ينزل عليها الضيفان .

١٠ - وكانت رفيدة الاسلامية صحابية جليلة ، لها خيمة تداوى بها الجرحى اثناء الحرب ، وتأتى بالمعزة والبائسين الى خيمتها في أيام السلم فتخدمهم وتخفف آتاعهم .

١١ - وكانت زينب أم المؤمنين رضى الله عنها كثيرة الصدقات ، خرج عطاؤها يوماً ، وكان مائة ألف فتصدقّت به كله رضى الله عنها .

١٢ - وقد قص الله علينا في القرآن قصة الذين بكوا لانهم لم يجدوا ما يفتقون في جيش المعصرة ولم يجد الرسول ما يحملهم عليه (٥) .

١٣ - وكان كعب بن مالك أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن اللحاق بفزوة تبوك لغير علم ، فأمر الله أن يعتزلوا المسلمين فلا يخالطوهم ، ثم تاب عليهم بعد ذلك واستبشر كعب لذلك بشارة كبرى حتى قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ان من توبتي ان اتخلع من مالي صدقة الى

(٢) آل عمران ٩٢

(٣) رواه مالك في الموطأ

(٤) رواه البخاري ومسلم والامام احمد (٤) البقرة : ٢٤٥

(٥) سورة التوبة : ٩٢

الله ورسوله ! فقال له الرسول : « أمسك عليك بعض مالك فهو لك خير » .

فقال للرسول ، انى أمسك سهمى (ارضى) التى بخير واتصدق بما عدا ذلك ، فتصدق به كله(١) .

١٤ - كان البراء بن معرور من الانصار ، اول من اوصى بثلث ماله فى الاسلام ، اوصى به للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان قد توفى قبل أن يدخل النبي المدينة بشهر فقبل النبي عليه السلام وصيته ثم رد الثلث على ورثته(٢) .

١٥ - وقد جعل خالد بن الوليد رضى الله عنه كل مايملك ، خيولا وسيوفا وادعا ثم وقف ذلك كله على الجهاد فى سبيل الله عز وجل(٣)

١٦ - جاءت امرأة من اليمن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعها ابنتها ، وفى يدها مسكتان غليظتان من ذهب (سوران) فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : تعطين زكاة هذا ؟ فقالت ، لا ، فقال لها الرسول : اسرك أن يسورك الله يسورين من نار ؟ فخلعتهمما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت : هما لله ورسوله(٤) .

١٧ - وعن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه على الصدقة (ليجمع زكاة الحيوان وغيره) فقال له الرسول : يا أبا الوليد ! اتق الله ، لاتأتى يوم القيامة بجمل له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة لها ثغاء (فيما اذا سرق) قال : يا رسول الله ! أن ذلك لكذلك قال : أى والذى نفسى بيده ، قال : فوالذى بعثك بالحق لا أعلم لك على شيء أبدا(٥) .

١٨ - وكان رجل من الصحابة يصلى بستان له ، فأحب بستانه ، فانشغل له بذلك وهو يصلى ، فلما فرغ استغفر الله من أن يشغله بستانه عن الخشوع بين يديه ولم يجد لذلك كفارة الا أن يتصدق به كله لله عز وجل(٦) .

١٩ - وصلى بعض الصحابة أيضا فى بستان له ، فدخل طائر بستانه وهو يصلى فتنبعه ببصره فشغل به عن الخشوع فى صلاته ، فلما انتهى منها ذهب الى عثمان وكان أمير المؤمنين فتصدق بستانه كفارة لذنبه ذلك ، وجعل عثمان قима على البستان ، فباعه عثمان بخمسين ألفا وزعت على الفقراء ، وسمى بستان الخمسين(٧) .

٢٠ - وكان فى الصحابة رجل يقال له (سليط) أقطع الرسول

(١) روى قصة هؤلاء الثلاثة : البخارى ومسلم وغيرهما من كتب السنة

(٢) أخرجه الحاكم (٣) رواه البخارى

(٤) رواه احمد وابو داود وابو عبيد فى الاموال

(٦) رواه الطبرانى واحمد وغيرهما (٧) رواه مالك فى الموطا

(٨) رواه مالك أيضا

ارضا موافا ، فانقطع اليها يصلحها ويزرعها ، فلما رأى ان ذلك يحرمه من سماع كلام الله الذى يتنزل على رسوله ، ومن سماع حديث رسوله وارشاده ، جاء الى الرسول فرد له الارض التى أخذها ، مفضلا العلم والهداية على الارض والمال (١) !

٢١ - وكان محمد بن على بن الرضا بن الكاظم بن موسى بن الصادق جعفر رضى الله عنه يلقب بالجواد لكثرة صدقاته ، كان يبعث الى المدينة فى كل عام بأكثر من ألف ألف درهم (٢) (مليون) .

٢٢ - وكان الامام محمد بن شهاب الزهرى (١٢٤ هـ) بعد الموالد للناس فى الطرقات ويخرج الى الاعراب ليعلمهم ، فاذا خرج فى الصيف وزع عليهم السمن والعسل واذا كان فى الشتاء وزع عليهم الزبد والعسل .

وكانت تركبه الديون لكثرة نفقاته فيقضيها عنه اخوانه احيانا ، وخلفاء بنى أمية احيانا ، وفى احدى زياراته للدمشق قضى عنه هشام ابن عبد الملك مائتى ألف درهم فى حادثة مشهورة ، وفيما هو عائد الى المدينة نزل باحدى آبار المياه فشكى اليه أعرابها ان عندهم ثمانى عشرة امرأة عجوزا ليس لهن من يخدمهن ، فأخذهن جميعا (٣) .

٢٣ - وكان الامام ابو حنيفة من اكثر الناس اتفاقا على شيوخه وتلاميذه ، وكانت له تجارة يتكسب منها ، واتفق ان شريكه باع صفقة من ثياب الخز وفيها ثوب معيب دون ان يطلع المشتري على عيب الثوب ، وكان المشتري تاجرا غريبا .. فلم يعثر له على اثر ، فتصدق ابو حنيفة بقيمة الصفقة كلها تورعا ان يدخل عليه قيمة الثوب المعيب .

٢٤ - وكان الامام أليث بن سعد ذا غلة سنوية تزيد على سبعين ألف دينار يتصدق بها كلها ، حتى قالوا الله لم تجب عليه زكاة قط .

واشترى مرة دارا بيعت بالزاد ، فلما أرسل المفاتيح ليتسلمها وجد رسوله فى الدار ابنا وأطفالا صفارا .. سأوه بالله ان يترك لهم الدار ، فلما بلغ ذلك أليث أرسل اليهم ان الدار لكم ومعها ما يصلحكم كل يوم .

٢٥ - وكان عبد الله بن المبارك الإمام المحدث كثير الصدقات ، تبلغ صدقاته فى السنة أكثر من مائة ألف .

٢٦ - وخرج عبد الله بن المبارك مرة الى الحج مع أصحابه ، فاجتاز بعض البلاد فمات طائر معهم ، فأمر بالقائه على مزبلة هناك ، وسار أصحابه أمامه وتخلف هو وراءهم فلما مر بالمزبلة اذا جارية قد خرجت من دار قريبة منها فأخذت ذاك الطائر الميت ثم لفته ثم أسرعت به الى الدار ، فجاء فسألها عن امرها وأخذها الميتة ، فأخبرته انها وأخاها فقيران لا يعلم بهما أحد ولا يجدان شيئا .

(١) رواه ابو عبيد بن (الاموال : ٢٧٢)

(٢) الواسطى بطونيات الصلوى : ١٠٥/٤

(٣) من كتاب مخطوط المؤلف عن الامام الزهرى

قامر عبد الله برد الاحمال ، وقال لو كيله : كم معك من النفقة ؟

وقال : الف دينار ، فقال له عبدالله : عد منها عشرين دينارا تكفيك الى مرو واعطها الباقي ، فهذا افضل من حجتنا في هذا العام ، ثم رجع فلم يحج (١) .

٢٧ - كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يطعم الناس بالمدينة وهو يطوف عليهم بيده عصا ، فمر برجل يأكل بشماله ، فقال : يا عبدالله كل بيمينك ، قال : يا عبد الله انها مشغولة - ثلاث مرات - قال : وما مشغولها؟ قال : أصيبت يوم مؤته ، قال : فجلس عمر عنده يبكي ، فجعل يقول له من يوضئك ؟ من يفسل رأسك وثيابك ؟ من يصنع كذا وكذا ؟ فدعاه بخادم وأمر له براحلة وطعام وما يصلحه وما ينقى له ، حتى رفع أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أصواتهم يدعون لعمر رضى الله عنه مما راوا من رفته بالرجل واهتمامه بأمر المسلمين (٢) .

٢٨ - قال ابن عمر : خرج عمر يوما الى حائط له (بستان) فرجع وقد صلى الناس العصر ، فقال : أنا لله وأنا اليه راجعون ! فأتني صلاة العصر في الجمعة ، أشهدكم أن حائطي على المساكين صدقة .

قال ابن عمر : ليكون كفارة لما صنع عمر رضى الله عنه (٣) .

٢٩ - ومرو قوم بأبي ذر الغفاري رضى الله عنه حين كان بالريذة فراوا عليه حلة وعلى غلامه مثلها تماما ، فلما جلسوا للطعام نادى أبو ذر غلامه فاجلسه معه للطعام فعجبوا من معاملة أبي ذر لغلامه فقال : اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (أخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليلبسه مما يلبس وليطعمه مما يطعم الخ) (٤) .

٣٠ - وكان الامام البخارى صاحب الصحيح يتكسب من التجارة فأتاه من رساومه على شراء صفقة من الثياب بثلاثة عشر ألفا فلم يقبل فلما ذهب المشتري ندم البخارى على أنه لم يبعه تلك الصفقة بما دفع من المال ونوى أنه ان رجع بامه أياها بذلك المبلغ ، ولكنه عاد إليه في اليوم الثاني ودفع إليه خمسة عشر ألفا ، فابى البخارى أن يقبض أكثر من ثلاثة عشر ألفا ، فعجب المشتري من ذلك ، وقال له بالامس دفعت لك هذا المبلغ فلم تقبل ، وأنا أدفع لك اليوم ما طلبته بالامس ، فما شأنك ؟ فأجابه البخارى : إني بالامس كنت نويت أن أبيعك الصفقة بهذا المبلغ اذا عدت ، وإني أخجل من الله أن أعود عن عزمي قد عزمته عليه .

٣١ - وكان الامام علي بن الحسين (زين العابدين) من أكثر الناس رحمة بالبؤساء لا يعلم أن أحدا من أصدقائه عليه دين إلا أدى دبعه عنه .

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ١٧٨/١٠ (٢) الآثار للامام محمد بن الحسن ص ٦٣٥

(٤) تقدم هذا الحديث وتخريجه

(٣) الكبار للأدهي : ٣١

دخل على محمد بن اسامة بن زيد يعود فوجده يبكي ، فسأله عن مكانه « فقال : على دين خمسة عشر الف دينار » ، فقال : هي علي ! . قال محمد بن اسحاق : « كان ناس بالمدينة يعيشون لا يدرون من اين يعيشون ؟ ومن يعطيهم ؟ فلما مات علي بن الحسين فقدوا ذلك ففرقوا انه هو الذي كان يأتيهم بالليل بما يأتيهم به ، ولما مات وجدوا في ظهره واكتافه اثر حمل الجراب الى بيوت الارامل والمساكين .

وكان يقول : صدقة الليل تطفى غضب الرب ، وتثير القلب والقبير وتكشف عن العبد ظلمة يوم القيامة .

نال منه ابن عمه حسن بن حسن وهو ساكت ، فلما كان الليل ذهب الى منزل ابن عمه وقال له : يا بن العم ! ان كنت صادقا يقفر الله لي ، وان كنت كاذبا يقفر الله لك والسلام عليك . ثم رجع فلقق به ابن عمه فصالحه .

وهو صاحب القصة المشهورة من ان جارية كانت تحمّل الابريق وتسكب منه الماء ليتوضأ ، فوقع الابريق على وجهه وشيخه ، فرمى رأسه اليها لانما ، فقالت الجارية له : « والكاهن الغيظ » فقال : قد كلمت غيظي ! فقالت : « والعافين عن الناس » فقال : عفا الله عنك ! فقالت : « والله يحب المحسنين » فقال : انت حرة لوجه الله تعالى (١) !

٣٢ - وكان عند يونس بن عبيد ثياب مختلفة الاثمان ، ضرب قيمة كل حلة منها اربعمائة ، وضرب قيمة كل منها مائتان ، فذهب الى الصلاة وخلف ابن اخيه في الدكان ، فجاء اعرابي وطلب حلة باربعمائة فعرض عليه من حلل المائتين واستحسنها ورضيها ، فاشتراها ومضى بها وهي على يديه ، فاستقبله في الطريق يونس فعرف انها من بضاعته ، فقال للاعرابي : بكم اشتريت ؟ فقال : باربعمائة ، فقال يونس : لانسأوي اكثر من مائتين فأرجع حتى تردّها ، فقال اعرابي : هذه تساوي في بلدنا خمسمائة وأنا ارضيها ! فقال له يونس : انصرف فان النصع في الدين خير من الدنيا بما فيها ، ثم رده الى الدكان ، ورد عليه مائتي درهم وخاصم ابن اخيه في ذلك وقاطله ، وقال له : اما استحييت ؟ اما تقيت الله ؟ تبيع مثل الثمن وتترك النصع للمسلمين ؟ فقال : والله ما أخذها الا وهو راض بها ، قال يونس : فهلا رضيت له بما ترضاه لنفسك (٢) .

٣٣ - وكان السري السقطي قد اشترى لوزا . البكر منه بستين دينارا وكتب عنده ان يبيعه ثلاثة دنانير . فصار اللوز بتسعين . فأتاه الدلال وطلب اللوز . فقال : خذه . قال الدلال : بكم ؟ فقال : بثلاثة وستين . فقال الدلال وكان من الصالحين : فقد صار اللوز بتسعين . فقال السري : لقد عقدت عقدا لا أحله . لست أبيع الا بثلاثة وستين فقال الدلال : وأنا عقدت عقدا بيني وبين الله ان لا أقش مسلما . لست آخذ منك الا بتسعين ! فلا الدلال اشترى ولا السري باعه (٣) .

(١) نقلنا هذا القول الى .وردناها عن زين العابدين عن كتاب « الامام زيد » للحافظ المحقق الاستاذ محمد ابو زهرة حفظه الله

(٢) احياء علوم الدين : ٧٩/٢ وانظر تهذيب التهذيب لابن حجر ٤٤٢/١

(٣) الاحياء : ٨٠/٢

٣٤ - وكان أحمد بن المنكدر . دكان يبيع فيها شققا بعضها بخمسة وبعضها بعشرة . فباع غلامه في غيبته شقة من الخمسيات بعشرة . فلما عرف لم يزل يطلب ذلك الاعرابي المشتري طول النهار حتى عثر عليه . فقال له : ان اغلام غلط فباعك مايساوى خمسة . بعشرة . فقال : يا هذا قد رضيت . فقال ابن المنكدر : وان رضيت فانا لانرضى لك الا مانرضاه لانفسنا . فاختر احدى ثلاث خصال : اما ان تأخذ شقة من العشريات بدراهمك . واما ان نرد عليك خمسة . واما ان ترد شقتنا وتأخذ دراهمك . فقال الاعرابي : اعطني خمسة . فرد عليه خمسة . وانصرف الاعرابي (١) .

٣٥ - باع الحسن البصري بقة له باربعائة درهم . فلما استوجب المال قال له المشتري : اسمح يا ابا سعيد ! قال : قد اسقطت عنك مائة . فقال له احسن يا ابا سعيد فقال الحسن قد وهبت لك مائة اخرى فقبض من حقه مائتي درهم . فقيل له : يا ابا سعيد ! هذانصف الثمن . فقال : هكذا يكون الاحسان والا فلا (٢) .

٣٦ - كان في صالحى السلف من له دفتران للحساب : احدهما ترجمته مجهولة . فيه اسماء من لا يعرفه من الضعفاء والفقراء . وذلك ان الفقير كان يرى الطعام أو الفاكهة فيشتهيه . فيقول : احتاج الى خمسة ارطال مثلا من هذا وليس معي ثمنه . فيقول له ذلك التاجر : خذ وأقض ثمنه عند الميسرة .

قال الغزالي : ولم يكن يعد مثل ههنا التاجر من خيار الناس . بل يعدون من الخيار من لم يكن يثبت اسمه في الدفتر أصلا ولا يجعله ديناً ، لكن يقول : خذ ماتريد . فان يسر لك فاقض . والا فانت في حل منه وسعة (٣) .

٣٧ - جاء فتح الموصلى الى منزل أخ له وكان غائبا . فامر اهله فأخرجت صندوقه . ففتحه وأخذ حاجته . فأخبرت الجارية مولاهما بذلك بعد أن حضر . فقال لها : ان صدقت فانت حرة لوجه الله (٤) ، قال ذلك سرورا بما فعل أخوه في ماله وهو في غيبته .

٣٨ - وكان إبراهيم بن أدهم مع رفيق له وكان لرفيقه حمار . فاعطاه إبراهيم - بغير اذنه - لرجل آخر رآه راجلا . فلما جاء رفيقه وعلم بما فعل ابن أدهم سكت ولم يقل شيئا (٥) .

٣٩ - قال ابن عمر رضى الله عنهما : أهدى لرجل من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة . فقال : فلان احوج منى اليه فبعث به اليه . فبعثه ذلك الانسان الى آخر . فلم يزل يبعث به الواحد الى آخر حتى رجع الى الاول بعد أن تداوله سبعة (٦) .

(٢) الاحياء : ٨٠/٢

(٤ ، ٥) الاحياء : ١٧٤/٢

(١) الاحياء : ٨١/٢

(٣) الاحياء : ٨٢/٢

(٦) الاحياء : ١٧٤/٢

٤٠ - ويشبه هذه تلك القصة المشهورة التي جرت للواقدي وصديقه الهاشمي مع صديقيهما الآخر ليلة العيد .

٤١ - استدان مسروق بن الأجدع ديناً ثقيلاً . فبلقه ان على أخيه خيشمة ديناً ، فذهب مسروق فقضى دين خيشمة وهو لا يعلم وذهب خيشمة قضي دين مسروق وهو لا يعلم (١) .

٤٢ - قال الغزالي : وكان في السلف من يفترق عيال أخيه (أي صديقه) وأولاده بعد موته أربعين سنة يقوم بحوائجهم ويتردد كل يوم اليهم ، ويمولهم من ماله ، فكانوا لا يفقدون من أبيهم إلا عينه ، بل كانوا يرون منه ما لم يروا من أبيهم في حياته ، وكان الواحد منهم يتردد الى باب دار أخيه ويسأل ويقول : هل لكم زيت ؟ هل لكم ملح ؟ هل لكم حاجة ؟ وكان يقوم بها من حيث لا يعرفه أخوه (٢) .

٤٣ - قال عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي الحافظ (صاحب علل الحديث) : وقع عندنا القلاء فأنفذ الى أحد أصدقائي حبوباً من أصهبان فبعتها بعشرين ألف درهم ، وسألني أن أشتري له داراً عندنا « فاذأ نزل علينا نزل فيها » فأنفقتها على الفقراء ! فكتب الي : ماذا فعلت ؟ قلت اشتريت لك بها قصراً في الجنة ، فكتب الي : رضيت ان ضمنت ذلك لي فكتب علي نفسك صكاً . ففعلت (٣) .

٤٤ - ولا ننسى ان نذكر في هذا الميدان « صلاح الدين الأيوبي » ذلك البطل الخالد الذي أتبع له من المجد والظفر والغنائم ما لم يتح لاحد من بعده ومن قبله في عصور قلائل : ومع ذلك فقد أقام من المؤسسات العلمية والخيرية من المساجد والمدارس والمستشفيات والرباطات ما فاقت به بلاد الشام ومصر ، دون أن يسجل واحداً منها باسمه وإنما كان يسجلها باسماء قواده وزوجاته وأمرائه ، ولما مات لم يترك ديناراً ولا درهما ولا ضياعاً ولا قصوراً ولا ألباناً ولا رياضاً .

٤٥ - وآخرنا الكلام هنا عمداً عن الخليفة الزاهد العادل عمر بن عبد العزيز لان سيرته عجب من العجب « فقد جاء في عهد كانت النفوس فيه قد بدأت بالانحراف من سنن الخلفاء الراشدين ، ولعبت الأهواء ببيت المال وقست القلوب ، وفششت الرفاهية ، واتسعت الفتوحات ، وعظمت الدولة .

ثم هو نفسه عاش في بيت الامارة ، وأسرة الملك ، وجو المعطسور والرياحين ، ولذة الترف والتعظيم ، فلما ولي الخلافة ، ودانت له الدنيا كان أزهد الناس فيها وفي جاهها وأموالها ، وكان أبعد الناس عن عظمة الملك وأبهة الخلافة ، وكان أحرص الناس على العدل والامن والسلام . وابتاع كل ذي حق حقه ، وانصاف المظلوم من الظالم .

ذلكم هو عمر بن عبد العزيز ..

(٢) الإحياء : ١٧٥/٢

(١) الإحياء : ١٧٤/٢

(٣) علل الحديث : ٧/٨

واليكم بعض أخباره ومآثره (١) . .

١ - كان أول ما فعله عمر بعد أن بويع بالخلافة أن قدمت إليه المراكب ، فقال : ما هذه ؟ فقالوا : مراكب لم تترك قط يركبها الخليفة أول ما يلي : فتركها وخرج يلتبس بقلته ، وقال : يامزاحم ! ضم هذه إلى بيت مال المسلمين . ونصبت له سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط ، كانت تضرب للخلفاء أول ما يلون : فقال : ما هذه ؟ فقالوا سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط يجلس فيها الخليفة أول ما يلي ، قال : يامزاحم ضم هذه إلى أموال المسلمين ، ثم ركب بقلته وانصرف إلى القرش والوطاء الذي لم يجلس عليه أحد قط يفرش للخلفاء أول ما يلون ، فجعل يدفع ذلك برجله حتى يقضى إلى الحصير ، ثم قال يامزاحم : ضم هذا إلى أموال المسلمين .

٢ - ولما أصبح قال له أهل سليمان « الخليفة السابق » . هذا لك وهذا لنا : قال : وما هذا ؟ قالوا : هذا مما لبس الخليفة من الثياب ومس من الطيب فهو لولده ، وما لم يمس ولم يلبس فهو للخليفة بعده هو لك ، فقال عمر ما هذا لي ولا سيما لسليمان ولا لكم ولكن يامزاحم ضم هذا كله إلى بيت مال المسلمين .

فتشاور الوزراء والأمراء فيما بينهم في خطة هذا الخليفة الجديد ففقه عندهم الأمل في أن يكون عنده ميل إلى الجوارى : فعرض عليه كأمثال الدمي ، فلما نظر اليهن جعل يسألهن واحدة واحدة : من أنت ؟ ولن كنت ؟ ومن بعث بك ؟ فتخبره الجارية بذلك ، فيأمر بردهن إلى أهليهن ، ويحملن إلى بلادهن حتى فرغ منهن .

فلما رأوا ذلك منه أسوا منه وعلموا أنه سيحمل الناس على الحق .

٣ - ولما دخل المجلس لأول مرة قام الناس بين يديه فقال : يا معشر الناس ! ان تقوموا قم وان تقعدوا تقعد ، فانما يقوم الناس لرب العالمين .

ان الله فرض فرائض وسنن سننا من أخذ بها لحق . ومن تركها محق ومن أراد أن يصحبنا فليصحبنا بخمس : يوصل إلينا حاجة من لا تصل إلينا حاجته ، ويدلنا من العدل إلى ما لا نهتدي إليه . ويكون عوناً لنا على الحق . ويؤدي الامانة إلينا وإلى الناس ، ولا يفتتب عندنا أحدا . ومن لم يفعل فهو في حرج من صحبتنا والدخول علينا .

٤ - ومن خطبة له :

الا واني قد استعملت عليكم رجالا لا أقول : هم خياركم ولكنهم خير ممن هو شر منهم ، الا فمن ظلمه امامه فلا اذن له على (أى يدخل بشير استئذان) ومن لا فلا أرينه الا : واني منعت نفسي وأهل بيتي هذا الما

(١) كل ما يأتي من النقول أنشدته من كتاب « سيرة عمر بن عبد العزيز » لابن الحكم المعروف ٢٩٤ هـ

فان ضننت به عنكم انى اذا لضعين وما احد منكم تبلفنى حاجته الا حرصت ان اسد من حاجته ما قدرت عليه . وما احد لا يسعه ما عندى الا وددت انه بدى بى . وبلحمتى اذين يلونى حتى يستوى عيشنا وعيشكم .

٥ - وكل عنده قوم ذات ليلة فى بعض ما يحتاج اليه ، ففنى بهراجه ، فقام اليه قاصلحه ، فقيل له : يا امير المؤمنين ! الا نكفيك ؟ قال : وما ضرني ؟ فمت وانا عمر بن عبد العزيز ورجعت وانا عمر بن عبد العزيز .

٦ - واتى ذات يوم بعنبرة من الفىء ، فاخذها بيده فمسحها ثم امر بها فرفعت حتى تباع ، ثم انه امر بده على انه فوجد ربحها فدعا بوضوء فتوضأ قال كاتبة ليث بن ابي رقية وكان حاضرا . فقلت لامير المؤمنين ما هذا الذى اصبحت منها حتى تتوضأ ؟ فقال عمر : عجبا لك ياليت ! وهل ينتفع منها الا بالذى وجدت ؟ اتوكل ؟ او تشرب ؟ .

٧ - وكان له غلام ياتيه بقمقم من ماء مسخن يتوضأ منه ، فقال للغلام يوما : اذهب بهذا القمقم الى مطبخ المسلمين فتجعله عنده حتى يسخن ثم تاتي به ؟ قال : نعم اصلحك الله ! قال عمر للغلام ، افسدته علينا ، فامر مزاحما ان يغلى ذلك القمقم ثم ينظر ما يدخل فيه من الحطب ثم يحسب تلك الايام التى كان يغليه فيها فيجعلها حطبا في المطبخ

٨ - وكان له غلام ويرذون بقل عليه . فسأل الغلام عن حاله ، فقال : الناس كلهم بخير الا انا وانت وهذا البرذون ، قال : اذهب فانت حنر ! ..

٩ - ابطأ عمر يوما عن الجمعة قليلا ، فعوتب فى ذلك ، فقال : انما انتظرت قميصى غسلته ان يجف ..

١٠ - ودخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز فى مرضه وعليه قميص وسخ ، فقال لفاطمة زوجة عمر وهى اخت مسلمة : الا تفسلون قميصه ؟ قالت : والله ما له غيره وان غسلناه بقى لا قميص له .

١١ - وكان عمر يصلى العشاء ثم يدخل على بناته فيسلم عليهن ، فدخل عليهن ذات ليلة فلما احسنه وضمن ايديهن على افواههن ثم تبادرن الباب ، فقال للحاضنة : ماشانهن ؟ فقالت : انه لم يكن عندهن شيء يتعشينه الا عدس وبصل ، فكرهن ان تشم ذلك من افواههن ، فبكى عمر ، ثم قال لهن : يابناتى : ماينفعكن ان تغشنين الالوان ويمر بايكن الى النار ، فبيكن حتى علت اصواتهن !

١٢ - ونزل عمر بدير فمرت به اطباق ، فقال : ما هذه ؟ قيل له : صاحب الدير يطعم الناس ، فجاء بطبق فيه فستق ولوز ، فقال عمر : تلك الاطباق مثل هذا ؟ قال : لا ، قل خذ طبقك !

١٣ - وكان عمر يعطى كل مقعدين ، وكل زمين غلاما يخدمهما ، وكل امسى غلاما يقوده .

١٤ - وقال مرة لزوجه فاطمة بنت عبد الملك : قد علمت حال هذا الجوهر (لحليها) وما صنع فيه أبوك ، ومن أين أصابه ، فهل لك أن أجعله في تابوت . ثم أطبع عليه وأجعله في أقصى بيت مال المسلمين وأنفق مادونه . فان خلصت إليه أنفقته ، وإن مت قبل ذلك فلعمري ليردنه إليك ، قالت له : أفعل ما شئت . ففعل ذلك ومات رحمه الله والحلي والجواهر في بيت المال . فلما ولي أخوها يزيد بن عبد الملك الخلافة رد إليها تلك الجواهر فامتنعت عن أخذها . وقالت : ما كنت لأتركها ثم آخذها ..

١٥ - وأراد عمر الحج فسأل خازنه مزاحما : انى قد اشتريت الحج ، فهل عندك شيء ، قال : بضعة عشر دينارا ، قال : وما تقع منى ؟ ولم يحج بعد ذلك ..

١٦ - وكتب الى زيد بن عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب - وكان واليه على الكوفة - : « كتبت تذكر أنه قد اجتمعت عندك أموال بعد أعطية الجند » فأعطى منهم من كان عليه دين في غير فساد . أو تزوج فلم يقدر على نقد »

١٧ - وكتب الى اهل المواسم :

« أما بعد فايما رجل قدم علينا في رد مظلمة أو أمر يصلح الله به خاصا أو عاما من أمر الدين فله مائة دينار الى ثلاثمائة دينار . بقدر ما يرى من الحسبة وبعد الشقة . رحم الله أمرا لم يتكاده بعد سفر . لعل الله يحى به حقا ، أو يميت به باطلا أو يفتح به من وراءه خيرا .

١٨ - وقال ابن عياش : خرج عمر ذات يوم من منزله على بفسلة له شهباء . فلقية رجل فشكا اليه عدى بن اوطاة في أرض له . فأمر عمر برد أرضه اليه . ثم قال له : كم أنفقت في مجيئك الى ؟ فقال : أمير المؤمنين ! تسألني عن نفقتي وأنت قد رددت على أرضي وهي خير من مائة ألف ؟ فقال عمر : إنما رددت عليك حقك . فأخبرني كم أنفقت ؟ قال : ما أدري : قال احززه ! قال ستين درهما فأمر له بها من بيت المال . فلما ولي صاح به عمر . فرجع فقال له : خذ هذه خمسة دراهم من مالى فكل بها لحما حتى ترجع الى أهلك ان شاء الله .

١٩ - وسأل عنبسة بن سبيد عمر بن عبد العزيز شيئا من المال . فقال له عمر :

يا عنبسة ! ان كان مالك الذى أصبح عندك حلالا فهو كافيك ، وان كان حراما فلا تزيدن اليه حراما الا تخبرني ! محتاج أنت ؟ قال : لا ، أفعليك دين ؟ قال : لا ، قال : أفأتمرنى أن أعمد الى مال الله فأعطيك من غير حاجة بك اليه ، وأدع فقراء المسلمين ؟ لو كنت غارما أدبت غرمك ، أو محتاجا أمرت لك بما يصلحك ، ففعلك بمالك الذى عندك فكله واتق الله ، وانظر أولا من أين جمعته ، وانظر لنففسك قبل أن ينظر اليك من ليس لك عنده هودة ولا مراجعة .

٢٠ - وكان من حرصه على مال الامه ان وفد عليه يريد من بعض الافاق فانهى الى باب عمر ليلا فقرع ابوابه ، فخرج اليه البواب فقال : اعلم امير المؤمنين ان بالباب رسولا من فلان عامله ، فدخل فاعلم عمر - وقد كان اراد ان ينام - فقفد وقال : ائذن له ، فدخل الرسول ، فلما عمر بشمعة غليظة فاجت نارا ، واجلس الرسول وجلس عمر ، فسأله عن حال أهل البلد ومن بها من المسلمين وأهل العهد ، وكيف سير العامل ، وكيف الأسعار ، وكيف أبناء المهاجرين والانصار ، وابناء السبيل والفقراء ، وهل أعطى كل ذي حق حقه - وهل له شاك ، وهل ظلم احدا فأنابه بجميع ما علم الرسول من امر تلك المملكة كل ذلك يسأله فيحفي السؤال حتى اذا فرغ من مسأله قال له : يا امير المؤمنين كيف حالك في نفسك وبدنك ؟ وكيف عيالك وجميع أهل خزانك ومن تعنى بشانه ؟ قال : فنفع عمر الشمعة فأطفأها بنفخته وقال : يا غلام ! على بسراج فلما بقتيلة لا تكاد تضيء . فقال : سل عما احببت ، فمجب البريد للشمعة وأطفأه اياها . وسأله عن سبب ذلك فقال عمر : يا عبد الله ! ان الشمعة التي رأيتنى أطفأتها انما هي من مال الله ومال المسلمين ، وكنت أسالك عن حوائجهم وأمرهم فكانت تلك الشمعة توقد بين يدي فيما يصلحهم وهي لهم ، فلما صرت لسانى وأمر عيالى ونفسي أطفأت نار المسلمين ..

٢١ - وهذا الخليفة العظيم لم يكن تزيد نفقته في اليوم على درهمين واليك ما فعل في أمواله بعد ان بويع بالخلافة :

قال الحكم بن عمر الحمصي : أول شيء بدأ به عمر بن عبد العزيز انه لم يترك ظلامه مزرعة ، ولا طلبه لاحد قبله الا ردها اليه ، وباع ما كان له من المزارع من عبد أو أمة أو بهيمة أو آفة ، وباع ما كان من متاع أو مركب أو لباس أو عطر وأشياء بلغ ثمنها ثلاثة وعشرين ألف دينار . ثم جعلها في سبيل الله . وقال غير الحكم : بلغ ثمنها ثلاثة وأربعين ألف دينار ، وابتاع جارية تخبز له وتطحن وتفسل ثيابه بمائة ووصيفا في حاجته ورسالته . وكان يزن له في كل يوم درهمين للحمة وخبره ويقله أن غلا السعر أو رخص .

٢٢ - وهذا الخليفة الذي عاش هذا العيش الجاف الخشن . وكان شعبه يعيش في بحبوحة ورخاء واليك النقول التاريخية التي يروها ابن عبد الحكيم .

قال يحيى بن سعيد : كنا نطوف بالصدقات على الناس في عهد عمر بن عبد العزيز فلا نجد من يقبلها قد أغنى الناس عمر بن عبد العزيز وخرج يوما في ولايته الخلافة بالشام فركب هو ومزاحم وكان كثيرا ما يركب فيلقى الركبان يتجسس الاخبار عن القرى ، فلقيهما راكب من أهل المدينة وسألاه عن الناس وماوراءه ، فقال لهما : اني تركت المدينة والظالم بها مقهور . والمظلوم بها منصور والغنى موفور والعائل مجبور فسر عمر بذلك وقال : والله لان تكون البلدان كلها على هذه الصفة أحب الى مما طلعت عليه الشمس .

وقال رجل من ولد زيد بن الخطاب : مامات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء فما يبرح حتى يرجع بماله . يتذكر من يضعه فيهم فما يجده ، فيرجع بماله قد أغنى الله الناس على يد عمر بن عبد العزيز ..

٢٣ - ولما حضرت عمر الوفاة قال له مسلمة بن عبد الملك اوصي يا امير المؤمنين ! قال : مالي من مال فاوصي فيه . قال مسلمة : هذه مائة ألف دينار فاوصي فيها بما أحببت . قال عمر : أو خير من ذلك يا مسلمة ؟ أن تردها من حيث أخذتها . فقال له مسلمة : جزاك الله منا خيرا يا امير المؤمنين .. والله لقد آلت لنا قلوبا قاسية . وجعلت لنا ذكرا في الصالحين .

٢٤ - ثم حاول مسلمة بن عبد الملك محاولة أخيرة لانتقاذ اولاد عمر - وهم اولاد أخته - من الفقر والضياع من بعده فقال له :

يا امير المؤمنين ! انك قد فقرت أفواه ولدك من هذا المال ، فلو اوصيت بهم الى والي نظرائي من قومك فكفوك مؤونتهم . فلما سمع ذلك قال : اجلسوني فاجلسوه ، فقال :

قد سمعت مقاتلك يا مسلمة ! أما قولاك اني قد افقرت أفواه ولدي من هذا المال ، فوالله ما ظلمتهم حقا هو لهم ، ولم أكن لاعطيهم شيئا لغيرهم .

وأما ما قلت في الوصية ، فان وصيتي (الله الذي نزل الكتاب وهو بتولي الصالحين) وأنا ولد عمر بين أحد رجلين : إما رجل صالح فسيغنيه الله ، وإما غير ذلك فلن أكون أول من أماته بالمال على معصية الله .

ثم قال : ادع لي بني !

فأتوه ، فلما رأهم تفرقت عيناه وقال :

بنفسى فتية تركتهم حالة لاشيء لهم !
ثم بكى وقال :

يا بني : اني قد تركت لكم خيرا كثيرا ، لأمعرون بأحد من المسلمين واهل ذمتهم الا راوا لكم حقا .

يا بني ! اني قد مثلت بين الامرين : إما أن تستفتوا ادخل النار ، أو تفتقروا الى آخر يوم الابد وادخل الجنة ! ، فأرى أن تفتقروا الى ذلك أحب الى ! قوموا عصمكم الله ! قوموا رزقكم الله .

٢٥ - ونرى أن نختم هذا الحديث عن عمر وأخلاقه وسيره بوصف زوجته فاطمة بنت عبد الملك له ، فقد أرسل اليها عطاء يسألها عن احوالها فقالت :

ان عمر رحمة الله عليه كان قد فرغ للمسلمين نفسه ، ولامورهم
ذهنه ، فكان اذا امسى ولم يفرغ من حوائج يومه . وصل يومه بليته
الى ان امسى مساء وقد فرغ من حوائج يومه . فدعا بسراجہ الذي
كان من ماله . فصلى ركعتين . ثم اقمى واضعا راسه على يديه، تسيل
دموعه على خديه يشق الشهقة بكاد ينصدع قلبه لها . وتخرج لها
نفسه ، حتى برق الصبح فاصبح صائما فدنوت منه فقلت : يا امير
المؤمنين ! اليس كان منك ماكان ؟ قال : اجل ! فعليك بشأنك وخلصني
وشاني ! قالت : فقلت اني ارجو ان اتعظ ، قال : اذن اخبرك ..

اني نظرت فوجدتني قد وليت امر هذه الامة اسودها واحمرها ، ثم
ذكرت الفقير الجائع ، والغريب الضائع ، والاسير المقيهور ، وذا المال
القليل ، والعيال الكثير ، واشباه ذلك في اقاصي البلاد واطراف الارض
فعلمت ان الله سألني عنهم ، وان رسول الله صلى الله عليه وسلم
حججني فيهم فحفت ان لايقبل الله مني معلرة فيهم ولا تقوم لي مع
رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة فرحمت الله يا فاطمة نفسي رحمة
دمعت لها عيني ، ووجع لها قلبي .. فانا كلما ازددت لها ذكرا ازددت
منها خوفا ، فاتمظي ان شئت او ذري ..

وبعد فهذا هو عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد العظيم رحمه
الله ، ولو لم يكن في تاريخ الاسلام الا تاريخه : لكفى ذلك دليلا على
نجاح الاسلام في اشتراكيته ، ومحمد رسول الله في قيادته ، اذ اتجبت
للدنيا مثل هذا الرجل الذي لايعرف التاريخ له مثيلا في قديم الحكم
وحديثه ، فكيف اذا كان للاسلام من امثاله الحاكمين المخلصين
عشرات ، ومن امثاله الاغنياء الزاهدين ، مئات ومئات . ومن امثاله
المسلمين الورعين الوف تعد بالعشرات ؟

الخاتمة

يقول الله تعالى :

« ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء . تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، ثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء (١) »

وقال المسيح عليه السلام : سيكون بعدى أنبياء كلبة . قيل له فما علامتهم ؟ فقال : من ثملهم تعرفونهم .

إذا كانت محاولة البرهان على أفضل النظم عن طريق المقارنة والمجدال لا تثمر ثمرتها المرجوة حين يزين الهوى على القلوب . وتطفي العصبية على العقول . فإن المقارنة بين نتائج النظم وثمارها كما يحكيها التاريخ الصادق . سبيل لامجال لدحضه والرد عليه ولو لج المبطون في عنادهم . ولقد رأينا ثمار اشتراكية الإسلام كما هي في رواية التاريخ وواقعه الحي في دولتها وفي مجتمعها وفي أفرادها . فكيف كانت هذه الثمار ؟

ان اشتراكية الاسلام :

أخلت من العرب وثنية متردية . وقبائل متفرقة وحياة خشنة ، وعزلة موحشة . وأعطتهم توحيدا متساميا . وعيشا رخيا . وامة واحدة . وقيادة لوكب النور في تاريخ الانسانية كلها .

أخلت من العالم عقائده المنسوخة ، وملوكه الظلمة . وحيوانيته المتفائلة . وأعطته عقيدة محررة . وقيادة ساهرة . وإنسانية بالنبل والخير ذاكرة .

أخلت من العرب « أبا جهل » وأعطتهم « أبا بكر » !

أخلت من الفرس « مزدك » وأعطتهم « أبا حنيفة » !

أخلت من العراق « رستم » وأعطتها « سعدا » !

أخلت من مصر « القوقس » وأعطتها « عمرا » !

أخلت من الشام « هرقل » وأعطتها « معاوية » !

أخلت من قيادة العالم « امبراطوريتين » أفنتا الشمس منسوب : امبراطورية الفرس في الشرق . وامبراطورية الروم في الغرب ..

وأعطت العالم « حضارتين » بعثتا الشرق الوثني والقبور الممجة من رقدتيهما : حضارة « بغداد » في المشرق و « قرطبة » في المغرب

هذه هي بعض ثمار اشتراكية الاسلام فما هي ثمار اشتراكية الشيوعيين ؟

أنا لا أتحدث عن ثمارها في بلادها وفي بلاد غير بلادنا ، ولكنني
أتحدث عن ثمارها في بلادنا فماذا كانت ؟

لقد كانت ثمارها في الوطن العربي : الحادوا وإفسادوا وخيانتة
واتهماء أنها تريد أن تأخذ من الأمة العربية وحدتها لتمطيها الفرقة
والانقسام

تريد أن تأخذ من الأمة العربية إجماع شعبها لتمطيها قوميات
متنافرة متقاتلة .

تريد أن تأخذ من الأمة العربية دينها وعرويتها لتمطيها الحادها
وشعويتها

تريد أن تأخذ من الأمة العربية سيادتها واستقلالها لتلحقها
انحلالها وإباحتها

تريد أن تأخذ من الأمة العربية سيادتها واستقلالها لتلحقها
بركب الاستعمار البطن بفضاء رقيق من الإنسانية الزائفة !

أنها تريد أن تأخذ من العالم الإسلامي وحدته الروحية وفضائله
الأصيلة ، لتمطيها قوميات يخاصم بعضها بعضا ، وذهتل تقتل
فضائله قتلا .

أنها تريد أن تأخذ من العرب والمسلمين مصادر القوة لتمطيهم
عوامل الضعف ، وتريد أن تأخذ منهم أمضى أسلحتهم في كفاح المستعمرين
لتلقيهم بغير سلاح في وجه الطامعين .

أنها تريد أن تأخذ من الشرق العربي والإسلامي وبنته المتوفرة
لإنشاء حضارة جديدة تحتاجها الإنسانية العذبة ، وتمطيها هذه الحضارة
التردية الشقية التي تلفظ أنفاسها .

أنها تريد أن تحوله عن قيادة « محمد » عليه صلوات الله ، إلى
قيادة « إبليس » عليه لعنات الله !

شتان ما بين أخذ الاشتراكية الإسلامية وعطائها ، وما بين أخذ
الاشتراكية الشيوعية وعطائها .

فهل تستويان في ميزان النقد ؟ وهل تستويان في منطق العقل ؟
وهل تستويان في نتائجهما الحضارية الإنسانية ؟
« أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا ؟ لا يستويان (١) »

« قل هل يستوي الأعمى والبصير ؟ لم هل تستوي الظلمات
والنور (٢) »

« قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث (٣) »

(٢) البقرة : ١٧

(١) السجدة : ١٨

(٣) البقرة : ١٧٠

«وما يستوى الأحياء ولا الأموات ، ان الله يسمع من يشاء» (١) واخيراً :

« مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع هل ينويان مثلاً » (٢) ؟

« لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون » (٣) .

أيها السادة :

ان الاشتراكية الاسلامية :

الهيئة في قدسيتها !

محمدية في قيادتها !

عربية في خصائصها !

انسانية في نزعتها !

عالمية في رسالتها !

ومن أجل ذلك كانت اشتراكية الاسلام لنا نحن العرب والمسلمين رسالة كريمة وسبيل مستقيماً ، وكانت اشتراكية الشيوعيين لنا موتاً ذليلاً وفساداً هداماً .

ومن أجل ذلك كانت الدعوة الى اشتراكية الاسلام خدمة انسانية باهرة ، وضرورة قومية قاهرة ، وكانت الدعوة الى اشتراكية الشيوعيين خيانة وطنية سافرة ، وجريمة شعوية قاهرة ..

والحمد لله رب العالمين

الملاحق

١ - جواب الاسلام على الشيوعية

« لهذا الخطاب قصة ... »

٢٢ - فقد انعقد المؤتمر الاسلامي المسيحي العالمي في بجمدون بين ٢٢ - ٢٧ نيسان « ابريل » ١٩٥٤ بتنظيم جمعية اصدقاء الشرق الاوسط الامريكية ، ودعيت اليه وفود من جميع انحاء البلاد العربية وباكستان وايران وتركيا وغيرها من بلاد العالم الاسلامي ، وتردد الوفد السوري اول الامر في قبول الدعوة ولكننا رأينا اخيرا أن نقبلها لنحيط ما قد يكون وراء المؤتمر من مناورات سياسية !

وهذا هو الذي وقع .. فقد كان جو المؤتمر وانتقاء كثير من اعضاء الوفود دليلا على أن القصد من الدعوة اليه انشاء كتلة عالمية باسم الاسلام والمسيحية ضد الاتحاد السوفيتي ، وقد كان يومئذ ينتصر لقضايانا في المحافل الدولية ، ولم يكن من مصلحة العرب الانقياد وراء المناورات الغربية لانشاء هذه الكتلة السياسية .

وكان من ابحاث المؤتمر المقررة مقدما « جواب الاسلام على الشيوعية » و « جواب المسيحية على الشيوعية » اما جواب المسيحية فقد اعطى لاستاذ من اساتذة الجامعات الامريكية ، اما جواب الاسلام فقد اعطى لمن لم يحسن مناقشة الموضوع الا بالسبب والشتم

واساتذ الوفود العربية من هذا التصرف ، فالموضوع جدير بالمناقشة العلمية من جهة ، وبالحدر الشديد من أن تستفله الدعاية الغربية لمصلحتها السياسية من جهة أخرى ، وقد أجمع رأي الوفود على أن تلزم القائمين على المؤتمر بفسح المجال لالقاء كلمة عن الشيوعية في نظر الاسلام غير الكلمة التي أقيمت ، وشرفتني الوفود بكتابة هذه الكلمة والقائها ، فكتبت وترجمت الى الانجليزية في بضع ساعات ، ثم أقيمت وكان لها وقع القنبلة ، واستطعنا أن نحول المؤتمر الى مظاهرة للانتصار لفلسطين واللاجئين واتقضايا العربية والاسلامية .

وقد نشر هذا الخطاب في الصحف والمجلات السورية يومئذ كما نشر كاملا في نشرة المؤتمر ضمن الابحاث والكلمات التي أقيمت فيه .



من الواجب ان نبحث هذا الموضوع بكثير من الصراحة والحكمة والصدق فنحن هنا رواد حق في مؤتمر علمي محصور بين لفيف من اقطاب الفكر في العالمين الاسلامي والمسيحي ، لا في اجتماع عام يقصد به الاستيلاء على عاطفة الجماهير بالخطابة المؤثرة والبيان البليغ .

اننا نحن المسلمين ننظر الى الشيوعية من جهات ثلاث :

١ - ننظر اليها كمقيدة ذات فلسفة مادية تشكر الروح وما وراء المادة ، وهي في ذلك تختلف عن الاسلام في أسسها وجوهرها ، لا يمكن أن تلتقي معه في عقيدته وفلسفته ، وجواب الاسلام على

الشيوعية في هذه الناحية ، هو جوابه على كل فكرة خاطئة . ان يفندها بالحق والمنطق وان يبين ما بينها من انحراف عن الحق وخطأ في الواقع .

٢ - وننظر الى الشيوعية كنظام اقتصادي اشتراكي ، يسعى الى تحقيق العدالة بين طبقات الشعب . ويمنع تحكم المال ووسائل الانتاج في العمل والعمال على اسلوب خاص ، وجواب الاسلام على الشيوعية من هذه الناحية : انه وضع نظاما اشتراكيا واضح المعالم مستقلا عن الشيوعية وعن الاشتراكية وعن الرأسمالية ، وهو في ذلك لا يحارب الشيوعية في كل اتجاهاتها الاشتراكية ولا يقرها في كل اتجاهاتها ايضا كما انه لا يحارب النظم الاقتصادية الاخرى ولا يقرها في كل تفاصيلها واتجاهاتها .

واعتقد ان الاديان كلها سبقت الشيوعية الى الرحمة بالبائسين ، والانصاف للناس ، والرغبة في تحقيق العدالة بين الجماهير وكل ديانة ووسائلها الخاصة بها في تحقيق هذه الاهداف ، فلا ضير على كل من الاسلام والمسيحية ان تتفق معه الشيوعية في اهدافه الانسانية النبيلة ، وان كانت تسلك لذلك طرقا لا تقرها المسيحية ، او لا يقرها نظام الاسلام الاشتراكي .

٣ - وننظر الى الشيوعية كدولة ذات قوة واهداف سياسية ، وجواب الاسلام على الشيوعية من هذه الزاوية هو جوابه على كل قوة مسلحة تجاوزه ، فان سالت عقيدة المسلمين وكرامتهم واحترمت ارادتهم وسلطانهم على ديارهم سالها الاسلام ولو كانت مخالفة له في العقيدة والنظام ، لان الاسلام لا يفرض الحرب على كل من خالقه . وانما يضع هذا المبدأ الخالد العادل « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبرؤهم وتقسطوا اليهم (١) » وان هي حاربت المسلمين في عقيدتهم وكرامتهم وديارهم أعلن عليها الحرب وأمر المسلمين باعداد كل وسائل القوة لرد العدوان . وشعاره في ذلك هو المبدأ الذي لا يزال شرمة الامم حتى اليوم . « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم (٢) » .

واذا كان جواب الاسلام على الشيوعية المعتدية هو الحرب ، كان ذلك جوابه ايضا على الديمقراطية المعتدية وعلى الصهيونية المعتدية ، وعلى كل قوة تعتدي على أرضه وحقه . بل تعتدي على الامن والنظام العام ولو كانت من ابناءه « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما ، فان بقت احدهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله » (٣) .

وقد يقال : ان الشيوعية تبني الثورة والحرب كوسيلة من وسائل انتشارها . وقد يكون هذا صحيحا وواقعا ، ولكنني اتساءل :

ليس هنالك بجانب الشيوعية أنظمة ودول تعتمد على القوة وتشرع الحروب ؟ ألم تعتمد الديمقراطية في بلاد الشرق العربي والإسلامي على القوة والبطش لتحقيق حكمها وسيطرتها ؟ ألم تسلك الصهيونية كل وسائل الحرب والتدمير والتقتيل للوصول إلى أهدافها ؟ وإذا كان من حق الديمقراطية الغربي أن يزعم بأنه يسعى للسلم ، وأن ينسكركم على الشيوعي أعداده للحرب ، فإن من حق رجال الدين وقادة الفكر أمثالكم في هذا المؤتمر أن ينكروا كل وسائل البغي والعدوان ، وأن لا يخصصوا بنقمتهم فريقا دون فريق ، فذلك شأن السياسيين الذين لا يرون أنفسهم ملزمين بالتقيد بمبادئ العدالة والحق والأخلاق دائما أبدا .

وقد يقال : أن الشيوعية بفلسفتها المادية تحمل مبادئ التدمير لكل القوى الأخلاقية والروحية في العالم ، وقد يكون هذا صحيحا أيضا وواقعا ، ولكن من حقنا أن نتساءل هنا : ألم تنحرف الديمقراطية في عصرنا الحاضر عن القيم الروحية والأخلاقية للشرائع والديانات ؟ ألم تشيع الديمقراطية السياسية لتحقيق مطامعها وأهدافها بشره مادي بجانب روح الأنبياء ومبادئ الكتب المقدسة وشرائع الله ؟

ليست الصهيونية في مطامعها السياسية حركة مادية تجانب كل القيم الروحية والأخلاقية حتى في الشريعة اليهودية ذاتها ؟ فلماذا يقتصر مؤتمركم على بحث الشيوعية المادية ولا يتناول الديمقراطية المادية والصهيونية المادية ؟ ولماذا يطلب منا نحن سكان هذا الشرق من عرب ومسلمين وشرقيين أن نحارب الشيوعية وحدها ، بحجة أنها مادية تحارب القيم الدينية والأخلاقية بينما نجد العالم الغربي المسيحي تسيطر على سياسته روح مادية لا تأبه إلا بمصالحها وسيادتها ، حتى أنها تبنت الصهيونية المادية وخلقتها وزرعتها في بلادنا زرعاً بقوة الحديد والنار ، وبإفراء الذهب والدولار ؟

امن الممكن أن نطلب من جماهيرنا التي تكتوى بنار الصهيونية ، وتعاني فظائع الظلم والإرهاب الاستعماري في بلادها ، أن تصدق بأن الغرب المسيحي مخلص في محاربته الشيوعية لماديتها وخطرها على الأديان والأخلاق ، بينما هي تشاهد كيف تزدرى الدولة الغريبة كل مبادئ الحق والعدالة في علاقاتها معها ، وتحضن الحركة الصهيونية الباغية المادية كولد مدلل ينزل أبوابه عند كل رغباته ومطالبه ؟

أيها السادة :

لست أبعد عن الحديث حين انتقل من الكلام عن الشيوعية إلى الصهيونية ، ذلك لأن الصهيونية تعتمد على الشيوعية وتنشرها كما تعتمد على الديمقراطية وتدافع عنها ، لأن الصهيونية لا دين لها إلا تحقيق مطامعها ، وأنكم لتعلمون أن الصهيونية كانت دعاية الحركات الشيوعية في أوروبا وأمريكا . وأن الجاسوسية التي أقضت مضاجع أمريكا وإنكلترا وغيرهما من دول الغرب ، إنما يديرها وسهر عليها صهيونيون كبار ، استطاع التحقيق أن يكشف القناع من وجوه كثيرين منهم فأسلمهم إلى يد العدالة . ولا يزال القناع قائما على وجوه كثيرين

من كبار الصهيونيين المواطنين في أمريكا وأوروبا ، وسيعلم الشعب الأمريكي والشعوب الأوروبية ولو بعد حين ، أن هؤلاء الصهيونيين الكبار هم يكوون ، لاخونه ومجرمين كباراً في حق أمريكا وأوروبا على السواء ، وهذه العناصر الصهيونية القوية هي التي توجه سياسة الدول الغربية وتسيطر سلطاتها وتفوزها على كثير من الرؤساء والزعماء والنواب ودور الصحافة وبيوت التجارة في بلاد أوروبا وأمريكا . وهي التي تتصلل بأمثالها في الشرق العربي والإسلامي عندنا وتبني الشيوعية لا إيماناً منها بالشيوعية ، ولكن استنداراً لعطف الشيوعية الدولية وتأييدها كما فعلت في إقامة دولة إسرائيل .

من أجل ذلك كان الحديث عندنا في الشرق العربي والإسلامي عن الخطر الشيوعي مقترناً بالحديث عن الخطر الصهيوني .

انكم ايها الأمريكيون والانجليز والفرنسيون والكنديون والابيطاليون وغيرهم من زملائنا أعضاء هذا المؤتمر ، قد لا تشعرون بخطـر الصهيونية ومحاربتها للأديان والشرائع ، وخاصة رجال الدين وأساتذة الجامعات منكم ، ممن لا يمارس السياسة ولا يعاني مشاكلها ، فاسمحوا لنا إذن نحن أبناء هذه البلاد ، أن نكشفكم بحقيقة هذا الخطر ، وعليكم أنتم يا رجال الدين وأساتذة الجامعات وأصدقاء الشرق الأوسط أن تفسحوا صدوركم لآلامنا ما دمتم تريدون منا أن نتعاون معاً على الخير ، وأن نسير في طريق واحد تؤدي بالإنسانية الى السعادة والسلام :

ان الصهيونية حركة مادية لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا بالقيم الروحية والأخلاقية، وهي حركة سياسية تستغل كل الشرائع والقوانين والمثل العليا لتحقيق مطامعها في السيادة والملك .

وهي سياسة « ميكافيلية » تستبيح كل الجرائم الخلقية والاجتماعية من قتل وتخريب وتشريد للوصول الى غايتها .

وهي حركة عدوان تدبر الحروب ، وتثير الهداوة والبغضاء بين الشعوب .

هذه هي الصهيونية في فكرتها وفي واقعها ، فإذا شككتكم في ذلك فتعالوا لتروا الصهيونية بأعينكم خراباً وبتما وتشريداً واجلاءً وافناءً . تعالوا بنا نزر معكم أماكن اللاجئين لتروا آثار الصهيونية في جولتهم الأولى ، وهي الآن تستعد للجولة الثانية والثالثة وغيرها حتى تصل الى ما تريد من أفئتنا كشعب ، والقضاء علينا كأمة ذات دين وحضارة روحية ومثل عليها .

ومن أجل ذلك نعتبر الصهيونية خطراً قائماً في قلب وطننا العربي الإسلامي ، ونعتبر كل من يساندها عدواً للحق والأخلاق والأديان ، ونحن حين نخوض معركتها للدفاع ، إنما نخوضها لا من أجل أنفسنا وقرائنا وقيمنا الأخلاقية فحسب ، بل نخوضها من أجل الإنسانية كلها ، من أجل القيم الروحية والخلقية التي جاءت لها شرائع الله ، وأثن كان الغرب المسيحي وقف حتى الآن موقف المؤيد الممد

الحركة بكل ما يستطيع من نفوذ ومال ، فان العالم الاسلامي ليطالب منكم يا قادة الروح في القرب ان تحبوا شعور اممكم وشعوبكم ، وتوظفوا الضمير العالمي لايقاف هذه الكارثة التي نشأت عن اكبر غزو افئس في تاريخنا القديم والحديث .

ايها السادة :

لقد كان من الحق حين وضع في برنامج ابحاث المؤتمر مسوقف الاسلام والمسيحية من الشيوعية ان توضع في البرنامج ايضا ابحاث حول اسباب انتشارها ووسائل مكافحتها ، وهو امر لا بد منه ليسكون لبحث هذا الموضوع نتائج عملية مثمرة ، ان المريض لا يكتفى من طبيب به ان يقول له بعد معانيته « انك مريض » ولكنه يطلب منه ان يكشف له عن اسباب مرضه وان يصف له علاجه الناجح ، واذا كانت فلسفة الاسلام والمسيحية تجانبان الفلسفة الشيوعية المادية كان لا بد لانتشار الشيوعية في بلاد المسيحية والاسلام من اسباب ادت الى هذه النتائج .

١ - واول هذه الاسباب في رايانا فساد الانظمة الاجتماعية وخاصة في الشرق الاسلامي ، فان انحطاط مستوى المعيشة والعلم والصحة والتفاوت الفاحش بين الطبقات وفساد انظمة الحكم وانحراف الحكام عن سنن العدالة ، ذلك كله من اكبر اسباب التدمير الذي يؤدي بالجماهير الى اعتناق اية فكرة تظن فيها الخلاص من حالتها السيئة ان الجماهير انما تعنى بمصالحها المادية قبل كل شيء ، وهي تفتش عن تحقيق تلك المصالح في دائرة ادبائها ، فاذا رأت فيها العجز والامراض عن تحقيق ذلك تولت عنها وهي تفتش عن مذهب يمهدها بالانقاذ ، وستبعه حتما ولو كان آتيا من الشيطان .

٢ - وثاني هذه الاسباب محاربة الديمقراطية الغربية لشعوب الشرق في امانها التحررية والاستقلالية ، ومحاولة ابقائها تحت نير الجهل والظلام والعبودية ، واشاعة حكم الارهاب والبطش في كثير من الاقطار المتحضرة للتحرر كل ذلك كان له اثره في اتجاه الجماهير الى نظام يمهدها بالتحرر من سلطان الديمقراطيات ويطشها وارهباها .

٣ - وثالث هذه الاسباب - وهو سبب خاص ببلادنا - ذلك التأييد الذي لقيته الصهيونية من الديمقراطية الغربية . حتى اصبح لها كيان مفروض في قلب الوطن العربي رغم ارادة سكانه وشعوبه مما شرد مليوناً من سكان فلسطين ، واشاع المرارة والخيبة في نفوس العرب والمسلمين ، وجعل اوساط اللاجئين امكنة صالحة للشيوعية تزاد يوما بعد يوم ، واعتدوا هؤلاء اللاجئين ايها السادة . اصلدوهم اذا ظفئت احدى الى زوجته فراها اسيرة او مفقودة . وتلفت الى اولاده فراى البرد والمرض والسبل يفترس واحدا بعد آخر . وتلفت الى نفسه فراى خيمته تقتلعها الرياح وتغطيها الثلوج . وراى جسمه تهزه الامراض وراى نفسه عاجزا عن توفير الكرامة لنفسه واطفاله انه ليعاني هذا كله وهو يرى بعينه ارضه تزرع . وداره تسكن . واثائه يتهب . ويرى ان ذلك كله نتيجة سياسة الديمقراطيات الغربية وحكمها وتأييدها للصهيونية المحتلة لارضه وداره . فكيف يستطيعون ان تقتنعه مع ذلك بان يؤمن بان هذه

الديمقراطيات تحمل لواء الحق وتمثل المعسكر الذي يعتقد بالسروح والقيم الأخلاقية والدينية ؟

ان اضطراب الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في أوروبا جعل نصفها يعيل الى الشيوعية او يقع تحت قبضتها . فكيف لا تؤدي سوء اوضاع اللاجئين وهي أسوأ بالآلاف المرات من تلك . الى اعتناق الشيوعية او غيرها وهم في تلك الحالة من البؤس والشفاء ؟ هذه هي الاسباب الرئيسية لانتشار الشيوعية وبذلك يعرف الطريق الواضح لمكافحتها .

انه لا سبيل لكم - لتكونوا عمليين مخلصين في نصره القيم الروحية والأخلاقية - من ان تعلنوا انكاركم لاستمرار الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية السيئة في أوساط الشعوب والجماعات . ومن ان تعلنوا انكاركم لسياسة الديمقراطيات الغربية في موقفها من أماني الشعوب العربية والإسلامية . ومن ان تعلنوا استنكاركم للصهيونية كحركة مادية فيها كل الخطر على السلم وعلى الامن وعلى الاخلاق والدين في هذه المنطقة الحساسة من الشرق الاوسط . كونوا جريئين مخلصين ايها السادة في اعلانكم هذه الحقائق . وسنكون نحن جريئين مخلصين حين نعلن لكم انه من الصعب ان تفكروا في حمل شعوبنا على محاربة الشيوعية وحدها . وهي ترى الدول الديمقراطية الغربية تدخل قضايانا في المحافل الدولية وتساند الدول الاستعمارية منها بكل قوة .

لقد قال المستر تشرشل كلمة ذهبت مثلاً في التاريخ يوم اعترض عليه بعض الناس حين مد يده الى روسيا في الحرب ليتعاون معها على حرب ألمانيا . قال « اننى مستعد لان اتحالف مع الشيطان في سبيل الوصول الى النصر » وتعاون الحلفاء يومئذ مع الشيوعية خلال مدة الحرب العالمية الثانية . وما كان تحالفهم مع الشيوعية الفكرية ولا مع الشيوعية الاقتصادية . وانما كان مع الشيوعية القوية المسلحة لان مصلحتهم التفتت مع مصلحتها في هذا التعاون . ونحن اليوم لانريد ان نفرض سيطرتنا ولا انتصاراتنا على الشعوب . وانما نريد ان نصل الى حقنا . نريد ان نطمئن على جريأتنا وكرامتنا . ان من حقنا ان نميش احراراً في فلسطين وسوريا ولبنان والاردن وفي العسراق وفي مصر وفي مراكش وتونس والجزائر وفي كشمير وفي أندونيسيا وفي ايران وفي كل بلادنا العربية والإسلامية . نريد ان نصل الى هذا الحق الذي تحاربه الديمقراطيات الغربية المسيحية حرباً تنكرها مبادئ الديانات وشرائع الله . فهل نلام اذا نظرنا الى مصلحتنا المشروعة في مهادنة كل من يعترف لنا بهذا الحق ؟ .

سيذهب كل جهد لكم عبثاً ما لم تعلنوا قراركم في هذا المؤتمر جريئاً وواضحاً في هذه القضايا كلها . وعندئذ نتالون احترام العالم وثقته . وتسرون في طريق التعاون المتعمق المفيد بين الاسلام والمسيحية . لرد الاضرار الجسيمة الى الله . ولتدعيم القيم الروحية التي لا يقوم بناء العالم الحر الكريم الا على اساسها .

وإذا لم تفعلوا ذلك فثقوا أننا لن نسير مع الغرب خطوة واحدة في مكافحة أية حركة مادية كقوة سياسية . ما لم يثبت لنا الغرب عمليا حسن نيته وصدق إخلاصه في التخلي عن مناصرة الصهيونية حتى ندرا أخطارها عن بلادنا وعن العالم كله . وفي الاعتراف بحقوقنا كاملة في السيادة والاستقلال . حتى نتعاون معه تعاون الحر مع الحر . والكريم مع الكريم . لا تعاون العبد مع السيد . والدليل مع العزيز . والمظلوم مع الظالم .

هذه كلمة نقولها اليوم رجاء أن تحتل من قلوبكم مكان الاقتناع والتأييد . فتكونوا أنصارا للحق في أوساط شعوبكم تجهرون بكلمته القوية على مسمع من حكوماتكم ورؤسائكم والأفاننا نقولها اليوم للتاريخ . . وسيقول فيها التاريخ كلمته فيما بعد . .

اللهم وفقنا جميعا للخير والحق . والهمنا رشدنا . وحيثنا لانقاذ الإنسانية من طغيان السياسة على شرائع الله وآدابه . .

مع المعارضين . . خطتان مختلفتان

كل فكرة حديثة لا بد أن تثير جوا من النقاش والاخذ والسرَد ، وفكرة « اشتراكية الإسلام » ليست حديثة على الإسلام ، ولا مبتدعة في أحواله . وقد رأى القارىء أن جميع ما ذكرناه من مبادئها وقوانينها مؤيد بأدلة من مصادر التشريع الإسلامى من الكتاب والسنة . مدعم بالفهم والتطبيق العمليين في عصر الرسول وخلفائه الراشدين وعصور الاجتهاد والتفريع الفقهي العظيم .

ولكن الجديد في « اشتراكية الإسلام » هو المناداة بها و احياء الدعوة الى مبادئها وقوانينها بعد أن أهملها المجتمع الإسلامى أمدا طويلا . وأصبحت نسيا منسيا في أذهان جمهور الفقهاء وعلماء الشريعة في العصور الأخيرة .

ولما كانت الشريعة الإسلامية محفوظة في مصادرها ونصوصها . مهما غفل الناس منها ، أو انصرفوا عن تطبيقها في بعض عصور الانحطاط والتخلف . كان من السهل الرجوع إليها لمعالجة المشكلات التى يتعرض لها المجتمع الإسلامى في عصرنا الحاضر .

ان مجتمعنا يعاني من المشكلات ما لم يعانيه مجتمع اسلامى في عصر من العصور الماضية . وذلك لعوامل عدة نذكر من أهمها :

١ - اصطدام مجتمعنا بالحضارة الغربية ونظمها وفلسفتها وأخلاقيها التى تختلف في جوهرها عما ساد المجتمع الإسلامى من نظم وفلسفات وأخلاق وعادات .

٢ - تفكك مجتمعنا السياسى والاقتصادى والاجتماعى تفككا لم يواجهه المجتمع الإسلامى في عصر من عصوره الماضية .

شعور ابناؤه بالحالة المتخلفة التى يعيشون فيها ، ورغبتهم في التخلص من هذا التخلف ، والسير في ركيب الحضارة التى تسود العالم اليوم .

كان من الطبيعى أن يحس المتعلمون وحملة الفكر قينا بوطاة هذا التخلف ، والحاجة الى سلوك الوسائل الجديدة للخلاص منه .

والواقع أنهم قد انقسموا الى ثلاث فئات في معالجة مشاكلهم القائمة :

(١) فالفئة الاولى : فئة لا تؤمن بصلاح ما في يده الامة من تراث وعقيدة لحل هذه المشكلات ، فاتجهت الى الحضارة الغربية تنشد عندها الحل وتبتغى لديها الترياق . وقد أسرفت هذه الفئة في هذا

الاتجاه بحيث تخلت عن تفكيرها المستقل وعن شخصيتها المستقلة فاستحسنست كل موارثه في الحضارة الغربية ، وهاجمت كل مالا يتفق مع اتجاهاتها واخلاقها . وقد كان قليل من التبصر والاخلاص يحتم عليها أن تتلمس الفوارق بين مجتمعنا والمجتمعات الأوروبية ، وأن ما يصلح لها ربما لا يصلح لنا . وما يفيدها قد يضر بنا ضررا بالغيا .

(ب) والفئة الثانية : هي التي تؤمن بأن في الاسلام حل هذه المشكلات ايمانا غيبيا ، ولكنها لا تعرف كيف يحلها ، وتظن أن من الممكن تطبيق الاسلام بنفس الاشكال التي طبقت في عصر الخلفاء الراشدين تماما .

هؤلاء هم اكثر فقهاء الشريعة وعلمائها ، وهم بعيدون كل البعد عن تفهم مشكلات المجتمع الاسلامي الحديث ، ويقفون منها دائما موقفا سلبيا ، وكل ما يقدمونه للناس قولهم أن الرجوع الى الاسلام هو الذي ينقذنا من مشكلاتنا ! ولكن كيف ؟ والى اى مدى ؟ وما هو رأى الاسلام في المشكلات التي لم يعرفها السلف في عصور الخلفاء الراشدين فما بعدهم ؟ اللهم لا شيء .

وابعد من هذا أنهم يحاربون كل اتجاه لحل هذه المشكلات على ضوء مبادئ الاسلام ومقاصده العامة ، بل على ضوء تطبيق الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه لهذه النصوص وفهم علماء السلف في عصور الاجتهاد لها فهمنا نريا صادقا يلتقي مع روح الاسلام واهدافه العامة ، أنهم يحاربون هذه الحلول في هذا الاتجاه مستمسكين بنصوص للفقهاء أو لبعضهم حين جمد العقل الاسلامي ورائت البدع على المجتمع الاسلامي ، ونسيت مقاصد التشريع بل تنوسى تاريخ الرسول والخلفاء الراشدين وتطبيقهم العلمى الرشيد لتلك النصوص .

ان الشريعة عندهم هي هذه النصوص والآراء الفقهية التي وضعت في عصور متأخرة ، والتي لا يتلاءم كثير منها مع مشكلاتنا الحاضرة ولا ينسجم مع روح الشريعة السليمة التي جلت بالعدل والحق وسعادة الناس في دنياهم واخرهم .

هؤلاء هم الذين تكلموا باسم الاسلام في المجتمع امدا طويلا ، واظهروا الاسلام بمظهر المعاجز من حل مشكلات المسلمين ، المصطنع الذي لا يقوم الا على الشدة والضييق والخرق ، المسابر للنظم الاجتماعى والتكلف البعيد الذي عاش فيه المسلمون بضمة قرون .

وقامت المعركة بينهم وبين الفئة الاولى ، وكان سلاحهم غشدها هو الاتهام بالكفر والالحاد ، وسلاح أولئك ضد هؤلاء هو الاتهام بالرجعية والجمود .

وكان الجمهور الاسلامي بمجموعته ، وبطبيعة ايمانه واقتناعه بدينه ، مستعدا أن يصفى الى هؤلاء الفقهاء اكثر . فأيدهم ويساز

وراءهم .. وكان من الممكن ان يكون لهم قوة كبرى لاقامة اصلاح اجتماعي شامل لو كان هؤلاء الفقهاء بغير تلك العقلية وعلى غير تلك السبلية .

ولكنهم لم يفعلوا شيئا .. وازدادت وطأة الحضارة الغربية على العالم الاسلامي . وازداد اتصال المسلمين بها وخاصة بعد الحرب العالمية الاولى .. وانتشرت المعرفة . واتسع نطاق العلم - الذي كان متسما بطابع التفكير الغربي - في مدارسنا ومعاهدنا العليا . وبدأ الجمهور الاسلامي يفقد ثقته بهؤلاء الفقهاء الذين عجزوا عن حل مشكلاته . من حيث لم يثق أبدا برواد الثقافة الغربية التمسمة بطابع العداء للإسلام خاصة ولأديبان عامة .

(ج) ونتيجة لكل صراع من هذا القبيل نشأت الفئة الثالثة التي كان موقفها وسطا بين الفريقين وان كانت في مبادئها أقرب الى الفقهاء من أولئك . وتقدمت لحل المشكلات .

هذه الفئة تنادى بأن الإسلام يحل كل مشكلاتنا الاجتماعية . فهي في هذا تلتقي مع أولئك الفقهاء . لكنها تختلف معهم في فهم هذه المشاكل وتصورها وطبيعة حلها .. وتختلف معهم في طريقه فهم الإسلام وتمثل مقاصده العامة . ويختلفون مع الفئة الأولى من رواد الثقافة الغربية بموقفهم من عقيدة الأمة وتراثها ، وبموقفهم من الحضارة الغربية وإيمانهم باستقامة مبادئها ومذاهبها واتجاهاتها .

انهم لا يرون هذه الحضارة الغربية قادرة على اسعاد الناس ولا يرونها قائمة على أساس يحقق للعالم الأمن والرخاء . ويرونها مضطربة حائرة شقية آخذة في الانهيار . فلا تصلح أساسا يبنى عليه اصلاح حقيقي لحل مشكلاتنا الاجتماعية . ولا يرون فيها قدوده صالحة لاتجاه فكري واجتماعي سليم (١) .

وهكذا وقفت هذه الفئة موقفا « وسطا » ووجد فيها الجمهور الاسلامي أملا في قيادة رشيدة لمستقبل باسم « ولولا كانت لها مشكلاتها الخاصة . وأخطأوا المنهجية ، وظروفها الصعبة . لتصدرت القيادة الفكرية للعالم الاسلامي بلا ريب . ولتم لها ما أرادت من اصلاح شامل لجميع الاوضاع القائمة في المجتمع الاسلامي الحديث .

الاعتراضون :

وبعد فهذا الكتاب نموذج لتفكير هذه الفئة الثالثة ، ولحلها لمشكلات المجتمع الاسلامي . وقد قام على أساس واضح من استقلال التفكير من كل من الفئتين السابقتين اللتين لم تقدم أحدهما للمجتمع الاسلامي حلا معقولا مدروسا منسجما مع عقيدة الأمة ملتقيا مع رغبتها في حل مشاكلها القائمة حلا عمليا ممكنا .

(١) انظر مقدمتنا لكتاب « من رواد حضارتنا » لفريقه بسنطا وآل لوقفتنا من حزم الضباط ورايتنا فيها وفي اصحابها

وكان من الطبيعي أن تستقبله الفئة الأولى بشيء من البرود أول الامر ، لانه يحمل اسم «الاسلام» وهم لا يحبون كل ما يمت اليه بصلة ، ولا يثقون بكل ما يحمله من اراء ، ولا يستسيغون طعما لكل ما يقدمه لهم من الوان الفناء .

ولكنى كنت واثقا ان فيهم فئة تريد الحق وتبحث عنه ، فاذا وجدته لم تتردد ان تعلن اغتباطها بها وجلت ورضاها عما عرفت بعد ان جهلت .

وهكذا كان .. فقد وصلتني رسائل من بعضهم يعلنون فيها فرحهم بما كشف لهم من حق كانوا يجهلونه ، وطريق كانوا يضلون عنه .

وأما الفئة الثانية من الفقهاء ، فهي على عادتها تستقبل كل مالا يرضيها بالسلبية المطلقة ، والتشكيك المطلق .

وفيها نفر طيب ممن نجلهم ونحترم علمهم واخلصهم للدين ودفاعهم منه وان اختلفنا معهم في المنهج والطريق .

وقد كان لبعضهم اعتراضات على ما جاء في « اشتراكية الاسلام » كتبوا بها الى جزاهم الله خيرا ، وهذه الاعتراضات لا تخرج عما أجملته من اسباب الخلاف بيننا وبينهم .

ولست اريد الدخول في نقاش لفظي مع هؤلاء الافاضل ، ولكنى احب ان احدد وجهة النظر المختلفة بيننا وبينهم موضوع « اشتراكية الاسلام » وغيره .

ان لنا موقفا من فهم نصوص الاسلام ، وموقفا من فهم مشاكل المجتمع :

أما فهمنا لنصوص الاسلام فلا يشك كل من درس نصوص الشريعة في قرأتها وستنتها وعمل الخلفاء الراشدين انها تقوم على ثلاثة مبادئ رئيسية :

أولا : تحقيق مصالح الناس في كل ما يحتاجون اليه ، ولا تضيق الشريعة بمصلحة للمجتمع ، يقر العقلاء والدارسون الشرعيون والاجتماعيون بانها مصلحة .

ثانيا : تحقيق العدالة بين الناس اذا تعارضت مصالحهم . مهما كلفت العدالة من حرمان لبعض الناس .

ثالثا - تحقيق التطور الاجتماعي الصالح في المجتمع الانساني ، فلا يقف الاسلام في وجه تطور مافي مختلف نواحي الحياة الاجتماعية ، اذا كان هذا التطور نتيجة محتمة لتطور الفكر أو العلم أو ضرورات الحياة

هذه هي المبادئ الثلاثة التي نعتقد ان نصوص الشريعة كلها تقوم

عليها وتؤديها وتدعو إليها ، فكل اجتهاد وكل رأى ، وكل نصن فقهي يصطدم مع مبدأ من هذه المبادئ فهو مرفوض عندنا مهما كان قائله ، لانه ينافي روح الشريعة ورسالتها الاجتماعية في الحياة .

وأما موقفنا من مشاكل المجتمع ، فهو وجوب دراستها دراسة عميقة ، والاختلاط بالمجتمع اختلاطاً شاملاً لكل فئاته ، حتى تحل المشكلة وتعرف اسبابها ويعرف الطريق الصحيح لحلها حلاً عملياً متفقاً مع رسالة الاسلام .

وعلى هذا الاساس في فهمنا للتصوص وتمثلنا للمشاكل نختلف من بعض الفقهاء الافاضل المعترضين .

انهم يفهمون الشريعة فهماً جزئياً ، مفككاً غير متجه نحو هدف عام . ورسالة شاملة الحياة ، ثم هم يتذكرون بعض احكامها وينسون بعضها آخر ، مع انها كل لا يتجزأ ، ووحد لا تنفرق ، ثم هم يقيمون وزناً كبيراً لنصوص الفقهاء المتأخرين فيعتبرونها شريعة منزلة لا يجوز العدول عنها ولا مخالفتها ولا الرد على قائليها مهما خالفت روح الشريعة ومقاصدها العامة .

ثم هم يفعلون التطور الذي طرأ على المجتمع الاسلامي في هذه العصور بعد ان مضى عصر أولئك الفقهاء ، وان التفقه في دين الله يحتم عليهم ان يعالجوا ما تطور من اوضاع المسلمين على ضوء مبادئ الشريعة ونصوصها لا على نصوص فقهية اجتهادية نشأت في جو خاص وعصر خاص وتفكير خاص .

ثم هم لا يختلطون بالمجتمع الذي يعيشون فيه الا اختلاطاً بسيطاً ويخدمون ببعض الظاهر فيظنونها من علائم الخير مع ان وراءها شراً كبيراً وظلماً فاحشاً .

يرى احدهم من بعض الناس مظاهر من التدين كحضور الصلاة في المساجد ، وصيام رمضان . واحترام العلماء ، واقامة الولائم للفقراء في بعض ايام رمضان . والتصدق بالثمن اليسير على بعض الفلاحين المدينين ، فيعجبه ذلك منه ويشيد بدينه وصلاحه ورقة قلبه و « انسانيته » ويشهد له بأنه يخرج « الزكاة » ويتصدق على « الفقراء » مع الله يأكل حقوق للناس ويظلم الفلاحين ويجمع الاموال الطائلة من جهودهم وظلمه لهم واحتجازه حق الله عنهم ، وله اولاد فجار اشرار ينفقون في ليلة من لياليهم الحمراء ما ينفقه أبوهم على موائد الفقراء سنة كاملة .

فاذا نزل أحد هؤلاء الفقهاء ضيفاً على صاحب أرض كبيرة فقدم له مائدة عامرة بالوان الطعام . خرج يشكره على كرمه ، وهو لا يفكر ان يسأل عن هؤلاء الفلاحين والعمال الذين يعيش بينهم هذا الغنى « الكريم » كيف يعيشون ؟ وكيف ياكلون ؟ وكيف يعاملهم هذا الغنى « الكريم » وماذا ينالهم « من كرمه » ؟

ثم هم لا يخرجون في الغالب من بيوتهم الا الى مساجدهم ار مدارسهم واذا مروا في الطريق غضوا ابصارهم لئلا يروا المنكرات ، ولا يفكرون في ان يختلطوا بالتجار في اسواقهم ، والعمال في بيوتهم والناس في مجتمعاتهم ، ليروا كيف يتعاملون ، وماذا يعانون من المشاكل ، وماذا يفتك بهم من سموم واططار . ويكتفى ائلاهم بأن يسمع من بعض من يحضر مجالسه شكوى عن معاملات التجار أو لبس النساء ، أو اخلاق الشباب ، فاذا هو ينكر ويصبح دون أن يبحث عن أصل المشكلة وأسبابها وهواملها وكيف تحلل حلا عمليا يستطيعه الناس وترضاه الشريعة ؟

هذا مثل لغفلة هؤلاء الفقهاء عن دينهم وشريعتهم ورسالتهم في المجتمع الذي يعيشون فيه ، وبهذه الروح والسمات الظاهرة لوسل بعضهم ينقد بعض ما جاء في « اشتراكية الاسلام » :

لانه لا يوافق على تحديد الملكية بالنسبة للملكيات القائمة ، ويجيز ذلك بالنسبة لما ينشأ من ملكيات في المستقبل ، ولا يوافق على التأميم لان في ذلك انتزاعاً للملكية الأرض ممن يملكها « شرعاً » ومع ما قدمته في بحث التأميم وتحديد الملكية من مستندات شرعية لذلك فانهم لم يفكروا أبداً في مصائب الفلاحين الذين كانوا يعيشون في النظام البائد : فقرهم ، ومرضهم ، وجهلهم ، وقهاسهم وتشردهم ، وأنما يفكرون في حماية « حق » صاحب الأرض الواسعة في الإبقاء على ملكيته لئلا « يظلم » .

انهم يفضون لظلم « فرد » واحد ، ولا يفضون لظلم « الآلاف وعشرات الآلاف » فهم بين امرين : اما أن يعترفوا بالحالة التعيسة التي تعيش فيها هذه الآلاف ، ولكنهم لا يرون مجالاً لانتصافها بحجة أن « الشريعة » أعطت صاحب الأرض الحق في هذه الملكية التي نشأ عنها هذا الظلم القبيح ، وبذلك يكونون قد جنوا على الشريعة وأساءوا إليها ، وصدوا الناس عن دين الله من حيث يتصدون للدعوة إليه والدفاع عنه ، وأما أن يجهلوا الحالة التعيسة التي يعيش فيها هؤلاء الفلاحون فكيف يجوز لهم أن يتصدوا للوعظ والافتاء والتحدث باسم الشريعة وهم لا يعلمون أمراض المجتمع الذي يعيشون فيه .

لقد قال بعضهم : لا حاجة الى فرض ضرائب على الشعب عند الكوارث والمحن ، فمن الممكن أن تستدين الدولة من الاغنياء الزكاة الواجبة عليهم لمدة سنة أو سنتين عما يستقبل من الزمان كما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك .

فهل ترى مثل هذا التفكير يدل على فهم لتطور المجتمع والدولة واحوال الناس ؟

ثم الا ترى فيه غفلة عن نصوص الشريعة التي ذكرناها والوقائع التاريخية التي أثبتناها مما يجعل من حق الدولة أن تفرض مثل ذلك على الشعب حين وقوع الكوارث أو احتياج بيت المال الى المال ؟

ويقول بعضهم : انه لاسبيل الى انتزاع الملكية ممن يملك الارض بحجة حماية الفلاحين من التشرذم والجوع ، بل على الدولة أن تطعمهم وتكسبهم ! كان من واجبه الشعب - ومال الدولة هو مال الشعب أن ينفق على فلاحى أرض يستغل صاحبها جهودهم وأعمالهم لتنمو ثروته وتكثر امواله ، أى أننا يجب أن نأخذ من الشعب لنمكن « فردا » واحدا أن يزيد فى ثروته وبذخه وتبذيره وأفساده للأخلاق وللكرامات

ومن أعجب ما قرأته من اعتراض هؤلاء : ان الفقر ليس نقمة دائما وأبدا ، بل هو « نعمة » فى أكثر الحالات ، ولاكثر الناس !

يقولون هذا وهم يعنون بالفقر الجوع والعرى والمرضى وحرمان وسائل العيش الكريم ، وهم بأنفسهم لا يطبقون على هذا صبرا ، ولا يصبرون عليه ولا يرضونه لأولادهم ونسائهم يوما واحدا ، فكيف يبررون به رضاهم عنه لجمهور الأمة وسواد الشعب ؟

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن الفقر انه قريب من الكفر ، وعن الجوع انه بنس الضجيع ، ويستعيد بالله منهما ومن غلبة الدين وكثرة الهوم وقهر الرجال ..

فكيف يرضى عالم بدين الله ، محب لرسول الله ان يرضى بتقلب الجماهير فى البؤس والجوع والهوم والأمراض والاحزان ، من حيث تعيش بجائهم « قلة » مترفة فاجرة تحدث القرآن عنها كثيرا بأنها تحارب شرائع الله ورسله وتعمل على انهيار الأمة وخراب البلاد .. وكذلك رأيناها تفعل .

ان رسالة الاسلام تمتاز عن جميع الشرائع والديانات بأنها نظمت شئون المعاش ولم تترك رعاية الفقراء وأطعامهم صدقة ولامنة ، بل حقا وواجبا ، وهى الشريعة الواحدة التى لم تمن شيئا من أمور الحياة الدنيا بمثل ما عنيت بأمر التملك والكمب وتنظيم وسائلهما وضمان كرامة المعيشة لكل فئات الشعب وطبقاته .

والاسلام صريح فى أن ضمان ذلك للناس من اقرب القرىبات الى الله ولقد رأينا كيف اعتبر عبد الله بن المبارك أطعام صبيين جائعين أفضل من التقرب الى الله بحجة هو ومن معه ! وكيف أعطاهما ما كان يدخره لنفقات الحج ثم قفل عائدا الى بلده وقال : « هذا أفضل مما قصدنا اليه .. »

صيانة طفلين من الجوع والعرى والتشرذم أفضل من التنفل بالطواف بالبيت والصلاة بالمسجد الحرام والوقوف بعرفات « أفضل من قراءة القرآن وذكر الله وأداء شعائره ! .. هذا هو الاسلام الذى تفتحت له قلوب أبناء الدنيا يوم فتح الدنيا .. وهذا هو الاسلام الذى تربده الدنيا اليوم !

أترى لو أن هذا الاسلام الذى فهمه أمثال الامام المحدث المجاهد العالم العظيم عبد الله بن المبارك يفهمه اليوم علماءنا وحملة الشريعة

فينا اكان في الدنيا من يتطلع بعقله وبصره الى افاق عقيدة أخرى ليجد في ظلها السعادة والاطمئنان ؟ اكانت الجماهير تفتن بالشيوعية أو الاشتراكية الفرية لو غيرهما من النظم التي تزعم أنها جاءت لتنقذ العالم من البؤس والشقاء ؟ اكان في أبنائنا من يكفر بالله ويستهزئ بدينه ويتخلى عن نبيه الا أن يشاء الله ؟.

ان العالم اليوم - ونحن المسلمين خاصة - في اشد الحاجة الى هذا الاسلام الذي فهمه ابو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان ابن عفان وعلى بن ابي طالب ، وعمر بن عبد العزيز ، وصلاح الدين الايوبي وعبد الله بن المبارك والبخاري وابو حنيفة ومالك والشافعي والحمد وابن تيمية وامثالهم من ائمة الاسلام واعلام الهدى .. فمن كان عاملا لخير الانسانية فليعمل لهذا ، ومن كان يريد الخير للاسلام يزرع الفرة عليه والدفاع عنه فلا يقف في وجه الذين يدعون لمثل هذا . « قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصرية انا ومن اتبعني وسبحان الله وما انا من المشركين » (١) -

الأبحاث

صفحة

٣	مقدمة الطبعة الثانية
٤	مقدمة الطبعة الأولى
١٥	مقدمة المحاضرة
١٧	موقف الإديان من الفقر
١٩	حديث القرآن عن عناية الأنبياء بمشكلة الفقر
٢٢	في اليهودية :
٢٢	في العهد القديم
٢٧	في المسيحية :
٢٧	في العهد الجديد
٣٠	معيشة المسيح
٣٠	معيشة أصحاب الأوائل
٣١	المبادئ العامة لدعوتهم
٣٥	في الإسلام :
٣٧	الحقوق الطبيعية
٣٩	حق الحياة
٤٠	ما يتعلق بحفظ الحياة
٤١	ما يتعلق بحفظ الصحة
٤٣	سقوط الواجبات عند الخطر
٤٥	خوارج فعل المحرمات عند الضرورة
٤٦	حماية حياة الأطفال
٤٧	حق الحياة للآراء
٤٧	حق الحياة للحيوان
٤٨	حق الحرية
٤٨	الحرية الإنسانية
٥٠	الحرية الدينية
٥٢	الحرية العلمية
٥٤	الحرية السياسية
٥٥	الحرية المدنية
٥٦	الحرية الاجتماعية
٥٦	الحرية الأدبية
٦٠	حق العلم
٦٠	الإشادة بالعلم
٦١	الإشادة بالعلماء
٦٢	تفضيل العلماء على المنقطعين للعبادة
٦٢	الحث على طلب العلم

٦٣	فضل الرحلة في طلب العلم
٦٣	لا خير في غير العالم والمتعلم
٦٣	وجوب التعلم والتعليم
٦٤	حدود العلم
٦٥	مداول العلم
٦٦	اقسام العلم :
٦٦	١ - ما هو فرض عين
٦٦	٢ - ما هو فرض كفاية
٦٧	العلم المندوب والمباح
٦٧	أيهما أفضل
٦٧	النتيجة
٦٧	العلم شرف
٦٨	العلم واجب
٦٨	العلم حق
٦٩	العلم حق للجميع
٧٠	أثر هذا الحق في البيئة الإسلامية
٧١	حق الكرامة
٧١	١ - كرامة الاخاء الانساني
٧٢	ب - كرامة المساواة والحقوقية
٧٣	ج - كرامة العدالة القضائية
٧٥	د - كرامة العدالة الاجتماعية
٧٥	هـ - كرامة المنزلة القضائية
٧٦	و - كرامة السمعة العائلية
٧٨	حق التملك :
٧٨	القوانين المنظمة لهذه الحقوق
٧٩	مبادئ التملك
٨١	الكون كله لله
٨١	الكون مسخر للانسان
٨١	المال وسيلة للخير
٨٢	الفقر مرض اجتماعي
٨٣	العمل أهم وسائل التملك
٨٣	تأمين الموارد الضرورية
٨٣	طرائق التملك
٨٣	الحجر على السفهاء
٨٤	التملك وظيفة اجتماعية
٨٤	كراهية تكديس الثروات

٨٤	الملكية المشروعة مصنوعة
٨٥	وجانب التكافل الاجتماعي
٨٥	مشروعية الارث
٨٥	حق الخزانة العامة
٨٧	ابحاث حول حق التملك
٨٨	أحياء الموات :
٨٨	تعريف الموات
٨٩	هل يشترط أن يكون بعيداً عن العمران ؟
٨٩	ما هو أحياء الموات
٨٩	حكم أحياء الموات
٩٠	هل يشترط اذن الدولة ؟
٩١	شرط تملكه
٩٢	الاقطاع
٩٢	تعريفه
٩٢	وقائع الاقطاع في عهد الرسول والظفراء
٩٤	افتراء جاهل
٩٦	المبادئ العامة لصيانة حقوق العمال
٩٧	١ - العمل شرف
٩٧	٢ - العمل نعمة
٩٧	٣ - العامل مسئول
٩٧	٤ - رب العمل مسئول
٩٧	لا عمل من غير أجر
٩٨	٦ - الأجر على قدر العمل
٩٨	٧ - الأجر حق لا منة فيه
٩٨	٨ - الأجر في حماية الدولة
٩٨	٩ - العمل على قدر الطاقة
٩٨	١٠ - حق العامل في تأمين نفقاته
٩٩	١١ - حق العامل في الراحة
٩٩	١٢ - للعامل حماية المجتمع
١٠١	التساميم
١٠٥	تحديد الملكية
١٠٩	قوانين التكافل الاجتماعي
١٠٩	مبدأ التكافل الاجتماعي في الاسلام
١١٢	معنى البر في القرآن
١١٢	معنى التقوى في القرآن
١١٤	أنواع التكافل الاجتماعي في الاسلام :
١١٥	أولاً : التكافل الادبي
١١٥	ثانياً : التكافل العلمي
١١٥	ثالثاً : التكافل السياسي

١١٦	رابعاً : التكافل الدفاعي
١١٦	خامساً : التكافل الجنائي
١١٦	سادساً : التكافل الأخلاقي
١١٧	سابعاً : التكافل الاقتصادي
١١٧	ثامناً : التكافل العبادي
١١٧	تاسعاً : التكافل الحضاري
١١٨	عاشرًا : التكافل الماشي
١١٩	قوانين التكافل الماشي
١١٩	١ - النفقات التي تستحق التكافل
١٢٠	قانون المساعدة
١٢٠	قانون الضيافة
١٢٠	قانون المشاركة
١٢١	قانون الماعون
١٢٢	قانون الإعفاف
١٢٢	قانون الإسعاف
١٢٣	قانون الطوارئ
١٢٦	قانون التعويض المائلي
١٢٨	ب - موارد نفقات التكافل
١٢٨	١ - قانون الزكاة
١٢٩	٢ - قانون النفقات
١٣٠	٣ - قانون الوقف
١٣٠	٤ - قانون الوصية
١٣٠	٥ - قانون القنائم
١٣١	٦ - قانون الركاك
١٣١	٧ - قانون قانون النذور
١٣١	٨ - قانون الكفارات
١٣٢	٩ - قانون الاضاحي
١٣٢	١٠ - قانون صدقات الفطر
١٣٢	١١ - قانون الخزينة العامة
١٣٣	١٢ - قانون الكفاية
١٣٥	حقوق عن التكافل الاجتماعي عندنا وعند القريين
١٣٥	عندنا
١٣٥	عند القريين
١٣٧	المؤيدات
١٣٩	أ - المؤيدات الاعتقادية
١٤٠	ب - المؤيدات الاخلاقية
١٤٩	ج - المؤيدات المادية :
١٥٠	١ - الحسبة
١٥٤	٢ - الحدود والقصاص
١٥٤	٣ - التعزير

١٥٤

١٥٥

١٥٥

١٥٥

١٥٥

١٥٧

١٥٧

١٥٩

١٦٣

١٦٥

١٦٥

١٧١

١٧٧

١٨٢

١٨٢

١٨٣

١٨٣

١٨٤

١٨٤

١٨٥

١٨٦

١٨٦

١٨٧

١٨٧

١٨٨

١٨٩

١٨٩

١٩٠

١٩٠

١٩٠

١٩١

١٩١

١٩٦

١٩٦

٢٠٠

٢٠٠

٢٠٠

٢٠١

٢٠٢

٤ - الجهاد

د - المؤيدات التشريعية :

أ - المصادر التشريعية :

١ - لاستحسان

٢ - الاستصلاح

٣ - العرف

ب - القواعد التشريعية

الملاحظات

المقارنات :

أ - مع الراسمالية

ب - مع الشيوعية

آراء الفريقين

الزقاق التاريخي

شخصية الرسول وأثره

١ - أوصافه الخلقية

٢ - معيشته في نفسه

٣ - معيشته في بيته

٤ - عمله في بيته

٥ - معاملته لأصحابه

٦ - خشيته وعبادته

٧ - رياضته ونظافته

٨ - مزاجه ودعابته

٩ - تواقفه وسماحته

١٠ - رحمته وشفقته

١١ - مشاركته لألام الشعب

١٢ - زهده في الدنيا

١٣ - نفقاته وصدقائه

١٤ - عدله وشدته في الحق

١٥ - شجاعته في الحروب

١٦ - حرصه على أداء رسالته

١٧ - الرسول الكامل

١٨ - الرسول المعلم

- في الدولة الإسلامية

١ - في عهد الرسول

خطبة الوداع

٢ - في عهد الخلفاء الراشدين

في عهد أبي بكر

في عهد عمر

في عهد عثمان

في عهد علي

٢٠٢	٣ - في العهد الاموى
٢٠٢	٤ - في العهود الاخرى
٢٠٣	في الحروب الاسلامية
٢٠٤	ب - المال في المجتمع الاسلامى
٢٠٥	اخلاقهم في المعاملات
٢٠٥	اخلاقهم في الجوار
٢٠٥	موقفهم من اموالهم
٢٠٥	استجابتهم لدعوة الخير
٢٠٦	ثقة بعضهم بخديث بعض
٢٠٦	عنايتهم باليتامى والمساكين والجيران
٢٠٦	اشتراكيتهن في الاموال
٢٠٦	ايتارهم وحرصهم على اخوانهم
٢٠٦	عتقهم للرقيق اذا اساء اليه
٢٠٧	كثرة الفقهاء وكثرة المنفقين
٢٠٧	جمعهم بين الجد واللعب
٢٠٧	خوفهم من النفاق في العقيدة
٢٠٧	صبرهم على الجوع خوفا من النار
٢٠٧	حرصهم على اخلاق الخدم
٢٠٧	اذا تراوروا تجملوا
٢٠٧	يتعلمون العلم والعمل معا
٢٠٨	امانتهم وعتقهم في الحروب والغنائم
٢٠٩	الاثار الباقية في المجتمع من اشتراكية الاسلام
٢٠٩	اولا - اخراج الزكاة
٢٠٩	ثانيا - التكافل العائلى
٢٠٩	ثالثا - الوصايا
٢٠٩	رابعا - النذور
٢١٠	خامسا - الاوقاف :
٢١١	اوقاف للطب النفسى
٢١١	اوقاف للتزويج
٢١١	وقف الزبائدى
٢١١	نقطة الحليب
١١٢	وقف للحيوان
١١٢	تطبيب الحيوان
١١٣	في الفرد السلم
٢٢٩	الخاتمة
٢٣٥	اللاحق :
٢٣٧	١ - جواب الاسلام على الشيوعية
٢٤٤	٢ - مع المتراضين خطتان مختلفتان
٢٥٢	الفهارس
٢٥٨	المراجع

المراجع

نذكر فيما يلي أهم المراجع التي أخذنا منها إبحاثنا في هذا الكتاب

١ - من كتب التفسير

- ١ - تفسير ابن جرير الطبري - المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٣٢٣ هـ
٢ - تفسير الحافظ ابن كثير - دار احياء الكتب العربية بالقاهرة
« من غير تلويح »
٣ - جامع احكام القرآن للقرطبي - دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٥٤
- ١٣٦٩
٤ - روح المعاني للالوسي - المطبعة الاميرية بالقاهرة « من غير
تلويح »

ب - من كتب الحديث

- ٥ - صحيح البخارى بشرح ابن حجر - المطبعة المصرية بالقاهرة ١٣٤٨
٦ - صحيح مسلم بشرح النووي - المطبعة المصرية بالازهر بالقاهرة ١٣٤٧
٧ - صحيح الترمذى بشرح ابن العرانى - مطبعة الصاوى بالقاهرة ١٣٥٢
٨ - سنن أبى داود بشرح الخطابى - المطبعة الخلمية بحلب ١٣٥١
٩ - سنن النسائى بشرح السيوطى - المطبعة المصرية بالازهر « من غير تاريخ
١٠ - سنن ابن ماجة بتعليق السندى - المطبعة العلمية بالقاهرة ١٣٦٣
١١ - موطا مالك بشرح الباجى - مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٣١
١٢ - مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر - دار المعارف بالقاهرة ١٣٦٨
١٣ - الادب المفرد للامام البخارى المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٧٥
١٤ - اشتمال المحمدية للامام الترمذى - طبع القاهرة
١٥ - المقاصد الحسنة للسخاوى مكتبة الخانجى بالقاهرة ١٣٧٤
١٦ - الترغيب والترهيب للعندى - دار احياء الكتب العربية بالقاهرة
١٧ - مجمع الزوائد للهيثمى - مكتبة القدسى بالقاهرة ١٣٥٢
١٨ - الجامع الصغير للسيوطى - مطبعة مصطفى محمد بالقاهرة بشرح الننادى ١٣٥٦
١٩ - علل الحديث لابن أبى حاتم - المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٣
٢٠ - شرح الزرقانى على المواهب - المطبعة الازهرية بالقاهرة ١٣٢٥

ج - من كتب أصول الفقه

- ٢١ - الموافقات للشاطبي بتحقيق
دراثر - المكتبة التجارية بالقاهرة
- ٢٢ - الاحكام في اصول الاحكام لابن
حزم - مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٥
- ٢٣ - الاحكام في اصول الاحكام - مكتبة محمد على صبيح بالقاهرة
١٣٤٧ للامدى
- ٢٤ - المستصطفى للامام الفزالي - المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٣٣٢
- ٢٥ - مسلم الثبوت لابن عبد الشكور - المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٣٣٢
- ٢٦ - التقرير شرح التحرير - المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٣٣٢
- ٢٧ - جمع الجوامع للسبكي - طبع القاهرة ١٣٣١

د - من كتب الفقه

- ٢٨ - المبسوط للامام السرخسى - مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٤
- ٢٩ - تحفة الفقهاء للسمرقندى - مطبعة جامعة دمشق ١٣٧٨
- ٣٠ - بدائع الصنائع للكاسانى - شركة المطبوعات العلمية بالقاهرة
١٣٢٧
- ٣١ - فتح القدير لابن الهمام - المطبعة الميمنية بالقاهرة
- ٣٢ - الاختيار شرح المختار للموصلى - مكتبة محمد على صبيح بالقاهرة
- ٣٣ - ابن عابدين على الدر المختار - دار الطباعة المصرية ١٣٧٧
- ٣٤ - المغنى والشرح الكبير
(الطبعة الثانية) - مطبعة المنار بالقاهرة ١٣٤٦
- ٣٥ - الخراج لابي يوسف
(الطبعة الثانية) - مطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٥٢
- ٣٦ - الخراج ليحيى ابن آدم - مطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٥٢
- ٣٧ - الاموال لابن عبيد - المكتبة التجارية بالقاهرة ١٣٥٣
- ٣٨ - حاشية القليوبى على المنهاج - دار احياء الكتب العربية بالقاهرة
- ٣٩ - الاحكام السلطانية للماوردى - مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٧
- ٤٠ - الاحكام السلطانية لابي يعلى - مطبعة البابى الحلبي بالقاهرة
١٣٥٦
- ٤١ - الحسبة لشيخ الاسلام ابن
تيمية - طبع القاهرة
- ٤٢ - المحلى لابن حزم - المطبعة المنيرية بالقاهرة
- ٤٣ - اعلام الموقعين لابن القيم - المطبعة المنيرية بالقاهرة
- ٤٤ - زاد المعاد لابن القيم - طبع مصطفى البابى الحلبي بالقاهرة
١٣٦٩
- ٤٥ - الاشباه والنظائر لابن نجيم - المطبعة الحسينية بالقاهرة ١٣٢٢
- ٤٦ - الاشباه والنظائر للسيوطى - المكتبة التجارية بالقاهرة ١٣٥٩
- ٤٧ - نهاية الرتبة في طلب الحسبة - طبع القاهرة

هـ - مؤلفات حديثة في الفقه والاصول وغيرها

- ٤٨ - الامام زيد للاستاذ ابي زهرة - طبع القاهرة
٤٩ - المدخل الفقهي للاستاذ الزرقاني
(الطبعة الخامسة) - مطبعة جامعة دمشق
٥٠ - المدخل الى اصول الفقه للدكتور
دواليبي (الطبعة الثالثة) - مطبعة جامعة دمشق
٥١ - شرح قانون الاحوال الشخصية
للسباعي - مطبعة جامعة دمشق
٥٢ - مجلة الاحكام العدلية - طبع استانبول
٥٣ - علم المالية للاستاذ فارس
الخوري - مطبعة الجامعة السورية
٥٤ - نظام السلم والحرب في الاسلام
للسباعي - مطبعة الكشاف المسلم - بيروت

و - من كتب الادب والتاريخ وغيرها

- ٥٥ - سيرة ابن هشام - مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٥
٥٦ - تاريخ الطبري - مطبعة الاستقامة ١٣٥٧
٥٧ - البداية والنهاية لابن كثير - مطبعة السعادة بالقاهرة
٥٨ - فتوح البلدان للبلاذري - مطبعة الموسوعات ١٣١٩
٥٩ - التجنيم الزاهرة لابن تغري
بري - دار الكتب المصرية ١٣٤٨
٦٠ - صبح الاعشى للقلقشندي - المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٣٣١
٦١ - وفيات الاعيان لابن خلكان - طبع المكتبة التجارية بالقاهرة
٦٢ - الوافي بالوفيات للصفدي - طبع استانبول ودمشق
٦٣ - فوات الوفيات لابن شاكر الكبي - طبع القاهرة
٦٤ - تهذيب التهذيب لابن حجر - طبع الهند
٦٥ - سيرة عمر بن عبد العزيز لابن
عبد الحكم - بتحقيق احمد صبيد ١٣٧٣
٦٦ - جهمرة رسائل العرب لصفوت - طبع القاهرة
٦٧ - تاريخ الاسلام السياسي لحسن
ابراهيم - طبع القاهرة
٦٨ - مع الرعيل الاول لمحبة الدين
الخطيب - طبع المطبعة السلفية بالقاهرة
٦٩ - تاريخ القضاء والقضاة لعرنوس - طبع المطبعة الحديثة بالقاهرة
٧٠ - من اخلاق العلماء لعمد سليمان - طبع المطبعة السلفية بالقاهرة
٧١ - جامع بيان العلم لابن عبد البر - ادارة الطباعة المنيرية بالقاهرة
٧٢ - احياء علوم الدين للفرابي - طبع المكتبة التجارية بالقاهرة
٧٣ - الكبائر للذهبي - طبع المكتبة التجارية بالقاهرة

- ٧٤ - الاسلام والحضارة العربية
لكرد على - طبع دار الكتب المصرية
- ٧٥ - خطط الشام لكرد على - طبع دمشق
- ٧٦ - الاسلام والنظام العالمى
الجديد لمحمد على - طبع القاهرة
- ٧٧ - معالم تاريخ الاسلام لويلز - طبع القاهرة
- ٧٨ - قصة الحضارة لديورانت - طبع القاهرة
- ٧٩ - دفاع عن الاسلام لفاغليرى - طبع بيروت

ز - من الكتب الدينية المسيحية

- ٨٠ - العهد القديم والعهد الجديد - طبع كمبردج ١٩٣٧
- ٨١ - التفاسير البيضاوية لرسائل
بولس - طبع القاهرة
- ٨٢ - رسول الجهاد « بولس »
لحبيب سعد - طبع القاهرة



١٩
بوصة

أروع ما أنتجت
مصانع شركة النصر للتليفزيون
على أحدث طراز عالمي

مركز أبحاث قناة السويس

تقدم المشروعات الهندسية الكبرى دائما على أساس قوى من الدراسات الفنية للجوانب المختلفة المتصلة بها . وقد وضعت هيئة قناة السويس هذه الحقيقة موضع الاعتبار منذ اليوم الاول لتأميم القناة .

فعملت على تكوين جهاز فنى لدراسة التطورات المنتظرة في حركة الملاحة بالقناة ، وارتباطها بحركة النقل العالمية وما يتبع ذلك من مشروعات تهدف الى مداركة هذا التطور من ناحية عدد السفن وحمولتها .

وعند دراسة تفاصيل تلك المشروعات برزت مسائل يحتاج البت فيها الى ابحاث معملية فتقرر انشاء مركز للأبحاث بمدينة الاسماعيلية للقيام بالدراسات المتعلقة بالقناة ومشروعاتها .

وفي سبيل الاسهام في مضمار التنافس العملى واذكاء روح البحث والمعرفة في هذه المنطقة من العالم اتجه الرأى الى ان يقوم هذا المركز الى جانب الفرض الاساسى من انشائه ، بالابحاث والدراسات التى تدخل في اختصاصه ، لحساب الهيئات المختلفة في جميع انحاء العالم ، كمشاكل القنوات الملاحية ، والموانئ وتصميمات هياكل السفن ومراوحها وغير ذلك .

ويشمل الجزء الاكبر من هذا المركز معملا للأبحاث الهيدروكية ملحق به معمل لاختبار خواص المواد ومقاومتها ، ومعملا آخر لميكانيكا التربة واختبارها ومعملا للدراسات الخاصة باستعمال النظائر المشعة في ابحاث القناة مع ما يقتضى سير العمل في كل من هذه المعامل من قاعات ومعدات وورش وتجهيزات على احدث النظم العلمية .

الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون ٤٥٣٤٦ - ٤٥٤٠٥ - ٢١٦٢٥

مجموعة
اخترنا لك
تصدر

نصف شهرية باللفات العالمية
يشارك في تحريرها واعدادها
مجلة "اخترنا لك"

المراسلات : الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عيسى - روض الفرج

تليفون ٤٥٢٤٦ - ٤٥٤٠٥ - ٢١٦٢٥

Bibliotheca Alexandrina



0678432

العدد ١٥ قرص